کن کابن آدم
جودت سعید

هذه الصفحات مقدمة ومدخل إلى مشكلة الإنسان ، مشكلة أبناء آدم . وقد قصَّ الله علينا نبأ ابْنَيْ آدم في موقفيهما وأُسلوبيهما في حلِّ المشكلات : موقف وأُسلوب من يحل المشكلة ويعالج المرض بالقتل ، وموقف وأسلوب من لا يقبل أن يكون حلُّ المشكلات وعلاج الأمراض بالقتل ، ويمتنع عن الدخول إلى هذا الأسلوب في حلِّ المشكلات .

ولقد اقتربت البشرية من إمكانية تفهم نبأ ابْنَيْ آدم ، ذلك النبأ العظيم الذي طالما أعرض عنه الناس ، فاعتبروا حلّ المشكلات بأُسلوب الامتناع عن الدخول في العنف جنوناً وتراجعاً ، و لم يكونوا يدركون أن هذا الموقف هو الحل الذي يتصف بالخير والأبقى ، وأنه الأُسلوب الاقتصادي ، وأنه التطور والخروج من مرحلة شريعة ما قبل الإنسان ، شريعة الغاب .

نعم لقد وصلت البشرية ، وصل أبناء آدم في تطورهم التقني وعبر تجاربهم التاريخية إلى أن حل المشكلات بالعنف حل انتحاري . وصلوا إلى الطريق المسدود ، و لم يبق إلاّ أن يكتشفوا الوسائل الأخرى لحل المشكلات ، وفي هذا الحق خصَّصت كلَّ جهودي المتواضعة ، وأنا لا أشك ، ولا أتردد في القول ، إن البحوث التي ستكتب في هذا الموضوع ستكون أفضل من كتابي هذا ، وليس لي من فضل إلا أنني صدمت عقول الكثيرين بطرحي لشيء لم يسمعوا به .

وإذا لم تنفع الكلمات في إخراج الإنسان من العنف فستخرجه نتائج وعواقب الكلمات ، وقد آن لنا أن نتعلم !! ..

إن الذي يمنع العرب والمسلمين من تفهم هذا الموضوع هو مشكلة (إسرائيل) ، فهم لا يرون لها حلاً إلاّ العنف ، ولكن الساسة - في وضعهم المأساوي - أدركوا أن مشكلتها لا تُحلُّ بالعنف ، وهذا هو الذي ألجأهم إلى السلام مع إسرائيل !!!

أيها العرب ! أيها المسلمون ! أريد أن أدلكم على أسلوب يحل المشكلة الإسرائيلية والإمبريالية .

المشكلة ليست في (إسرائيل) ولا في الإمبريالية ، المشكلة في الأمراض التي نحملها ، وقد ورثناها عن آباءنا الذين فقدوا الرشد والرشاد منذ زمن طويل .

لقد علمنا الرحمن أن المشكلة من عندنا ، وليست من عند أعدائنا ، ولا من عند الشيطان فقال : (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) [آل عمران : 165/3]، وهو تعالى ينقل عن الشيطان قوله : (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) [إبراهيم : 22/14] ، والتاريخ وعواقب الأُمور صدقت هذا التحليل ، ومن كان لا يزال يشك في هذا فليتذكر حرب الخليج الثانية ، لقد نسينا إسرائيل حين تحركت الأمراض التي بيننا ، ودعونا أعداءنا الإمبرياليين والعالم جميعاً ليخلصونا من عدونا الداخلي .

الله تعالى يقول لنا : (انظُرُوا) [الأنعام : 11/6] إلى الماضي ، وإذا لم تكف أحداث الماضي فـ (انتَظِرُوا) [هود 122/11] ، إذا لم يكف الماضي ، فإن ما سيأتي سيحملكم على الاقتناع :

(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) [هود : 78/21] ، أليس فيكم من يفكر في السلام فيما بيننا ؟ في أن نحل مشكلات العرب والمسلمين بالسلام !! ..

إننا نبكي ونصرخ أمام العالم ونقول : (إسرائيل) لا تقبل السلام . وأنا أقول لكم : اصنعوا السلام بينكم ، وسترون كيف أن العالم سيحترمكم ، وسيخطب ودكم ، وسترون كيف أن أمريكا ستتخلى عن (إسرائيل) ، وستتواصل معنا أوربة ، وستقدرنا الصين .

حين نقيم السلام بيننا ستتخلى أمريكا عن (إسرائيل) كما تخلت من قبل عن (رموزا) ، وكما تتخلى بريطانية الآن عن (هونغ كونغ) ، ولن يستطيع الإسرائيليون المكوث والعيش في فلسطين بمجرد أن نقول نحن : لا ، لا نقبل وجودكم ، ولكننا لا نزال عاجزين عن فهم هذه الآيات .

هذا هو العالم الجديد ، لقد خلق الله الإنسان ، و لم يجعل لأحد قردة على إذلاله إلاّ إذا رضي الإنسان بذلك .

متى سنتعلم ونرى ؟

إن الذي لا يتعلم الأبصار بواسطة الأحداث والتاريخ ؛ فسيتعلم الأبصار بالآلام والأثمان التي سيدفعها جزاءً له على إغلاق سمعه وبصره .

ألا من كانت له أُذنان فليسمع ! ومن كانت له عينان فليبصر ! (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف : 105/12] .

فلنتكلم عن السلام فيما بيننا ! كيف يمكن أن يتحقق هذا السلام من دون أن يخسر منا شيئاً ، ولا أرضاً ولا زعامة ؟ بل يكسب الجميع ويربح الجميع ويحترمهم العالم ، وتفرح الشعوب أيضاً .

أين المثقف القادر على أن يفتح فمه ليتكلم بهذا ؟

إنهم (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) [البقرة : 18/2] ، (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً) [مريم : 98/19] ، وسبب سكوتنا أننا لا نزال نَحِنُّ إلى بطل يوحدنا بالعنف ، ولن نستطيع أن نتكلم إلاّ حين يخرج من قلوبنا هذا الحنين .

نعم إننا لا نسمع ولا نحس ، ولكن النهار قادم ، ملكوت الله قادم : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فلا تَسْتَعْجِلُوهُ) [النحل : 1/16] ، والعالم يتململ ، ووعد الله لابد أن يتحقق : (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ) [الصف : 8/61] ، على الرغم من الذين لا يبصرون ، وإننا على بينة ويقين من ذلك ، لا على أساس الغيب ، بل على أساس الشهادة ، وليس في السماء فقط بل وفي الأرض أيضاً .

جودت سعيد

بئر عجم 1996/11/6

تمهيد

لغة الحروف ولغة المعاني

« كن كابن آدم »[1] أو » كن كخير ابني آدم »[2] .

ما هذا الكلام ، وما معناه ؟ ومن الذي تكلم به ومتى ؟ ولمن ولأي زمان كان هذا الكلام موجهاً ؟!

هل حقاً أن هذا الكلام قاله رسول الله r ؟ فإذا كان الذي قال هذا الكلام هو رسول الله ، فلماذا كان هذا الكلام موضع استهزاء وسخرية ؟

ويقول لي قائل أمام الملأ ، منكراً هذا الكلام : أنا أريد أن أدخل الجنة شاهراً سفي ، مرفوع الرأس ، لا مطأطئ الرأس مستسلماً كابن آدم . والكلام الذي من هذا النوع كثير وكثير جداً .

إذا كان « كن كابن آدم » كلاماً قاله الرسول r ؛ فلماذا هذا الكلام منبوذ ومستهجن إلى هذه الدرجة ، وبهذا الشكل من الإجماع ؟ ثم ما معنى الإجماع ، وكيف يتكون ؟

لماذا لم يذكر المسلمون هذا الحديث ، ولم يستشهدوا به في شروحاتهم ؟ بل لماذا يكتبوا حوله كتاباً خاصاً ما كتبوا حول أحاديث أو آيات معينة ؟

لِمَ هجر المسلمون هذا الحديث إلى درجة أنَّ أحداً لم يستشهد به في كتاب قديم أو حديث ، إلاّ أن يكون من الكتب التي تحصي أقوال الرسول r ؟ أما أن يُستشهد به كأمر ، والأمر يقتضي الوجوب ، كما يقول علماء الأصول ؛ فلا ، ثم ما مقدار جدوى

---

[1] رواه الترمذي في الفتن ، باب : ما جاء أنه تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، رقم (2195) وأبو داود في الفتن ، باب : النهي عن السعي في الفتنة ، رقم (4259) وهو حديث صحيح .

[2] رواه أبو داود في الفتن ، باب في النهي عن السعي في الفتنة ، رقم (4259) وإسناده صحيح .

قواعد علم أصول الفقه ، وما جدوى قواعد علم مصطلح الحديث التي تثبت أن حديثاً ما قد قاله الرسول r ؟ وما هي القواعد والأصول والأعمال والممارسات التي تُمكّننا من رفض ما قاله الله ورسوله ، وتجاهل ما قالاه وأكّداه ؟ وما جدوى أن يكون القول موجوداً في القرآن أو في كتب الحديث ؟

متى يفقد الكتاب معناه وجدواه ؟

ليس إثبات أن هذا الكلام موجوداً في القرآن أو كتب الصحاح هو الجهد الذي ينبغي أن يبذل الآن ، بل ما ينبغي أن تبذل الجهود فيه هو اكتشاف (علم جديد) يبين كيف يفقد الكتاب والكلام قيمتهما ، بل تفقد الفكرة معناها وجدواها ، وكيف يضل سعي الناس في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً .

هذا علم جديد ، لا ليس جديداً ! إنه شيء قديم جداً ، ولكن كيف نستطيع أن نحول هذا القديم إلى علم واضح . كيف يمكن أن تذهب أدراج الرياح جهودُ كل الذين يسعون بك إمكاناتهم ، ويستحضرون كل أسلحتهم ؛ ليثبتوا صحة حديث أو فكرة أو مفهوم معين ؟

إن هناك تغيراتٍ تحدث في النفوس ، وعملياتٍ تحدث للأفكار ، لا يبقى معها أي قيمة للكتاب والحديث . وتجارب الأقدمين والخسائر الحديثة ، كل هذه الأمور تفقد قيمتها إزاء أوضاع معينة ، في بيئة أو مناخ معين .

وبعبارة أخرى أقول : متى يفقد الكتاب ؛ القرآن بالذات ، الانتفاع به ومنه ؟! ما هو التغير الذي يجرف كلام الله ، وكلام الرسول ، وحكمة الحكماء ، ويأتي كقوة ضاغطة متحكمة بكل المقدسات ؟ .. كيف يتسلل هذا الوباء دون أن يُرى ، ودون أن يُحسَّ به ؟ ليلوي الأعناق ، وليغلق القلوب والأفئدة ، وليضع الغشاوات على الأعين والأوقار في الآذان ، وليسد جميع المنافذ .

كنت قد ذكرت قصة تدل على شيء من هذه المعاني في مقدمة كتاب (أيها المحلفون ! الله لا الملك) ، وتمنيت أن يتوافر الدارسون للانتباه إلى هذا الجانب من المشكلة في مستواه الأبعد ، وفي المحيط الذي يُلغي فيه الله الرسول والفكر والفهم والإدراك : (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً) [الكهف : 57/18] .

كثيراً ما أذكر قول الرسول في الكيفية التي يَفقد الناس فيها الانتفاع بالكتاب ، واستشهاده r بالتاريخ دليلاً على ذلك ، ولكن كيف يصل الإنسان إلى درجة لا يجد فيها سبيلاً إلاّ أن يقذف بنفسه إلى العذاب ، وحقاً ليس غير العذاب موقظاً لأمثال هؤلاء ؛ عذاب الله ، وعذاب البأس الذي يذيقه بعضهم لبعض .

عن زياد بن لبيد أنه قال : ذكر النبي r شيئاً فقال : « وذلك عند ذهاب العلم » ، قلت : يا رسول الله ! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا زياد / إنْ كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أوليست هذه اليهود والنصارى بأيدهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء »[1] .

لو اطّلعتُ على كتاب صيني مكتوب بالأحرف الصينية ؛ لم أكن لأفهم حرفاً واحداً مما فيه ، وإلى الآن لم أعلاف ، و لم أستوضح كيف أن اللغة الصينية أو حروفها يمكن للذين لا يعرفون لغة بعضهم أن يقرؤوها ، وكيف أن الحروف واحدة ، والمعنى الذي يفهمونه واحد ، ولكنهم لا يتكلمون لغة واحدة !

لعل ما يقرب هذا الأمر وحدة الحروف العربية والفارسية ، وكيف أنه رغم وحدة الحروف لا يمكن فهم المعنى ، وقريب من هذا ما يقال لنا من أن اثنين من الصينيين ، رغم أنهما لا يعرفان لغة بعضهما ويقرآن الرموز بلغتين مختلفتين ، ولكنهما يفهمان من الكلمة أو الحرف معنىً واحداً ، فمثلاً صورة السرير تدل على مكان النوم ، وإن كان اسم السرير مختلفاً لدى كل واحد منهم ، ولكن هذا الرمز يدل على السرير بجميع اللغات .

هذا نموذج سبق لتقريب المعنى ، فماذا أريد أن أقول ؟ !!

---

[1] رواه الترمذي في العلم ، باب : ما جاء في ذهاب العلم ، رقم (2655) وابن ماجة في الفتن ، باب : ذهاب القرآن والعلم ، رقم (4048) واسناده حسن .

لغة الحروف ولغة المعاني :

هل أستطيع أن أقول : إن هناك لغة معانٍ لا تتصل بالحروف والرموز ، لغة مفاهيم خارجة عن الكلمات ؟ أي أن المفاهيم والمعلومات والعلاقات تغدو غير مفهومة وغير مقبولة وغير معلومة من خلال الكلمات التي سيقت للتعبير عنها ، ومثال ذلك أن موقف ابن آدم وعلاقته مع أخيه هي من نوع العلاقات المفاهيمية المرفوضة .

إذن ، هذه العلاقة المرفوضة بهذا المستوى غير قابلة للدخول إلى مفاهيمنا ، والرسول r حين جاء إلى قريش لم تكن المشكلة بينه وبينهم مشكلة لغة عربية أو فارسية أو رومانيو ، بل كان النزاع نزاعَ مفاهيم علائقية تصورية للوجود ، ما لا يدخل إلى هذه اللغة المفاهيمية لا يمكن القبول به ، هنا توجد مرجعية أخرى ، مرجعية تتمثل في منظومة من العلائق والمفاهيم تؤدي دوراً معيناً ، وخدمة خاصة للمجتمع ، أياً كانت هذه الخدمة .

إن بحث المشكلة بهذا المستوى قد بدأ يدخل إلى الوعي الإنساني ، فهذه المشكلة قديمة قدم الإنسان ، ولكن الوعي بها درجات ، وإنَّ أدنى درجات هذا الوعي هو الإحساس بهذه الظاهرة ، الذي يتمثل في قول الإنسان العادي : لو ولدت في بلد كذا ؛ لكنت على دين أهله ، أي على منظومتهم المفاهيمية في تفسير مبدأ الكون ومصيره ، وطرق النجاة ، والمقدسات النصّيّة ، والشخصيات المرجعية المتوارثة . هذه سنة حياة الأمم ، فحين يقول : لكنت على دينهم ، نفهم منه أن من الممكن له أن يفهم الوجود بأُسلوب فهمهم ، وأن يرى العالم والقيم والخطأ والصواب بطريقتهم .

هذا الوعي يتمتع به كل فرد ، إلاّ ذلك الذي يكون على درجة معينة من الفلسفة تجعله يلغي هذا المنطلق الذي يدركه كل الناس .

إن الانطلاق من مبدأ مفهومٍ وواقع تحت الوعي والملاحظة مساعدٌ جداً على بناء قاعدة للانطلاق الصحيح ، ولكن المتابعة بعد الانطلاق قد لا تتيسر ، والتاريخ هو الذي يعلمنا كيف يكون الانطلاق صعباً والمتابعة أصعب .

أليس علماً جديداً أن نكتشف كيف أن الكتاب يفقد أن يكون نافعاً ، وأن يكون وسيلة للمعرفة ، وكيف انه يتحول بدلاً عن ذلك إلى أداة لمنع المعرفة ؟!!

هذا العلم هو أحوج ما نحتاج إليه لنستيقظ من سباتنا ، بل من نومنا العميق الذي لم تساعدنا القرون على التخلص منه .

إن العلوم كلها تتكون خلال التاريخ ، والعلومُ الإنسانية لازالت حديثة العهد ، والمسلمون إلى الآن يشكون فيها ، وكل علم حين يبدأ ، يبدأ منكراً ، حتى علم الفلك بدأ منكراً . والمسلمون ، وإن كانوا أرحب صدراً في تفهم العلوم المادية ، إلا انهم يخافون خوفاً شديداً وحساساً ودقيقاً من العلوم الإنسانية ، خشية أن يظهر أن تصوراتنا عن الإنسان التي أعطيناها القداسة الإلهية ليست صحيحة ، فيظهر لنا أن تصوراتنا عن الإنسان التي أعطيناها القداسة الإلهية ليست صحيحة ، فيظهر لنا أن هذه التصورات التي بنيناها وجعلنا لها صفة القداسة الإلهية خاطئة ، لأننا نظن انه إذا ظهر خطأ فإن الذي ظهر خطؤه هو المقدس ، هو الله ، لا أن أهواءنا المدنسة هي التي ظهر خطؤها !

لهذا لابد من إقامة العلم المتصل بالإنسان ، ومعرفة الكيفية التي يصنع بها الإنسان والمجتمع شرنقة يحبس نفسه فيها ، وينسب لهذه الشرنقة كل الحماية والقداسة ، إلى درجة انه يدافع عن شرنقته حتى الموت .

من هنا نستطيع أن نفهم كيف أن المنظومة التي لملمها المسلمون بعد أن فقدوا الرشد ليس فيها « كن كابن آدم » وليس فيها حديث ذهاب العلم ، بحيث جهلنا إمكان ذهاب العلم ؛ بدليل اعتراض المعترض ، وقوله : كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ، ونحفظ كلماته ، ونميز محكمة ومتشابهة ، وعندنا مفسرون كبارٌ ، ولا يمكن أن نكون مثل اليهود والنصارى فغي إمكانية الضلال .

لقد وصل بنا الأمر إلى أننا أخرجنا التوراة والإنجيل ، من أن يكون فيهما شيء ينتفع به ، وإلى الآن كل الذين يبحثون فيهما ، يبحثون عما يمكن أن يكون فيهما من التحريف والتبديل والتغيير والخطاء ، و لم نتوجه بعد لنرى ماذا فيهما من النور والهدى والأمور

التي يمكن أن تكون نافعة . فهل يمكن أو لا يمكن أن نرى في التوراة والإنجيل ما قاله الله عنهما : (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ) [المائدة : 44/5] ، (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) [المائدة : 46/5] ؟ ولكن في منظومتنا التي صنعناها نبذنا كل ذلك وراءنا بسهولة مدهشة ، وقلنا : أولئك ضلوا لأنهم غيروا كتبهم ، و لم يعد فيها هدى ونور ، أما نحن فعلى المحجة البيضاء التي حفظها الله تعالى !!! ..

إن محاولة الإصلاح انطلاقاً من النصوص فليلة الجدوى ، ولابد من صناعة منظومة مفاهيمية جديدة تمكننا من الانتفاع بالكتاب ، وتبصرنا بالشيء الذي حدث حتى فُقد الانتفاع من التوراة والإنجيل ، والشيء الذي خاف منه الرسول r ، وانذر بأن حدوثه للمسلمين سيجعلهم لا ينتفعون بالكتاب الذي بين أيديهم .

هل يمكن عند هذه النقطة أن ننتبه إلى وجود حالة يفقد الناس فيها الاستفادة من الكتاب ، لنبحث بعد ذلك عن الكيفية التي تمكننا من حصر هذه الحالة وعزلها وتحديدها ، ومعرفة العوامل التي تؤدي إلى تكوينها وترسيخها ، والظروف التي تضطر أهلها للمراجعة والتصحيح ، وكم من الزمن يحتاج هذا ، لا بل كم من العذابات المؤلمة التي يبذلها أهل هذه الحالة لنفسهم فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم ، حتى يضطروا للوصول إلى المراجعة التصحيح .

ابن آدم والفرق المتصارعة :

علينا أن نعرف كيف يذيق أهل المذاهب بعضهم لبعض العذاب ، وكيف يتداولون التعذيب والقتل فيما بينهم ، وكيف يذيق أهل الأديان بعضهم لبعض العذاب والقتل والتشريد من الديار ومطاردة الأفكار ، وكيف أن البشر يعيشون في الحروب الساخنة ، وإذا أوقفوا الحروب الساخنة استبدلوا بها بحروب أخرى مع أطراف أخرى ، وخلقوها عن لم تكن موجودة ، لن حياتهم ليس فيها تحدٍّ إلا للموت الساخن أو البارد .

إن ابن آدم الممتنع عن الدخول في حلبة القتل ليس طرفاً في أي من هذه العلاقات المعيبة ، ولكن أليس بعد ابن آدم رجل رشيد ؟ أليس فيكم رجل رشيد ؟

لا قدرة لنا على تصور حالة غير حالة التنافس في فعل الشر ، وليس فينا من يتحدى بفعل الخير ويخرج من التحدي بفعل الشر .

هل يمكن أن اطمح إلى الحصول على المحال ، هل يمكن أن نبشر بمجتمع فيه من هو على مذهب ابن آدم ، ومن يخرج من تلك الفرق المتصارعة على الإيذاء ؟

هل لي الحق في أن أنتشل من بطون الكتب ، ومن مخالفات التاريخ ، ومن بقايا الحروب والصراعات : « كن كابن آدم » ؟!!

هل كان رسول الله r خيالياً أو حالماً أو مهووساً ، حين قال لصاحبه سعد بن أبي وقاص ، ولصاحبه أبي ر الغفاري أن يكونا كابن آدم حين تحدث الفتن ؟

هل كان مضاداً لفطرة الناس ، كما يحلو للكثيرين أن يظنوا ؟ وذلك حين يقولون لي : إن موقف ابن آدم مضاد للفطرة البشرية ، وكأن الفطرة البشرية من صنعهم هم ، أو من خلقهم هم !!

نعم إن مذهب ابن آدم لا يدخل إلى منظومتنا الفكرية التي نظنها ديناً ، مذهب ابن آدم ليس من هذا الدين ، وليس من أحكامه ، وأنا لن أجادل كثيراً في هذا الموضوع ، لأن النصوص ليست كافية وحدها ، والنبي أيضاً ليس كافياً ، ولعل في قوله تعالى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) [الأنعام : 124/6] ، إضاءةً لهذا المعنى ، لا لأن قريشاً أو العرب كانوا خارجين عن الطبائع البشرية ؛ بل لأنهم كانوا في مرحلة يمكنهم معها التفاعل مع النص مهما كان هذا النص صعباً ، لأن أرضيتهم أو مفهوميتهم لم تكن مغلقة .

إن الإغلاق لا يزال مستمراً ، ولكن هذه الحالة صارت قابلة للدراسة والكشف ، وهي الآن في حالة تمهيدية للانتقال بها لتكون علماً مرئياً ، وذلك بتعلم التاريخ ورؤية النماذج العديدة .

القرآن والتاريخ :

أريد أن أحيي نموذجاً من النماذج التي مرّت على البشرية خلال التاريخ ، لأنني أرى فيه تجسيداً لمنهج القرآن ، ولابد من وضعه تحت الضوء .

إن القرآن ، ورغم سعته ، لم يذكر الوضوء والميراث إلاّ مرتين ، ولكن كم مرّة ذكر قصص التاريخ ، ووقائع القرون الماضية ، وسنن الهلاك ، وعاقبة الذين لا يعتبرون بالتاريخ ، ولا يصدقون أن في التاريخ وأحداث القرون عبرةً وعظة ، ولا يتمكنون من فهم أو تصديق أن أحداث التاريخ هي مرجع القرآن ، ومرجعنا لنفهم أن أحكام القرآن صادقة ؟

كيف نرجع للتاريخ قيمته المرجعية ؟ كيف ألغينا التاريخ ؟ وكيف رفعنا أنفسنا فوق التاريخ وفوق قوانينه وفوق البشر ؟

الإنسان والكبر :

إن السكر الكبر والإدمان المستعصي ، الذي يمسك بخناق الناس ، ويسد عليهم منافذ الفهم ؛ هو رفعهم لأنفسهم فوق مستواهم البشري ، مما يجعلهم يعتقدون انهم ليسوا مثل الناس ، وانهم مخلوقات لأخرى ، وهذا هو مذهب إبليس ، ومن اتخذ سبيل إبليس ، أو ابتلي به ؛ حرم من الهداية والتوبة والتراجع ، وصار يتحدى الله والأنبياء والبشر ، يقول : (لأُضِلَّنَّهُمْ) [النساء : 119/4] و (لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [الحجر : 39/15] و (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) [الأعراف : 16/7] و (لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً) [الإسراء : 62/17] . الاستكبار هو بضاعة إبليس ، وهو أن ترى نفسك وعشيرتك وقومك ومذهبك ودينك فوق الناس ، وإنكم أحباء الله وأبناؤه الوحيدون وعياله المفضلون ، سواء عملتم الصالحات أم لم تعلموها ، وإنكم لقرابتكم لستم بحاجة إلى صالح الأعمال ، فأنتم المفضلون عند الله بالانتساب فقط ولو من دون أعمال ، وانه لن يدخل الجنة إلاّ من كان منكم ، وان الآخرين ليسوا على شيء . والكبر هو الذي يجعلك تحتقر الآخرين وتحتفظ لنفسك بالامتيازات ، وترفض أن يطبق عليك القانون الذي يطبّق على البشر ، هذا الموقف الإبليسي لا يجعلك قريباً من الله ، بل مطروداً من رحمته وقريباً من عذابه .

ما هذا الكبر الخبيث الملوث ، الذي مثقالُ ذرة منه تمنع الإنسان من الدخول إلى الجنة : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر »[1] ، ياله من جرثوم خبيث يحوّل الإنسان المكرم إلى محروم ومطرود من رحمة الله ، وفي جملة الصّاغرين : (فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) [الحجر : 34/15-35] .

تأمل إلى مرض الكبر وجرثوم الكبر الذي لا يجوز لأحد من الخلق أن يدعيه : إن الكبرياء رداء ذي الجلال ، من حاول أن يتقمصه أُخرج من رحمة الله مدحوراً .

إن ابن آدم لم يكن متكبراً ، لكنه كان كبيراً جداً ، لنه رفض الكبر والكبرياء ، ولا يمكن أن يخطر في بال من كان على مذهبه وعلى موقفه وعلى الخلفية التي كان ينطلق منها أن يتكبر ، ولا أن ينزل إلى ساحته مثقال ذرة من الكبر ، إنه بموقفه هذا حصن نفسه من الكبر ، ومن بلغ هذا المبلغ لن يجد الكبر إلى نفسه سبيلاً .

عن الذي ل يتطهر إلى هذه الدرجة لا يمكن أن يكون جندياً لله ، ولا عبداً له ، ومن كان يطيع هواه أو احداً من العباد في قتل النفس التي حرّمها الله لا يمكن أن يدخل في جنود الله الذين يكونون موضع أمانة ، بحيث يكون أهلاً لأن توضع في عنقه أرواح الناس وحمايتها .

الفصل الأول

السلطة والمعرفة

---

[1] رواه مسلم في الايمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه ، رقم (91) .

الاختصاص والمؤسسة :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) [آل عمران : 104/3] ، (فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) [التوبة : 122/9] ، (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) [النحل : 43/16] .

الأمة والفرقة والطائفة وأهل الذكر ، كلها ألفاظ تدل على المختصين ، ولعل مصطلح أهل الذكر هو الأكثر دلالة على موضوع الاختصاص أو التخصص في المعارف والمهن النظرية والعلمية .

إن وجود التخصصات المعرفية والعملية أمر جوهري في الحياة الاجتماعية ، ومن ذلك تقسيم العمل في الحياة الإنسانية ، وتمايز أعضاء الجسم ، وانصراف كل منها إلى وظيفته ، وكل هذا يعد تخّصاً . وللمختصين وجودهم الخاص حيث يكوّنون المؤسسة ، مؤسسة أهل الذكر ، وسؤال أهل الذكر هو استشارتهم .

المجتمع كالبنيان وكالجسد له أعضاء ، وكلا عضو في الجسد ذو اختصاص يقوم به في حالة الانفصال والاتصال ، انفصال الاختصاصات واتصال بعضها ببعض ، والخلل في هذا يؤدي إلى سرطان ، وذلك حين لا يعود العضو يعمل ضمن الوصل ، بل خارجه .

كيف يمكن فهم الاختصاصات ؟ وأن كل اختصاص يكون مجموعته أو أهل ذكره ، وكيف تكون صلة أهل الذكر هؤلاء بالمجتمع ؛ ببقية الأعضاء ؟

ما هي العلاقة بين المعرفة والسُّلطة ؟ وكيف تنفصل وتتصل بالسلطة ؟ السلطة الواعية والسلطة اللاشعورية ؛ المعرفة الواعية والمعرفة اللاشعورية .

حين نقول : ما هي العلاقة بين المعرفة والسلطة ؟ فكأننا نقول : ما هي العلاقة بين أصحاب العلم وأصحاب العمل ؟ بين الفكر والسلوك ، بين العلم والعمل ، بين أهل التفكير وأهل التنفيذ . في الحياة العملية أهل الفكر أعلى درجة ، وأهل التنفيذ هم المهندسون والعمال المنفذون .

العلم والعمل :

لابد من العلاقة السوية بين الفكر والعمل ، لأن العمل إذا انفصل عن الفكر كان الفساد ، والعكس صحيح أيضاً ، ولكن ما هي العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح ، لا مجرد العمل ؟

كأن المشكلة ترجع إلى العلم والعمل ، كيف يمكن أن تكون العلاقة سوية بين العلم والعمل ، بين سلطة المعرفة وسلطة العمل ؟ لأيهما السلطة ؟

في البداية العمل هو الذي ينتج المعرفة ، وكثيراً ما يكون ذلك بالمصادفة ، فترتبط الأسباب بالنتائج فيخلق العمل الصالح النافع ، ويربط الإنسان العمل النافع بأسبابه فيحدث العلم وتحدث المعرفة .

هكذا يكون بدء المعرفة ، حيث العمل قبل العلم ، والعلم نتيجة العمل ، ولكن حين يتراكم العلم ، ويعاد إنتاجه يصبح العلم أولاً ، لأن الذي لا يعلم الأحداث والأعمال السابقة ونتائجها ؛ يتراجع علمه ويتراجع عمله .

إذن ، إذا كان العمل هو الأول في البدء ، لكن الاستمرار والتطور يكون بتبادل المواقع ، حيث تتراكم الأعمال ، ونحتاج إلى العلم كي لا ننساها فتضيع التجارب .

إن المعرفة الأولوية للعمل في بدء الخلق ، ولكن الأولوية للعلم في إنتاج العمل الصالح ، ويمكن إظهار هذا التبادل بين الأولويات من خلال العلاقة بين الاسم والمسمى ، فالمسمى هو الأول . في بدء الخلق وفي ولادة أشياء والأفكار ، ثم تأتى الأسماء والألفاظ ، ولكن عند الاستمرار في الحياة العملية تأتى الأسماء أولاً ، والطفل يتعلم الأسماء والحروف أولاً ثم الكلمات ثم معاني الكلمات .

لا انفصال ولا استقلال للعلم عن العمل ، فالعلم عو عمل متراكم ، ولكنه يقدّم كعلم يضم التجارب العملية كي لا تنسى ، وكي لا تعاد التجارب غير النافعة .

اللغة وحفظ التجارب :

لقد ضاعت التجارب حين لم يكن هناك وسائل لحفظها ، و لم يكن الناس يستخدمون الضوء والصوت لحفظ هذه التجارب ، و لم يكونوا يستخدمون أي وسيلة لذلك سوى دماغ الإنسان ، والإنسان ينسى ويخطئ ويموت ، ولذلك كانت التجارب تُنسى وتموت ، ولكن حين استخدم الإنسان الكلام ، ووضع الأسماء اللفظية ثم الكتابية صنع ذاكرة غير قابلة للموت ، وإن كانت الوسيلتان (الصوت السمعي ، والصورة البصرية) قابلتين للخطأ ، ولكنهما في الوقت ذاته قابلتان للتصحيح وإكمال النقص ، ومن هنا صار الكلام والكتابة وكل وسائل حفظ الصور الذهنية داخلة في مشكاة المعرفة ، وكل أنواع الخطاب أصبحت محل دراسة في علم اللسانيات وعلم الدلالة والرمز .

كل هذه الأمور متصلة بعالم الأسماء وتطورها ، إلى أن صار العلم منقولاً بالصوت والصورة ، أي تمكن الناس من الاتصال مباشرة بدون واسطة عبر الصوت والصورة ن والصوت والصورة وإن كانا غير حقيقيين إلاّ أنهما قابلان للتصحيح بالنظر إلى العواقب النافعة .

نعود إلى العلاقة بين السلطة والمعرفة ، بين العلم والعمل ، وأيهما كان أولاً ؟

في البدء كان العمل أولاً ، ومنه نتج العلم وتراكمت المعرفة ، ولأنه لابد من التعرف على العلوم والمعارف المتراكمة صار العلم أولاً ، ولكن لازالت الأولوية للأعمال حين نريد أن نكسب علماً جديداً ، لأن العمل هو مصدر زيادة العلم ، ومن هنا كان قوله تعالى : (انظُرُوا) [الأنعام : 11/6] إلى الماضي ، و (انتَظِرُوا) [هود 122/11 المستقبل ، لأن علوم المستقبل إنما تثبت وتقبل بعد تطبيقها في الواقع والنظر إلى عواقب هذا التطبيق ، وظهور العواقب قد يحتاج إلى زمن طويل .

أشعر أننا قد حددنا جدل وزوجية العلاقة بين العلم والعمل ، وعرفنا سلطة العلم وسلطة العمل : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) [الذاريات : 49/51] ، ولكن الزوجين خلقا من نفس واحدة ، من العمل خلق العلم ، والعلم بتراكمه حاز المرتبة الأولى ، لأن معرفة الأعمال السابقة هي التي سميت علماً ، أما معرفة المستقبل الذي لم يتحقق بعد و لم تر عواقبه فتسمى توقعاً أو فرضية أو خيالاً علمياً ، ولا تسمى علماً .

ولتحديد العلاقة بين العلم والعمل يمكننا أن نستشهد بكلمة الرسول r : « المؤمن لا يلدغ من حجر واحد مرتين »[1] . هذه الجملة أو العبارة أو الخطاب أو الحديث ، تقرر أسبقية التجربة على المعرفة ، لأن الخطأ الذي يقع في تجربة لم تحدث من قبل لا ينفي الإيمان ، ولا ينفي العلم ، ولكن تكرار الخطأ الذي حدث سابقاً في عمل لاحق هو الذي ينفي العلم ، وينفي الاستفادة من التجربة السابقة ، أي أن هذه التجربة لم تصر علماً أو ذكراً ، وقد حدثت في حين غفلة أو نسيان ، ولكن ينبغي ألاّ يدفع ثمن التجربة مرتين ، وهذا هو العلم والإيمان .

العلم أولاً في التجارب التي تحققت سابقاً ، والعمل أولاً في التجارب التي لم تتحقق بعد ، ومن هنا يمكننا أن نقول : العلم له أولوية باعتبار ، والعمل له أولوية باعتبار آخر ، والبحث في العلم ، وإن كان متأخراً في الولادة ، إلا أن له الأولوية للاستفادة من التجارب ، وهكذا فالعلم له السلطان في الاستفادة من التجارب السابقة ، والعمل له الأولوية والسلطان والحجة والبرهان في ولادة العلوم والمعارف الجديدة .

---

[1] رواه البخاري في الأدب ، باب : لا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين ، رقم (5782) ومسلم في الزهد والرقائق ، باب : لا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين ، رقم (2998) .

ومن هنا فإن الإنسان حين لا ينتبه إلى بدء الخلق ؛ يعطي الأولوية للعلم على العمل ، لأن العلم بما سبق صار ضرورياً ، ومن هنا جاء الحث على العلم ، وأخذ المرتبة الأولى ، وقد صار له تاريخ ينبغي أن يحفظ ولا ينسى ، ولذلك نجد أن البخاري مثلاً ، عقد باباً في صحيحه فال : بابٌ : العلم قبل العمل .

ولكننا نجد أيضاً حثاً كبراً على العمل ، فالعلم والإيمان في القرآن مقرونان دائماً بالعمل الصالح : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) [مريم : 96/19] .

حين يستقر العمل ، وتستقر عواقبه يصير علماً ، ويصير العمل تابعاً للعلم ، وحين نفقد العلم نضطر إلى القيام بعمل يحتمل الخطأ والصواب ، فإذا شهدت له الأحداث على المدة الطويلة فأعطى نتيجة (خير وأبقى) تحوّل إلى علم أيضاً .

العمل أولاً في بدء الخلق ، والعلم أولاً في نقل نتيجة العمل ، فهما زوجان ، إلا أن العلم يخلق من العمل : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) [الأعراف : 189/7] ، خلق العلم من العمل ، فصارا زوجين ينتجان العمل الصالح .

هل السلطة هي المعرفة ؟

هل يمكن لنا الآن أن نحدد العلاقة بين السلطة والمعرفة ؟ وإذا قلت : إن السلطة هي المعرفة ، فهل أكون قد حددت العلاقة بين السلطة والمعرفة ، وقررت أن المعرفة هي السلطة ، وأن كلاهما منتوجان للعمل الذي يلد المعرفة والسلطة ؟

إنك بعد ذلك ، وفي ظاهر الحياة تستطيع أن تقول : عن السلطة منفصلة عن المعرفة ، خاصة حين تنظر إلى الواقع فترى العلماء غير الأمراء ، والعلماء والسلاطين ليسوا شيئاً واحداً ، فمن أين حدث هذا الفصل ؟ وهل لي الحق في أن أقول : المعرفة هي السلطة ؟ وهل أنا مخطئ بهذا القول ومتجاهل للواقع الذي يفقأ العين ؟

لا تعجل علي أيها الأخ القارئ ، لعلي أتمكن من شرح هذه العلاقة أيضاً ، فإذا تقبلت ما قمت به من شرح للعلاقة بين العلم والعمل ، وللكيفية التي يتبادلان المواقع فيها ، ويكون هذا أولاً من جانب ، وذاك أولاً من جانب آخر ، إذا فهمت ذلك واطمأننت إليه ؛ فستتمكن ،إن شاء الله ، من فهم الإشكالية الثانية في العلاقة بين المعرفة والسلطة ، ولكن أريد أن أطمئن إلى انك فهمت كيف يلد العملُ العلمَ ، وكيف يرشِّد العلم بعد ذلك العمل ، فالزراعة كانت تحدث تلقائياً في البداية ، ولكن الإنسان راقب ما يحدث فكشف قانون الزراعة ، وبعد أن علم كيفية الزراعة من الواقع ؛ تدخل وقام بالزراعة وإنتاج الغذاء ، وهكذا فإن الزراعة المجتمعية تحدث أمامنا ، والأحداث الاجتماعية تنتج السلطة ، وعلينا أن نراقب ما يحدث ، ونستخرج قوانينه وسننه ، وحين نستخرج قوانينه وسننه من الواقع نصير علماء ، ونتمكن من إعادة الإنتاج ، ونسيطر على الموضوع ونوجهه ونسخره ، وعلى هذا الأساس سأتحدث عن المعرفة والسلطة .

السلطة والمعرفة في ضوء الشعور واللاشعور

ما هو تأويل قولنا السلطة والمعرفة شيء واحد ؟ وما هو تفسير الانفصال الذي نراه بينهما ؟

هل أستطيع أن أقول لك : إن السلطة ثمرة المعرفة ، ثمرة نوع خاص من المعرفة ؟ ، ولكن هل المعرفة أنواع ؟

نعم يا أخي ! المعرفة أنواع ، هناك علم راسخ ،وهناك علم غير راسخ ، هناك علم شعور ، وهناك علم لاشعور .

أظن أن هذه النقطة بحاجة إلى مزيد من التأمل والشرح والتحليل والتفكيك ، دعني أشرح لك الشعور واللاشعور قليلاً .

إن اللاشعور هو شعور سابق ، وقد تحول إلى لاشعور ، وأحاول أن أبين ذلك فيما أسوقه لك :

إذا حاولنا أن نفهم قوله تعالى : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) [الذاريات : 23/51] ، فإننا نسأل : ما هذا الـ (مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) ؟ ماذا يحدث حين ننطق ؟ وكيف صرنا ننطق ؟

أظن أن فهم هذا الموضوع يحتاج إلى تأمل وعودة إلى الوراء لمعرفة الكيفية التي صرنا بها ننطق بيسر وسهولة .

إن وراء هذا النطق السهل الميسور لاشعور يسير سلوكنا اللفظي ، الذي كان في السابق شعوراً ، وقد تحول برسوخه إلى لاشعور ، ولذلك صرنا نتحدث دون أن نفكر ، وبإمكاننا أن نستوضح السلوك الشعوري واللاشعوري ، بمقارنة حالة الإنسان الذي يتحدث لغته الأصلية ، والإنسان الذي يتعلم لغة جديدة ، بأفعالها وأسماءها وقواعدها النحوية وقواعد تركيب الاسم والفعل والإخبار والاستفهام والنفي والإثبات ...

هذه الأشياء تحدث أمامنا ، ونمارسها عملياً ، أحياناً نتعلم النطق السليم بدون دراسة القواعد ، وأحياناً ندرس القواعد ، حتى إنه في كثير من الأحيان يصعب علينا تطبيق القواعد التي نعرفها ، وأنا بالذات على الرغم من أنني تخصصت في قواعد اللغة العربية ؛ أشعر أنني لم استطع أن أحول هذه القواعد إلى اللاشعور ، ولهذا أَلْحن في الأعراب ، ومن هنا قال لنا أساتذتنا : « النحو صنعتنا ، واللحن عادتنا » ، والذين يبحثون موضوع اللغة العربية يقولون عنها : إنها لغة الأم ، لأن لغة الأم تؤخذ سليقة بدون دراسة قواعد .

إن تشبيه الله سبحانه وتعالى للإيمان والكفر ، ومظاهر الكون والطبيعة ، وآيات الأرض والسماء ، بقوله : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) [الذاريات : 23/51] ، هذا التشبيه فيه دلالة كبيرة ينبغي أن نعيها .

إذا عرفنا ماذا حدث وماذا يحدث حين ننطق ، وكيف يحدث النطق بسهولة ويسر ، وكيف نستخدم الألفاظ في النطق ، وما العلاقة التي تربط الألفاظ بالمعاني ، وكيف تترسخ المعاني لدى الإنسان ، وكيف ينفصل السلوك عن الإيمان ، وكيف يصير الإنسان يقول مالا يفعل : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ) [الصف : 2/61] ، وما علاقة هذا العلم الراسخ والعلم السطحي ، إذا عرفنا هذه الأمور فإننا نستطيع أن نصل إلى الحق : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) .

إن الإنسان الذي يحاول تعلم ركوب الدراجة الهوائية يعاني كثيراً في بداية تعلمه ، والمشكلة التي يعاني منها هي الكيفية التي تحفظ له توازنه ، ولكنه بعد أن تترسخ لديه هذه المهارة يستطيع أن يثق بلا شعوره ، ويمكنه أن يتحدث دون أن يكون قلقاً من مشكلة توازنه .

هذا الذي يحدث عند تعلم ركوب الدراجة الهوائية ؛ هو الذي يحدث عند تعلم قيادة السيارة ، أو الكتابة على الآلة الكاتبة ، وهو الذي يحدث معنا في موضوع اللغة ، ففي كل هذه الأحوال يتحول الأمر من الشعور إلى آليةٍ فوق الشعور ، أي إلى اللاشعور ، وبهذه الطريقة تعمل أعضاء كثيرة من جسم الإنسان آلياً وبدون تدخل واعٍ منا : (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) [الذاريات : 21/51] .

أنا لست ماهراً في سوْق الأمثلة ، وإلا فهناك أمثلة أسهل وأقرب منالاً وتأويلاً ، وهذا هو الفرق بين العلم الناجح والمعلم الذي يتعب ويُتعب التلميذ دون طائل ، والمتمكن من شعوره ولا شعوره ، والذي يتمتع بانسجام بينهما هو الذي يعمل عملاً سوياً : (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِياً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟) [الملك : 22/67] .

إن الشعور واللاشعور حين يتناقضان يحدث المرض النفسي ، وحين ينفصل الشعور عن اللاشعور يحدث النفاق والكذب ، ولكن في صورة الحق ، لأن شعور الإنسان عندها لا قدرة له على فهم الواقع الماثل أمامه ، ولعل هذا يتوضح بقول الشاعر :

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ

كيف نحل هذه الإشكالية ؟ كيف نخرج الإنسان من حالة (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) [البقرة : 2/11-12] ؟ كيف نرده إلى الحالة السوية ؟ وكيف نخلصه من (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً [فاطر : 8/35] ؟ كيف نخرجه من (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) [الكهف : 104/18] .

إن السعي لإيجاد حلٍّ لهذه الإشكالية هو الذي يدفعني لأن أكتب هذا الكتاب ، وهو الذي دفعني قبل ثلاثين سنة إلى كتابة كتاب : (مذهب ابن آدم الأول) ، ولكن ما صلة هذه الإشكالية بالعلاقة بين السلطة والمعرفة ، بين العلماء والأمراء ؟ أين الخطأ ؟ أين الخلل ؟ هل الخلل في الحدث الواقع أمامنا ، أم في الصورة اللاشعورية القديمة الخاطئة التي تتحكم بنا ؟

إننا لم نكشف القانون والآلية التي تجعل من الإنسان منسجماً في شعوره ولا شعوره ، ومتجهاً في سعيه نحو الأنفع والأدوم .

إن السياسة مرتبطة بالقوة ، وإن العلم مرتبط بالفهم ، والعلم هو الذي ينبغي أن يكشف قانون السلطة بمراقبتها وتحديد آلياتها ، وإذا فهمنا الآليات ، فإن العلم ينبغي له أن يسخر القوة ، فالكهرباء مثلاً ، كانت تصعقنا ، ولكن حين كشفنا قوتها ، وآليات تحكمنا فيها ، سخرناها لصالحنا بعد أن كانت تتحكم بنا ، فالكهرباء ليس من طبيعتها أن تخدم الإنسان ؛ بل نحن الذين نستطيع أن نستخدمها .

في الواقع ؛ إن التفكير في شيء لم يفكر فيه من قبل أمر صعب جداً ، ومن عادة الناس عوام وعلماءً أن يظنوا أمن كل المشكلات قد حلت ، وأنه لا توجد مشكلة قابلة للحل ، إلا أناساً نادرين من أصحاب الفضول الذين لديهم هوس في التفكير في اللامفكر فيه ، أو في التفكير فيما لا لم يسمع الناس به من قبل .

إن عدم السماع يحمي المسموع ، عدم السماع بالصواب يحمي الخطأ المسموع به والمعاش ، ويجعل التفكير الجديد صعباً جداً ، إلى درجة أن توماس كون قال : « إن الفكرة الجديدة لا يمكن أن تنتشر في جيلها ، بل في الجيل الذي بعده » ، ولعل بعض سلفنا قد تنبهوا إلى هذا الشيء حين قرّروا أن العادة المعاصرة حرمان ، فنحن مثلاً قد نتبنى فكرةً عُذب صاحبها من اجلها في زمانه ، ومات في السجن لأنه أعلنها ، بينما نأخذها نحن بسهولة ويسر ، وهذا يشعرنا أحياناً بمأساة طول الزمن الذي تستغرقه الأفكار الجديدة بين نشأتها وقبولنا بها .

قد نقبل الأفكار الجديدة في التقنيات المادية (التكنولوجيا) ، ولكننا نجد صعوبة في قبول التقنيات الجديدة في علم الاجتماع ، وفي العلاقة بين السلطة والمعرفة في المجتمع ، هذه التقنيات التي تقلب النظريات القديمة لا نقبلها بسهولة ، ولذلك لا تتحول إلى اللاشعور عندنا ، ولا يتحول الشعور إلى اللاشعور ، لا يتحول العلم إلى الرسوخ .

ونعود إلى موضع السلطة والمعرفة ، ما هو الشيء الخفي الذي لم يُسمع به من قبل في العلاقة بين السلطة والمعرفة ؟!

إذا فهمنا العلاقة بين الشعور واللاشعور فبإمكاننا أن نفهم العلاقة بين المعرفة والسلطة ، وبإمكاننا أن نضع السلطة مع اللاشعور ، والمعرفة من الشعور .

السلطة عندنا تتبع اللاشعور ، ولا تتبع الشعور ، لأن شعورنا لم يترسخ بعد ، و لم ينسجم مع المفهوم الجديد للسلطة ولا زال المفهوم القديم المترسخ هو الذي يصنع السلطة عندنا .

إن المفهوم الجيد للسلطة لم يتعمق ، و لم يتحول إلى اللاشعور ، ولذلك فهو قلقٌ وسطحي ، ولا نعرف حتى التكلم بلغة المفهوم الجديد ؛ فضلاً عن أن نكون بليغين فيها ، وأن تصير لنا سليقة نقول بها الشعر والأدب ، ومثال ذلك أن معرفتنا بالديمقراطية لم تدخل بعد في وعينا ، فضلاً عن أن تتحول إلى الأعماق واللاشعور ، وعليه فإن السلطة غير متفقة ، ولا علاقة عضوية لها مع الديمقراطية ، أي لا علاقة بين السلطة القديمة المترسخة والسلطة الجديدة القلقة الهشة ، والتي لم يشتد قوامها بالرسوخ بعد .

ولهذا نقول : إن علمنا متخلف عن سلطتنا ، ولو أن علمنا تعمق لتحولت السلطة ، ولاتَّبعت علمنا ، ولكن هل يمكن لنا أن نقول : إن إيماننا أيضاً لم يبلغ درجة الاطمئنان ؟ وأننا كإبراهيم الذي لا يزال يريد أن يطمئن قلبه ، ويريد أن يرى مصداقية العلم الجديد : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة : 260/2] ، فدلّه الله على شيء يطمئن قلبه ، يرفع مستوى إيمانه ، ولكن كيف يمكن لنا أن نرفع من مستوى إيماننا ؟ كيف نجد الدلالة على إمكانية إحياء الرشد الذي مات منذ زمن غير قريب ؟ ربِّ أرني كيف تحيي الرشد الميت !!!..

أيها القارئ النهم القلق الحريص المتتبع : انتبه إلى ما سقته إليك ، وإن لم أكن بليغً في كشف وتحليل وتفكيك الموضوع .

إنني أشعر أنني استطعت أن افتح نفقاً أو ثقباً إلى عالم يمكن اقتحامه ، وأنا أهيب بالشباب أن يقتحموا الصعاب ، ليجدوا الحل ويمسكوا بالأسباب ويسخروا ملكوت السموات والأرض :

أيْقِظْ قدرة الخالق فيكَ !

انتبه إلى هذه النقطة : لماذا لم يتحول علمنا إلى يقين بعد ؟ ولماذا لا زال اليقين القديم يحكم العلم الجديد الذي يفقد الطمأنينة ؟

الذي أريد أن أقوله هو أن السلطة كآلية لازالت تابعة للعلم ومتولدة عنه ، فالعلم هو السلطان ، والعلم الذي لا سلطان له هو العلم القلق الذي لم يقف على قدميه بعد ، فلا يغرنك تقلب العلم القديم في البلاد ، لأنه إذا جاء العلم الراسخ المطمئن فستتحول السلطة إليه حالاً .

كأن لسان حال السلطة يقول للعلماء : لا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أنكم لم تحصلوا العلم المطمئن ، ولو فعلتم لسعيتم إلى خدمتكم بدل خدمتكم لي ، عن علمكم أضعف وأقلُّ رسوخاً ، إنكم تخافون سلطة منسوخة فات أوانها ، و لم تمتلكوا سلطة العالم الجديد ، لذلك خفتم العلم المنسوخ وكيف أخاف علمكم الهش ، ولا تخافون من أنكم تنتسبون إلى ركن واهن ليس له قوام ؟!

السلطة وعلاقتها بقوة الجسد وقوة العلم :

هل أستطيع أن أشكك بالعلم الذي نملكه ؟ وهل يمكن أن يكون الكشف عن هذا العلم إلى هذه الدرجة من الصعوبة ؟

إنكم أيها العلماء ! لم تستطيعوا أن تكشفوا قانون العلم ، وقوة العلم ، و لم تعتزوا به ، و لم تعرفوا القوانين التي تحكم معركة العلم والفهم ، و لم تتمكنوا من فصل قانون العلم وقوته ، ولا زلتم تربطون قوة العلم بقوة الجسد .

هل يمكن لكم أن تمتلكوا قوة العلم حتى تحّلوا سلطان العلم ؟

إنكم تخافون من قوة الجسد ، ولذلك فجدير أن تُحرموا من السلطان حين تريدون أن تدخلوا في صراع مع الجسد وليس مع العلم وبقوانينه .

إن الخوف من قوة الجسد يملككم أيها العلماء ، و لم تأخذ قوة الفهم والعلم مكانتها في أنفسكم ، بل لم يوجد إلى الآن من يتوقف منكم ، ولو للحظة واحدة ، ليفكر بالقوة والسلطان القاهر الذي تملكه المعرفة : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) [الممتحنة : 4/60] ، (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَال : أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ ، وَقَدْ هَدَانِ ، وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) ثم ذكر أسماء سبعة عشر نبياً ، وبعد ذلك يقول : (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ، قُلْ : لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) [الأنعام : 6/80-90] .

كيف نعيد الحياة إلى الحوار الإبراهيمي ؟ كيف نعيد الحياة إلى المنهج النبوي ؟ كيف يمكن أن نَقْلب الوجود البشري في الفكر رأساً على عقب ؟ وكيف نستطيع إحداث نقلة انقلابية في الحياة الاجتماعية مثل الانقلابات التي حدثت في علم الفلك ، وعلم الحياة العضوية ؟

كيف نستطيع أن نجعل فهم التاريخ الماضي الذي حدث للفلك ، وهو انقلاب الأمور رأساً على عقب حين نُقضت نظرية مركزية الأرض للكون ، وكانت الشمس دليلاً على صدق الله ؟ (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 45/25] ، دليلاً على إمكانية انقلاب الفهم في الشيء الذي نراه واضحاً ، إذ ربما يكون خادعاً لقضية الشمس وعلاقتها بالأرض . كيف نقلب حركة القوة والعلم ؟ فنحن لا نزال نظن أن العلم يدور حول القوة ! كيف سنقلب هذا الوهم ؟ لنفهم أن القوة هي التي تدور حول العلم ، وكيف نَجعل الأمراء على أبواب العلماء لا العكس ؟

ولكن إلى أي مدى يمكننا أن نثق بالمعرفة بموجب هذه الأفكار ؟

إن الدماغ البشري قابل للخطأ وقابل للانخداع ، ومن الممكن أن يحصل إجماع تام على صحة أمر خادع ، ولكن الواقع يظل يتحدى ، لأنه لا يسير وفق أهواء الناس ، ومن أجل هذا قلت ولا أزال أقول : إن الذهن البشري ليس هو المرجع ، بل الواقع هو المرجع ، الواقع هو الذي سيصحح أوهامنا ، التاريخ هو المرجع ، الأحداث الماضية والعواقب ، حتى إن الله تعالى يقول لنا : (انْظُرُوا) [الأنعام : 11/6] إلى التاريخ لتتمكنوا من فهم ما أقوله لكم .

لقد وثقوا بأذهانهم ، ولكنهم لم يكشفوا ضعف الذهن وهشاشته وإمكان انخداعه ، وانه ليس معصوماً ، لقد ألّهوا الإنسان ، ولكن تبين لهم أنه لا يوثق به ، وأنه ينخدع بالسراب ؛ فأعلنوا موت الإنسان أيضاً ، و لم يهتدوا إلى نجم القطب ، إلى سير التاريخ منذ قبل وصول البشرية إلى حالة الوعي ، و لم يعرفوا أن الوعي البشري أيضاً مرحلة من مراحل إبداع الخالق جلّ جلاله .

انظروا إلى المجال الذي يتجلى فيه ذو الجلال ، انظروا إلى الكيفية التي بدأ بها الخلق والإبداع الإلهي في الوجود المادي ، لأننا كلما تأملنا الإبداع كلما علمنا عظمة المبدع .

لقد كان ما يسمى : عصر النوار ؛ انتقالاً من التصور الوثني له في العصور السابقة ؛ إلى تصور وثني آخر ، وذلك حين جعلوا الإنسان هو المرجع ، فسّجدوا بذلك المرجعية مرّة أخرى ، و لم يتمكنوا من تنزيه الله عن خلقه : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص : 4/112] ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى : 11/42] .

مفهوم التغيير كما يطرحه الأنبياء

كم هو صعبٌ الوصول إلى عمق التوحيد ، وهو إلا يستبه علينا الخالق بالمخلوق ، لأننا مهما حَلَّقنا فإن القياس الذي يقوم به ذهننا يخذلنا .

إن سؤال إبراهيم عليه السلام : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى) [البقرة : 260/2] ، وسؤال موسى عليه السلام : (رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) [الأعراف : 143/7] ، هذان السؤالان ، والجوابان اللذان ردَّ بهما الله تعالى عليهما ؛ يقولان لنا : انظروا إلى الواقع الذي خلقه الله ، ولا تحاولوا أن تنظروا إلى الله فتقعوا في الخطأ واللّبس والقياس ، فالله خارج القياس ، خارج المثلية .

لقد جاء الأنبياء بفهم جديد للإنسان ، جاؤوا بشيء قلب فهم الإنسان ، فالإنسان غدا عَلَماً جديداً له قوانينه الخاصة ، وتغييره يكون بتغيير ما بنفسه ، وتغير نفسه صار ممكناً دون قتل للنفس ، ودون سفك للدماء .

لقد صار ممكناً أخذ العسل دجون قتل النَّحل ، وإن مجرد الإيمان بإمكان تغيير ما بالأنفس صار موقفاً يفتح لصاحبه طريقاً إلى تغيير وإزالة ما بنفس الإنسان من غير إزالة نفسه .

هذه النقلة هي ما جاء به الأنبياء حين فصلوا إزالة ما بالنفس عن إزالة النفس ، فزال بذلك النزاع والخلط بين الأمرين .

هل يمكن أن يكون هذا هو الفرقان الذي آتاه الله تعالى لأنبيائه ؟ ، وأنه لأنهم جميعاً جاؤوا به فنحن : (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) [البقرة : 136/2] .

هل يساعدنا هذا الفهم على إدراك أن النفس صارت محرومة لأنه صار بالإمكان إزالة ما بالنفس دون إزالة النفس ؟ نعم صار بالإمكان إزالة المرض دون إزالة المريض بقتله .

إن هذا الفهم خبر عجيب ونبأ عظيم لم يتوضح إلى الآن ، وإن كنت في ريب من ذلك فارجع إلى نفسك : هل تشعر أن هـذا المفهوم صار واضحاً لديك ، وأنك قادر على أن تفكر به جيداً وتتأمله ؟

هل نستطيع أن نكشف أنفسنا ، وأن نغير ما بها في هذا الموضوع ؟

هل ما تزال فكرة إزالة النفس بدل إزالة ما بها هي المسيطرة علينا ؟

تحدثتُ إليك سابقاً عن ذلك الطبيب الذي لا يجد علاجاً لمرض المريض إلا بإزالة الجسد لا المرض ، فهو دائم التفكير في الكيفية التي يتخلص بها من المريض ، لا الكيفية التي يتخلص بها من المرض .

هل تشعر معي أن الأفكار المسيطرة علينا وعلى ثقافتنا ، والأحقاد والأغلال التي في قلوبنا ؛ إنما نتجت عن عدم فهمنا لهـذا الموضوع ، وهو إمكان معالجة النفس وإزالة ما بها من مرض دون إزالتها ؟

إننا حين نكشف المرض ، ونكشف إمكانية إزالته دون قتل المريض ، وبدون قتل المخطئ ، فسيصبح هذا العلم كبيراً ونبأ عظيماً : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، عَنْ النَّبَأ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ، كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) [النبأ : 78/1-5] .

إن ما جاء به الأنبياء لم يتحقق بعد في حياة الناس ، و لم يصر مفهوماً متداولاً فيما بينهم ، بل (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون) [يس : 30/36] . هل نستطيع أن نفهم أننا لا نزال نستهزئ بالأنبياء وبما جاؤوا به ، وأن ما جاؤوا من اجله لم يأت عهده في حياة الناس بعد ؟

إن القرآن لَيُلِحُّ على هذا المفهوم ، وقد جاءنا نبؤه ، ولكننا لم نفهمه ، و لم يحصل لنا علم بما جاؤوا به : (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) [ص : 88/38] .

إننا لا نزال نعرض عنه ، ولا نستطيع أن نتفكر فيه : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) [سبأ : 46/34] .

هل تساءل الناس عن النبأ العظيم فعلاً ؟ لماذا يقول الله تعالى : (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) [ص : 67/38-68] ؟

ما هذا الشيء الموحّد ، والنبأ العظيم الذي جاء به الأنبياء جميعاً ؟

ما هذا الفرقان الذي أنزله الله ونزّله على عبده ليكون للعالمين نذيراً : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) [الفرقان : 1/25] ، (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً) [الأنفال : 29/8] .

اللهم اجعل لنا فرقاناً !!..

واجعل لنا ميزاناً !!.. نميز به بين الخطأ والصواب ، بين الغي والرشد ، بين الضلال والهدى ، بين الفساد والصلاح .

اللهم لا تجعله ملتبساً علينا فنضل ، واجعل لنا نوراً وفرقاناً نخرج به مما نحن فيه من الفساد والأحقاد وسفك الدماء .

إنني أخاف ، ولا أجرؤ على أن أقول : إنني بصرت شيئاً لم يره الراؤون ، ومحمد إقبال رحمه الله كان يشعر بهذا ، وقد صرت أفهم عليه انه كان يرى أشياء لم يرها الناس ، ومن يقرأ ديوان الأسرار والرموز يشعر أن إقبالاً كان يتأجج حرقة وتوقداً ، لقد كان يرى في الرماد شعلة ، وفي عروق البدر دورات الدم ، ويقول :

ما فَشَى ذا السِّرَّ غيري في البشر — لم يثقِّب ناظم مثلي الدُّرَر

صيد أفكاري ظباء لم ترم — لم تسيب بعد من قيد العدم

أنا في يأس من الصحب القديم — مشعل طُوري ليغشاه كليم

وكان يشكو أن أفكاره لا تروج في هذه الأسواق ، لأن هذه الأسواق ليس فيها من يشتري يوسفه ويقول :

أنا لحنٌ ضرب صَعَدا — أنا صوتٌ شاعري يأتي غداً

دون عصري كلٌّ قد خفي ما بهذا السوق يُشْرى يوسفي

لقد عشت مع إقبال وأفكاره زماناً طويلاً ، كنت أدور معه في الصحارى والبراري والأفلاك ، فعن أي شيء كان يبحث إقبال ؟

إنه كان يبحث عن قوة الذات وأسرار إثباتها ، وعن مواطن الضعف في الذات ورموز نفيها ، لقد كان يبحث في معاني (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 91/9-10] ، في : (أسرار إثبات ، ورموز نفي الذات) .

إن الذي تعب في البحث يقّر قيمة التعب في البحث ، ويعرف أن انشراح الصدر يسبقه ألم .

حين كان إقبال يريد أن يوجز فكرته ؛ كان يقول :

نكتة خذها كسيف مخزم وانصرف عني إذا لم تفهم

النزاع الفكري والنزاع الجسدي :

ما هي النكتة التي أريد أن أقولها لك ؟ ما الذي جاء به الأنبياء من الفرقان والهدى والذكرى والرحمة والموعظة والنجاة ؟ ما هو الشيء الذي دعوا إليه حين نادوا : حيَّ على الفلاح ؟ ما هذا الفوز المبين ، وما هذه التجارة الرابحة ؟

إنهم حرّروا الإنسان ، وفرقوا بين النزاع الفكري والنزاع الجسدي ، وأدخلوا الناس إلى عالم جديد ، وأوجدوا عالماً من الحوار وتغيير ما بالأنفس .

لقد خرجوا من عالم التحدي بالعضلات التي نوع آخر من التحدي ، وابن آدم الأول هو أول من تحدى عضلات اليد ، وانتقل إلى مجال آخر من التحدي ، والأنبياء جميعاً دعوا إلى هذا الانتقال من عالم الحيوان الذي تحكمه الظافر والأنياب والعضلات ، إلى عالم آخر ومستوى مختلف . (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 256/2] ، هل حقاً قد تبين الرشد من الغي ؟

إن فرقان الأنبياء لازال مشتبهاً وملتبساً علينا ، ولابد لنا من إضاءته ، وفهم العلاقة التي تربط الفرقان بالضياء في قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ) [الأنبياء : 48/21] .

وبمجرد أن يفهم الإنسان أن صراع الأفكار مختلف عن صراع الأجساد ؛ يكون قد دخل عالماً جديداً ، وحين يميز ويفصل عالم الأفكار عن عالم الأجساد ؛ يكون قد أمسك بالفرقان ، وبالقول الفصل الذي ليس بالهزل ، وبالميزان : (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) [الرحمن : 7/55] ، وامسك بـ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة : 256/2] ، فلا يعود يستخدم قوة الأجساد لفرض الدين والعقيدة ، ولا يستخدم الإكراه الجسدي في فرض الأفكار ، وما لم يتحرر الإنسان ويتطهر ويفصل معركة الفكر عن معركة الجسد لا يكون قد دخل في التوحيد .

إن إشراك وخلط معركة الجسد في معركة الفكر ؛ هو إشراك فيما يجب توحيده . إن القوة الاكراهية نُسخت في عالم الأفكار بـ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ولكنا نعيش المنسوخ .

إن المنهزمين فكرياً يحاولون جَرَّ أصحاب الأفكار إلى المعارك الجسدية ، ولذلك ينبغي على أصحاب الأفكار أن يكونوا من الوعي والوضوح بحيث يستطيعون فصل الأمرين عن بعضهما فصلاً تاماً ، ولا يقعون فيما يسعى الآخرون إلى إيقاعهم فيه ، وبالقدر الذي يكون فيه أصحاب الفكر غامضين وغير صريحين ولا واضحين ، فإن أصحاب الصراع الجسدي لن يكفوا عن التلويح بالجسد ، وسيتمادون في اتهام الآخرين بأنهم يريدون القضاء على الجسد .

دعني أتحدث إليك عن ميلاد الأفكار وتطورها ورسوخها ، دعني أتحدث عن تاريخ الأفكار ، عن تاريخ العلم ، عن تاريخ الإيمان .

إن الإيمان هو العلم الراسخ الذي وقر في القلب وصدقه العمل ، ولا يشترط أن يكون هذا الذي وقر في القلب وصدقه العمل صواباً ، لأن الإيمان قد يتعلق بالخطأ كما قد يتعلق بالصواب ، فهو قد يكون إيماناً بالحق ، وقد يكون إيماناً بالجبت والطاغوت .

ولكن ما شان تاريخ الأفكار وتاريخ العلم والفهم ؟

فالفكرة تتكون جنينً في البداية ، ثم يأتي المخاض المفاجئ فتولد ولادة هشةً ، وعندها تكون بحاجة إلى رعاية وتربية ودعم .

عن ميلاد فكرة فصل معركة الجسد عن معركة الفكر ، كان مرافقاً لولادة الإنسان ، بل قبل ذلك حين كان الإنسان مشروعاً للإيجاد : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) [البقرة : 30/2-31] .

لقد كان الإنسان مشروعاً وخطة وهدفاً ، ولم يكن منبعثاً إلى الوجود ، كان نموذجاً في الوجود ، خلقاً آخر من الإبداع المحير والتطور غير القابل للفهم والمحير للإدراك ، كان يحمل إمكان الفساد وإمكان الصلاح ، ولكن الذين عاصروا ميلاده لم يتمكنوا من فهمه ، وقد عذرهم الله ، واكتفى بان قال : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) .

إن المتشائمين معذورون لأنهم لم يعرفوا قانون الخلق ولم يدرسوا تاريخ الخلق ، ولم يدركوا أو إبداع مستمر ، ولذلك فهم لا يستطيعون أن يتصوروا إبداعاً .

إنهم لم يفهموا سنة الخلق وتاريخ الإبداع ، وإمكانية استمرار الإبداع ، لم يفهموا المرجع والقانون ، ولهذا كان جواب الله مقتضباً وممتداً وغير قابل للإغلاق : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) .

رحلة الارتقاء الانساني

أتركُ عالم الغيب ، عالم الملائكة الذين توقعوا الفساد من الإنسان ، وعالم الجن الذين قالوا : (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) [الجن : 110/72] ، واعود إلى عالمنا لأدرس كيف كان فهم الناس لوضعهم وإمكاناتهم ، وكيف كان تفاعلهم مع الإبداع الذي اودع فيهم والروح الجديدة التي صُبغ بها الوجود حين نُفخت الروح في الإنسان ، وتعلّم الاسماء ، وأُمر بالقراءة ، وأوكِل إليه اصلاح ذاته بذاته وتغيير وضعه عن طريق تغيير ما بنفسه وتزكيتها ، وبالتعامل مع الواقع والنظر إلى العواقب .

لقد نفخ في الإنسان روح الفهم والعلم والمعرفة والاكتساب ، ثم أنزل إليه الروح : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ) [الشورى : 52/42-53] .

كيف نعرف البشر بما نفخ فيهم ؟ كيف نهديهم إلى ما أودع فيهم من إمكانات الكشف عن الكون والذات وصولاً إلى القدرة والتسخير وبناء العالم الجديد ؟!!

إن الذي أُودع فيهم هو العلم القابل للزيادة ، وروح المعرفة ، روح قانون حياة الجسد ، وقانون الروح الذي هو العلم والكتاب والفهم والتسخير : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ) [الشورى : 52/42-53] .

لقد خَرَجْتَ أيها الإنسان من قوانين عالم الجسد ، وارتفعت عنها ، لأنك خلق آخر نفخ فيك الروح ، فلا تنكص ولا تتراجع . لا ترجع إلى قانون الجسد ، بل تمسك بقانون الروح والعلم والفكر والابداع . لا تخف وأمسك بنور التاريخ . لا تنسَ تاريخك . لقد كنت هيدروجينياً ، ثم تحولت إلى عناصر أخرى في قلب الشموس ، ثم صرت مع لابات البراكين ، ثم تحولت إلى زهرة وثمرة ، ثم تحولت إلى كائن حيٍّ يسمع ويبصر ، ثم نفخ فيك الروح ، وأنت تتطلع إلى مقعد دق عند مليك مقتدر في الخالدين !!..

اسمع ما يقوله جلال الدين الومي ، في الحوار الذي جرى بين المرأة التي تطبخ ، وبين الحمص الذي كان في القدر ؛ تقول المرأة مخاطبة الحمص الذي توقد النار تحته : أيتها الحمصة ! لقد كنت مادة في التراب ، ثم ابتسمت زهرة في النبات ، ثم تحولت إلى ثمرة ،

والآن تنضجين لترتقي أكثر ، لتتحولي إلى الإنسان ، فتقول الحمصة : أيتها السيدة ! أوقدي النار أكثر ، كي أنضج وأتحوّل إلى مرتبة أعلى وأسمى ..

خذ هذه القصة يا أخي وتأمل فيها حصة من الزمن ، وتامل كيف كان الإنسان في عالم الجسد ثم بدأ يدخل في عالم الروح ، تأمل كيف سيتجرد من عالم الجسد ، إنه الآن يتدرب على هذا التجرد ، فهو ، وإن كان يعيش في الجسد ، كنه سوف يتحرر منه ، وسوف لن يتراجع إلى الوراء ، سوف يتحرر من قانون الجسد ليدخل إلى قانون الروح ، هذا ما فعله ابن آدم ليثبت قدرة الخالق فيه .

لقد دشن قانون الروح ؛ قانون المعرفة ، نعم إنه أكل من شجرة المعرفة ، وتطلع إلى الخلود ، « وقد وُضع على طريق شجرة الحياة لهيب سيف متقلب » .

الأنبياء وحرية الفكر :

ما هي قصة العلم والمعرفة في تاريخ البشر ؟ ما قصة الباب الذي فتح للفكر ؟ هل الفكر جائز ؟ هل لك حق في أن تفكر وتحاور نفسك وتتأمل وتتدبر ؟ هل لك حق في أن تناجي نفسك خارج ذاتك بصوت مسموع ؛ هل لك حق في أن تحاور الآخر ؟ هل لك حق في أن تفكر في الأشياء : كيف حدثت ؟ وفي الأمور كيف تحدث ؟ هل لروحك حق في أن تتمرن وتفكر في خلق السماوات والأرض ؟ هل لك حق في أن تتفكر في المبدأ والمصير ، وفي الأولى والآخرة ، في الدنيا والعليا ؟

هذا ما جاء به الأنبياء ، جاؤوا من أجل أن يحكموا حرية الفكر ويزيلوا العراقيل التي تقف أمامه ، جاؤوا بمبدأ : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) .

ارفع الإكراه وأطلق الروح تحلق ، إن الروح لتسمو وتتعلم من عثراتها ، تتعلم ألا تسقط ، دعوا الروح تسمو إلى خالقها . إنها متجهة نحوه !!..

لقد علّم الأنبياء الناس كيف يفكّرون في الأشياء التي لم يفكِّرْ فيها ، إن الأنبياء هم الذين جاؤوا بما لم يسمع به من قبل ، إنهم هم القدوة في الإبداع والخروج عن المألوف ، ومن أكبر إبداعاتهم أنهم لم يطالبوا بأن يسمح لهم بالتفكير والقول والحديث والحوار ؛ بل مارسوا التفكير عملياً .

لقد اعتبروا ذلك من أقدس الواجبات ، وجاؤوا أيضاً بالفرقان ، جاؤوا بالرشد ، ورفعوا الإكراه ، وأنكروه ، أنكروا استخدام القوة الجسدية ، في مجالات الفكر ، هذا هو الفرقان ، هذا هو القول الفصل الذي ما هو بالهزل ، وبهذا الفصل بين الاستخدام الجسدي والاستخدام الفكري ؛ تم الارتقاء ، وتبين الرشد من الغي .

لقد آمنوا بالله ، آمنوا بالروح الذي نفخ فيهم ، والتزموا كلمة التقوى ، ولم يرتدوا على أعقابهم ، فَمَنْ قَبِلَ مَبدأ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ؛ فقد أمن على وجوده ، وحمى نفسه ودينه ، وعرضه وديارة ، لا يطلب منه بعد ذلك شيء : (فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) [النساء : 90/4] ، (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً [النساء : 94/4] .

إنك بإلقاء السلام صرت مؤمناً بأعظم ما جاء به الأنبياء ، وأمِنت على نفسك وفكرك ودينك وديارك ، أياً كان دينك ، وأياً كان أفكارك ، وبإلقائك السلام تدخل في مملكة اللاإكراه ، في مملكة الرشد ، وتخرج من مملكة الإكراه ، مملكة الغي والطاغوت .

انظر إلى العالم وابحث عن مكانة هذه الفكرة فيه ، ولكن قبل أن تعرف مكانتها في العالم تأكد من أنها قد توضحت لديك ، فإذا وجدت أنها لم تتوضح بعد ، وانك لازلت تشك فيها وتتردد ؛ فاعلم أن الإيمان لم يدخل إلى قلبك بعد ، ولذلك لم تقتنع بالسلام والإسلام ، ولا زلت على دين الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : (قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحجرات : 14/49] .

إن المنهزم في معركة الأفكار هو الذي يلجأ إلى معركة الأجساد ، افهم هذا جيداً ، ومن يترك معركة الأفكار ، ولا يقدر على الصبر فيها ، ولا يمرّن نفسه على كسبها ، ويعود إلى معركة الأجساد ، فإنه يعود إلى الجاهلية ، وإلى مقابل عالم الروح وعالم الكتاب .

إن الكتاب هو الروح : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ) [الشورى : 52/42] .

، تأمل الكتاب ، تأمل الفرقان ، لا تخلط معركة الفكر بمعركة الجسد .

دعنا نلطف من عبارتنا شيئاً ما ، فبدل أن نقول كلمة (معركة) التي توحي بالصراع الفكري ؛ دعنا نستخدم كلمة (معترك) ، لنقول : إن من يخلط معترك الأفكار بمعترك الأجساد ؛ لم يعرف معنى الفرقان ، ولم يصر له فرقان أو ميزان ، ولم يتبين له الرشد من الغي .

إن الخروج من هذا الخلط شيء أساسي كي يحدث الفرقان ، ويتم التمييز ، ويزول الاشتباه والالتباس .

الشعور بالأمن والثقة بالأفكار :

أيها المسلم ، أيها المؤمن ! لا تلبس إيمانك بالدنس والظلم والجاهلية ، لا تنس الآيات التي سقتها لك من سورة الأنعام في محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه ، إبراهيم الذي شعر بسلامة الأفكار ، وسلامة الفهم ، والإدراك الصحيح للمشكلة ؛ حدثت له الاستنارة والهداية : (أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ) ، عن الشعور بالهداية ، وبالهيمنة الفكرية ؛ يزيل الشعور بالخوف ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : (ولا أَخَافُ) ، هذا الشعور يعبّر عن حالة فكرية رائعة ، لا يمكن حدوثها بالادعاء ، ولا تتأتى إلا بتوافق تام بين الشعور واللاشعور في موضوع الأمن ، لهذا علينا أن نفهم كلمة : (لا أَخَافُ) ، وأن نحللها ونفككها ، ونجزئها إلى عناصرها الأولية .

حين قال إبراهيم كلمة : (لا أَخَافُ) ؛ حاول أن يشرحها ويحللها أيضاً فقال : (وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ) [الأنعام : 6/80-81] ، أين سلطان الخوف ، وأين سلطان الأمن ؟ من ذا الذي يتسلط عليه الخوف ، ومن ذا الذي يأتيه الأمن ؟

الخوف في التحليل : هو الخشية من وقوع الخسارة في مالٍ أو شرف أو مكانة ، وهو يحدث من تقدير الموقف ، ومن التصورات التي يمتلكها الإنسان على ما يتمتع به ، وأنه لن يسلب شيئاً يملكه ، وقد علل إبراهيم عليه السلام حدوث الخوف وعدمه ،ولكن علينا أن نُرجع معنى الشرك أيضاً إلى عناصره الأولية .

لقد كان إبراهيم منسجماً مع نفسه وأفكاره ، من البداية وحتى النهاية ، فهو الذي واجه الأصنام وعبادها في مجتمعه بالتساؤل الإبراهيمي الكبير : (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ وْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) [الشعراء : 26/72-74] ، كان يعود إلى المرجعية الأساسية ، إلى مرجعية النفع والضرر ، وبهذا المعنى كان إبراهيم هو البراغماتي الأول الذي سأل عن نفع الأشياء وضررها ، أما الذين كانوا يحاجونه ؛ فكانت مرجعيتهم تستند إلى الآباء : (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) .

لم يضيع إبراهيم المرجعية الأساسية ، ألا وهي قانون الله في معرفة الحق والباطل : (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ) [الرعد : 13/17] ، هذا هو القانون الذي يحكم العالم ، إنه روح العالم الذي تجسد في الإنسان ، وهو يعني أن الأنفع هو الذي سيبقى ، وأن الأقل نفعاً سيزول مهما طالت حياته ، ومهما امتد عرضاً وعمقاً .

الخير والأبقى هو الذي سوف يستمر ، والزبد سوف يذهب جفاءً غير مأسوفٍ عليه ، ولن تبكي عليه أرض ولا سماء ، لأن الذي سيأتي بدلاً منه هو الأنفع .

إن الذي يدرك قانون التاريخ وسنة الله وميزان النفع والضرر ؛ يتخلص من الشرك ، ويزول عنه الخوف ، ويصبح مثل إبـــراهيم عليه السلام الذي قال : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَـــأَيُّ الْفَـــرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ) [الأنعام : 81/6] .

بعد هذا التحليل ، نعلم مقام إبراهيم عليه السلام في تاريخ النبوة ، وفي تاريخ المرجعية التي تفصل الحق عن الباطـــل : (أَوْلَـــى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) [آل عمران : 68/3] ، (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) [التوبة : 114/9] .

إبراهيم وسقوط مرجعية الآباء :

إبراهيم هو الذي سمانا المسلمين (هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) [الحج : 78/22] ، وهو الذي تحدث بالقانون الكـــوني ، قانون الزبد ، فكانت الحجة الإبراهيمية : (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، وْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) [الشعراء : 26/72-73] .

هذا هو قانون التاريخ ، وليس هذا فحسب ؛ بل هو قانون الحلال والحرام : (يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ : فِيهِمَـــا إِثْـــمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) [البقرة : 219/2] ، لأن إثمهما أكبر من نفعهما تحولا إلى رجس : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة : 90/5] ، وأما الحلال فهـــو الطيـــب النافع : (يُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ) [الأعراف : 57/7] ، ومن هنا كانت القاعدة الفقهية الشاملة : « الواجـــب هو ما كان نافعاً أو غالباً ، والحرام هو ما كان ضاراً دائماً أو غالباً » .

هذا هو القانون ، وهذه هي المرجعية التي نعرف بها الحق من الباطل ، والصحة من الخطأ ، وهذا ما انتهى إليه محمد إقبال حـــين درس الحضارات والثقافات ، وقرر أن الحكم لأي من الحضارات أو الثقافات يكون لها أو عليها ، بالنظر إلى نموذج الإنســـان الـــذي تنتجه ، وهذا ما ذكره الإنجيل للتفريق بين الأنبياء ومدعي النبوة حين قال : « من ثمارهم تعرفونهم ، هل يمكن أن تجني من الحسك تيناً ، ومن الشوك عنباً » .

إن المرجعية لا تكون في الآباء ، وإلا كان تفكيرنا مثل تفكير قوم إبراهيم ، بل المرجعية هي مصير ما كان عليه الآبـــاء خـــلال التاريخ .

إنها ليست في الانتساب إلى الله وملائكته وكتبه ورسله ، : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) [النساء : 123/4] .

ما قصة معترك الأفكار في التاريخ ؟ كيف تعامل الناس مع مشكلة الفهم خلال التاريخ ؟ كيف تعاملوا مع معتـــرك الأفكـــار والأجساد ؟

هل استطاعوا أن يفصلوا معترك الأفكار عن معترك الأجساد ؟ هل استطاعوا أن ينادوا بهذا الفصل أو يعملوا له ؟

لقد قام المؤرخ ينبي برصد التاريخ خلال ثلاثة آلاف من السنين ، وذكر نحو ستة شخصيات لا تزال تؤثر في العالم أكثـــر مـــن غيرها ، منهم كونفوشيوس ، وبوذا والمسيح ومحمد r ، وذكر أن القاسم المشترك الأعظم الذي يميز هذه الثلة عن غيرها أنهم كـــانوا يدعون إلى الخروج من عبادة المجتمع (الآباء) ، وأن أكثرهم كانوا يؤمنون بحياة أخرى .

إن التمكن من الخروج من مرجعية الآباء ؛ يُعد تطوراً في حياة الإنسان وتاريخه ، وإن كانت فكرة التوحيد الإبراهيمي التي تجعل المرجعية في النفع والضرر ؛ لم تصر مرجعاً موحداً بين الناس ، ولم يتطور البشر بعد ليتخذوا من ميزان النفع والضرر أساساً في تحديـــد المرجعية .

إن كل جماعة ترى في آبائها مرجعاً ، ولكن سقوط مرجعية الآباء أحدثت بلبلة في العالم الفلسفي في العصر الحديث ، ولّما يبدأ الفلاسفة بعد بإقامة القانون الموحد بين الناس جميعاً ، ولازالت روح الاستكبار تحول دون تعميم القاعدة ، وتوحيد المرجعية .

إن مجلس الأمن الذي مح لبعض أعضائه حق النقض (الفيتو) ؛ ليس خاضعاً للقانون العام الموحد ، بل يتحكم فيه قانون : (أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى) [النازعات : 24/79] ، القانون الذي يقول : أنا قوي جسدياً ، ولا يشترط أن أكون قوياً فكرياً ، ولا يجب علي أن أوحد القانون وأطبّقه على الجميع ، ولذلك لا أقبل كلمة السواء ولا كلمة التقوى ، ولا أرضى أن تكون كلمة توحيد الناس أمام القانون هي الأعلى ، ولن أتنازل عن أن أكون أنا الأعلى !!..

هل نستطيع أن نصحح هذا الميزان ونوجد الوزن بالقسط ؟

العدل وفصل معترك الأفكار عن معترك الأجساد

أيها الناس ! إنكم تحبون الوزن بالقسط والعدل ما دمتم مظلومين ومستضعفين ، أما حين تصير لكم السيطرة والقوة ؛ فسوف ترفضون كلمة السواء وكلمة التوحيد ، ولا تقبلون أن يتساوى الناس جميعاً أمام كلمة السواء وميزان واحد .

امتحِنْ ذاتك ، وستعرف انك لن تستطيع أن تكون عادلاً ؛ إلا إذا فصلت معترك الأفكار عن معترك الأجساد باطمئنان ، وقبلت قانون معترك الأفكار ، ورفضت إدخال معترك الأجساد في معترك الأفكار .

ينبغي أن تصل إلى إيمان ابن آدم وموقفه ، حتى يكون قولك مطابقاً لعملك ، وإلا لن تكون صادقاً بادعائك قبول كلمة السواء ، وادعائك انك فصلت معترك الأفكار عن معترك لأجساد ، ولن نصدّق أنك فهمت الهدف والمغزى من قوله تعالى : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [البروج : 8/85] ، كلاّ ولن نصدق أنك فهمت المغزى والهدف الذي جاء من اجله الأنبياء الذين قالوا : (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) [إبراهيم : 12/14] ، ولا الهدف والمغزى من قوله تعالى : (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) [الأنعام : 34/6] .

إنك إن لم تصل إلى إيمان ابن آدم وفهمه ، فانك لا تكون دخلت معترك الأفكار ولا ذقت قوانينها .

إن الأمور لازالت ملتبسة ، حتى إننا لم نؤمن بعد بفعالية عالم الأفكار ، ولم نشعر أننا نستطيع أن نربح معترك الأفكار ، ولذلك فنحن منهزمون قبل أن ندخل إلى هذا المعترك ، وبموجب هذه العقلية فإننا سنخنق الأفكار في مهدها ، وسندفنها حيّة ؛ متى صار لنا قوة وسلطان ، ولن نصبر على أي فكر يخالفنا .

كم مرّة تكرر هذا في تاريخنا ؟!!

ماذا يحدث لدعاة حرية الرأي .

ماذا يحدث لدعاة فكرة (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ؟

تأمل في قوله تعالى : (فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا) [الأنعام : 34/6] !

إذا كنت لا تصبر على التكذيب والأذية في معترك الأفكار ، وتلجأ بدلاً عن ذلك إلى معترك الأجساد ، فإنك بدل أن يتعمق دخولك إلى عالم الأفكار وتنحرف عنه .

لا تتحدث عن الأفكار حين تكون في معترك الأجساد ، لأن الأفكار عندها لن يكون لها مكان في ميدان تتصارع فيه الأجساد ، ولا يوجد أناس يلتزمون بمعترك الأفكار على أساس دائم وثابت واستراتيجي .

إن الذين ينجرّون إلى معارك الأجساد بالتحرشات والايذاءات ، هؤلاء لم يتعمقوا في الإيمان بعالم الأفكار ولم يفهموه ، لأن بالإمكان إخراجهم منه ، هؤلاء الذين ليدهم استعداد للخروج من عالم الأفكار والوقوع في حبائل الغواية والإغواء ؛ جدير بهم ألا ينجحوا في معترك الأفكار ، وحتى وغن نجحوا في معارك الأجساد ؛ فإنهم لن يستطيعوا أن يحيوا قوانين معترك الأفكار ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، هو فَقَدَ معترك الأفكار وانجرَّ إلى حمأة المعارك الجسدية ، ولهذا لن يستطيع أن يحمي عالم الأفكار وقوانينه .

ولا يكفي مجرد الانتصار في معترك الأفكار بقانون الأفكار ، وبدون إشراك معترك الجسد في الصراع ، لأن لالتزام بالأفكار وقوانينها بعد ذلك يكون أصعب ، وخاصة إذا كان هذا الأسلوب جديداً في عالم الفكر .

إن عهد دعوة الأنبياء لم يأت بعد ، ولا تزال دعوتهم في رحم التاريخ ، ولكنها ستولد ، وستحيا ، وسترى النور ، ولكن علينا أن نعلم جيداً في أي وضع نحن الآن ، وما هي الأمراض الخطيرة التي نحملها ولا تظهر إلا في حينها .

من هنا كان جواب موسى عليه السلام لبني إسرائيل حين استبطؤوا الفوز ، وقد ذكر الله لنا هذا الحوار :

(قَالُوا : أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [الأعراف : 129/7] ، وقال الله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [يونس : 14/10] .

الإسلام و (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) :

لقد تقدم التاريخ تقدماً كبيراً ، وقطعت البشرية مراحل متعبة إلى أن اضطرت لقبول مبدأ : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) .

وقد تحدث المؤرخ توينبي عن فكرة (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، وقال : « لقد جاء بها الإسلام من زمن بعيد ، و لم نقبلها نحن هنا في بريطانيا إلا في وقت متأخر جداً » ، حتى إن مشكلة إيرلندا إلى الآن من عقابيل عدم رسوخ تلك الفكرة ، لكن الفكرة ولدت على كل حال ، وخرجت من الأرحام ، والأفكار الجديدة المخالفة لما هو سائد في المجتمع ؛ تأتي شاذة ومنكرة ، سواء في الفلك أو الحياة أو النفس الإنسانية ، فَتُرفض ، ثم يتعرف عليها بعض الأشخاص الذين لهم قدرة على التأمل ، ثم يبدؤون بالتحدث بها حتى تُقبل من الملأ ، ثم تنتشر وتهم الناس ، ثم تترسخ في الأعماق ، فلا يعودون يذكرونها ، بل يبنون سلوكهم عليها دون شعور منهم .

إن مشكلة التدين وقبول تغيير الدين لازالت مشكلة بشرية ، فالدين كان يولد مع الإنسان ، لا بل إن الإنسان يكتسبه بعد ولادته من مجتمعه ، وبعد ذلك يجتهد المجتمع للمحافظة على دينه ، ولا يسمح لأبنائه بالخروج عنه .

لقد دفعت الإنسانية ثمناً باهظاً حتى قبل الناس الفكرة القائلة بـ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، وغن كانوا لم يطمئنوا إليها بعد .

إن العالم الإسلامي يرفض هذه الفكرة ، وإن كان يقبلها في مستوى الأديان مع كثير من السطحية ، فالفكر الآخر المعارض غير مقبول إلى الآن ، والناس في العالم الإسلامي لم يقبلوا حرية الفكر باطمئنان ، بل قبلوها اضطراراً ، وهي إلى الآن لم تنتشر بينهم ، رغم بروزها دعوة عريضة في الدساتير المسجلة .

إنها لم تُسجل في القلوب ، و لم يطمئن الناس إليها ، وهذا دليل على حداثة عهد الإنسان في الدخول إلى عالم الأفكار ، فضلاً عن قبول المرجعية الموحدة ، أو قبول (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ولا إكراه في السياسة .

إن فكرة الإكراه ، وفكرة الخضوع للطاغوت والخوف منه ومن تحديه ، هاتان الفكرتان راسختان في لا شعورنا ، موجودتان بقوة في مجتمعاتنا ، إلى درجة أني قلت مرّة : إن العلم والعقل في مجتمعاتنا الإنسانية كلها ، لا زالا مخلوقين قاصرين ، ولا يرى أهل الهوى والطغيان في العالم كله أي حاجة إلى مدارها ، بل إن الهوى ليتربع على عرش القوة ويدعو العلم والعقل ليؤديا طقوس الاحترام والطاعة والثناء له وللإكراه ، ثم يؤمران بالانصراف فينصرفان وهما يتمتمان بكلمات تدل على شيء من الامتعاض الداخلي ، كما أن فيهما شيء من عدم الخجل ، إذ لا يوجد وعي يجعلهم يخجلون من هذه الشهادة المظلمة التي لا يوجد فيها شيء من الضياء .

بل إن وَرَثَةَ الأنبياء من الآمرين بالقسط من الناس لا يزالون متفرقين ومبعثرين ، لا تعارف بينهم ولا تآزر ولا تعاون ، لم يشكلوا سلطة رقابة على الفساد في الأرض ليقوموا بدور الشهادة للحق والقوامة بالقسط ، فكأنهم إلى الآن لا يشعرون بأي مسؤولية ، ولا يعلمون أن عليهم مسؤولية القيام بدور الإنذار والتبشير وتوعية الناس إلى تاريخهم ، وفتح أعينهم إلى مستقبلهم ، وإشعارهم بأنهم يستطيعون أن يتحرروا من عبادة الخطأ ، ويمكنهم أن ينصروا الصواب .

إن أقل ما يجب على الآمرين بالقسط من الناس هو أن يرشدوا الناس إلى ألا يدخلوا إلى المعارك الجسدية ، وإلا يكونوا بنادق بأيدي حرّاس الامتيازات في العالم .

إن فكرة ألا يتحول الإنسان إلى بندقية وسوط بيد الجلاد ، وأن يخرج من أن يكون مجرد أداة بيد أصحاب الامتيازات ، هي فكرة مهمة وسهلة التطبيق مهما تراءى لنا أنها صعبة ، ومن هنا كان المسيح عليه السلام يقول : « أيها المتعبون في العالم هلموا إليَّ ، عن نيري خفيف » .

إن هذا البديل خفيف ، وإذا انتبه الإنسان إليه وَجَدَهُ خيراً وأبقى ، ويمكننا أن نكشف هذا البديل في المخبر ، في التاريخ ، وعلينا بعد الكشف عن هذا البديل أن نحوله إلى ثقافة ، إلى علم راسخ ، إلى لاشعور يهيمن عليه الشعور ، لتتحول السلطة إليه ، لا أن يكون لاشعوراً غير مضبوط ، وقابلاً للانفجار دون ضوابط .

لابد من فهم هذه التقنية ، لابد من كشف هذا المنجم الثر المعطاء ، لابد من فتح الأسماع والأبصار ، لابد من استثمار هذا الكنز !!..

إن الجيوش في العالم كله تعلم الجنود أن يطيعوا الأوامر وينفذوها قبل الاعتراض عليها ، نعم العالم كله يربي جنوده على أن يكونوا بنادق مجردة من الإحساس والتمييز والفرقان ، وأن يكونوا مجردين من المحاكمة الذهنية ، والميزان الذي يفرق بين الخطأ والصواب ، وعليهم فقط أن ينفذوا الأوامر التي تأتيهم من قادتهم وزعمائهم .

هذا الأمر أيضاً يؤكد الفكرة التي أقولها من أن عهد الأنبياء لم يبدأ بعد ، نعم إنه لم يأتِ إلى حياة البشر ، ولم يُفهم من قِبلهم حتى الآن .

لا طاعة في لمعصية

لقد جاء الأنبياء بشيء عجيب ، جاؤوا بفكرة « لا طاعة في معصية »[1] .

هذه الفكرة عميقة وبسيطة وصعبة في آن واحد ، وعمقها نابع من بساطتها ، وصعوبتها تكمن في سهولتها .

لا طاعة في معصية ، لا تنفيذ للأوامر دون قانون ، دون شرط ، لقد أدخل الأنبياء إلى الناس هذه الفكرة الانقلابية (الكوبرنيكية) في سلوك الإنسان .

« لا طاعة في معصية « !!..

ما هي المعصية ؟ كيف نفهمها أم كيف نفهم الطاعة ، كيف نحصل على الفرقان والميزان ، كيف ، كيف ؟

نعم ، هذا ما أريد أن أبحثه واكشفه ، أريد أن ابحث معنى الطاعة ومعنى المعصية ، متى تحين هذه ، ومتى تحين تلك ؟ ما هو الميزان الذي يبين كل هذا ؟ حقاً إنها فكرة علوية إلهية .

الإلهي السماوي والسفلي الأرضي

الطاعة لله والمعصية للطاغوت !!..

ولكن كيف نتعرف على الله ، وكيف نتعرف على الطاغوت ؟

ينبغي أن نجد دليلاً على هذا الشيء العلوي السماوي من العالم السفلي الأرضي ، لأن العلوي السماوي جعل برهانه ودليله في العالم الأرضي السفلي ، وما ذلك إلا لأن هذا العالم هو الذي يقع تحت أسماعنا وأبصارنا ، وهو الذي نستطيع أن نفهمه وندرسه ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقيم الدليل الأرضي على هذا العلوي السماوي ؟!!..

إن العلوي يأمرنا أن ننظر إلى العواقب ، وأن ننظر إلى الخسائر والمرابح ، ويقول لنا : انظروا إلى الإحصاءات ، انظروا إلى المثلات .

هذا العلوي يمكن ألا يكون حقيقياً ، بالنسبة لنا ، إلا إذا كان دليله سفلياً وأرضياً وواقعياً وعينياً وبصرياً وإحصائياً (رياضيات ، حساب ، لمس ، ..) .

---

[1] رواه البخاري في الاحكام ، باب : السمع والطاعة للامام ما لم تكن معصية ، رقم (6725) ومسلم في الامارة ، باب : وجوب طاعة الامراء في غير معصية ، رقم (1839) .

أين ورثة الأنبياء الذين يجعلون الأرض تُحدِّث اللَّغو والاشتباه والالتباس ، وتحدث الحيرة ، وتسيطر العبثية والتشاؤم ، وتتراخى الجهود .

إنهم يلغون :

(لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) [فصلت : 26/41] .

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ) [الصف : 8/61] .

يريدون للسحر أن يبقى :

(وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) [طه : 69/20] .

من الذي سيجعل الفرقان بيد الناس ؟

من ذا الذي سيجعلنا نفهم أن الله معنا في الأرض كما هو في السماء ؟ نلقاه عند المريض ، عند الجائع ، عند الجاهل ؛ حينما نكون معهم نكون مع الله .

إنه قريب ، وقريب جداً ، وأقرب من حبل الوريد ، وأقرب إلينا من جارنا الجاهل الذي هو أحوج ما يكون إلى المعرفة ، إلى الفرقان ، إلى حقنة إنعاش !!..

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) [الأنعام : 82/6-83] ، (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [النساء : 82/4] .

ينبغي علينا أن نتأمل في الجهاز الاجتماعي دائماً ، وان نتفكر في الكتاب وفق إشارات الواقع ، وان نتفكر في الواقع وفق إشارات الكتاب .

إن الكون مسخر للإنسان ، بما في ذلك المجتمع ، أي أن بإمكان الإنسان أن يسخر المجتمع ويجعله منضبطاً بقوانين التزكية والتدسية ، كل هذا بالتعامل مع القابلية الموجودة في الإنسان ، وبالتعامل مع القوة الموجودة لدى هذا الإنسان ، والتي تجعله قبلاً للتزكية والتدسية .

الإيمان والظلم

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) ، لكي نتعامل مع الإنسان من منظور هذه الآية ينبغي أن نعرف الإيمان والظلم ، وإمكانية الالتباس بينهما ، وأن الأمن والهداية إنما يحدثان حين يزول الالتباس بين الإيمان والظلم .

إذن ، ينبغي علينا أولاً أن نفصل بدقة بين الإيمان والظلم ، فإذا زال اللبس حصلت الهداية والأمن .

هل نستطيع أن تقترب من فهم كلٍ من الإيمان والظلم ؟

لعل إمكانية فهم الظل أقرب من إمكانية فهم الإيمان ، ولكن الإيمان يتوضح حين نفهم الظلم ، فالإيمان قد يكون بالحق وقد يكون بالباطل ، قد يكون إيماناً بالله ، وقد يكون إيماناً بالطاغوت .

إننا إن نظرنا إلى العالم نجد أنَّ الإيمان موجود إلى درجة أن في الناس من يحرق نفسه في سبيل ما يؤمن به ، ويبذل ماله وكل إمكاناته في سبيل معتقده الذي ربما يكون خطأ ، ولكنّ هذا الإيمان مبعثر ، وليس هذا فحسب ؛ بل إن هذا الإيمان قد يكون عاملاً سلبياً ، والذي يكون عاملاً سلبياً ، والذي يوجهه إلى الإيجاب أو السلب هو نحن ، ولذلك علينا أن نبحث في الكيفية التي تمكننا من أن نوجهه إلى الإيجاب لا إلى السلب ، وهذا ما سيؤدي بنا إلى فهم موضوع الظلم .

الظلم ضد العدل ، وبضدها تتميز الأشياء ، والعدل هو المساواة ، ويقال للكيس الذي يُحمل على جانب من البعير عدل ، ويكون على البعير عدلان ، أي كيسان متعادلان ، ليتوازن الحمل على ظهره ، وكلما كانا متساويين كان الحمل أكثر توازناً ، وإذا اختلفا اختل الحمل وصعب تحقيق التوازن .

الْعَدْلُ هو أن تعطي للآخر مثل ما تعطي لنفسك ، أو أن تعطي لنفسك مثل ما تعطي للآخر ، وحين ترفض هذا تكون واقعاً في الظلم ، وبقدر رفضك للعدل بقدر ما تقع في الظلم ، إن قليلاً فقليل ، أو كثيراً فكثير .

تأمل هذا ولا تضيعه ، ولا يلتبس عليك ، لأنه بقدر ما يلتبس عليك بقدر ما تفقد من الأمن والهداية ، والمجتمع الذي يقع فيه الالتباس ، ويختلط نظامه بالظلم ، يفقد أبناؤه الأمن والهداية .

أحياناً أشعر أنني أقترب من الإمساك بتقنية المجتمع ،وأشعر أن آليات المجتمع قد خرجت من الظلام وصارت تحت الضوء ، فكيف نحتفظ بالنور ، كيف نمسك بالضياء لإزالة اللبس ، وللامساك بالأمن الداخلي والراحة النفسية والإحساس بالهداية ؟

إن الأمن أهم من الهداية ، لأنك إذا حصلت على الأمن شعرت انك مهتد ، وما دمت خائفاً فإنك لم تهتد و لم يحصل لك الأمن .

نعم ، قف عند المكان الذي تشعر فيه أنك أضعت المفاتيح وغاب عنك النور وحصل لديك الالتباس .

كيف أستطيع أن أمسك بالإيمان الذي ليس ملتبساً بظلم حتى أحصِّل الأمن والهداية ؟

الإيمان ومذهب ابن آدم الأول

هل نستطيع أن نفهم أن الإيمان الذي لا يشوبه الظلم لا يمكن أن يكون إلا عن طريق مذهب ابن آدم الأول ؟

إن المجتمع الذي لا يمر بمذهب ابن آدم ليس غير راشد فحسب ؛ بل إن إيمانه لا يمكن إلا أن يكون ملتبساً بالظلم ، وهذا الالتباس هو ما يُفقده الأمن والهداية .

عن المجتمع الذي يصنعه القاتل هو مجتمع يلتبس بالظلم ، ولا يشعر بالأمن ، لأنه يكون قد سنَّ سنَّة ووضع قانوناً ليس فيه كلمة السواء ، وكيف تكون فيه كلمة السواء وقد خرق العهد وخرق المساواة وسنَّ الظلم ، ولهذا فإن المجتمع الذي لا يمرّ بابن آدم يكون مبنياً على قانون لا مساواة فيه ، قانون يأخذ بطريقة التسلسل ، يعطي الحق لصاحب القوة ، ومقدار المساواة فيه أنه يجعل للآخر الحق في أن يأخذ بالقوة كما أخذ الأول ، وبهذا لن ينقطع الظلم ، لأنه مبني على الخراب .

هذا هو التيه الذي وصل إليه العالم الإسلامي عندما نب طريق السواء الذي يؤدي إلى السلام .

هذا هو طريق الامتيازات التي تؤخذ بالقوة ، إنه الطريق الذي يؤدي إلى الغي المستمر .

إنني لا أستطيع أن أوضح هذه الأفكار بعبارة جيدة واضحة ، ولكنني أظن أنني ساهمت في دفعها إلى الأمام ، إلى شيء من الوضوح .

ينبغي أن نتذكر أننا إذا صنعنا قانوناً ما ، أيّ قانون كان ، فإنه ينبغي أن يطبق على الجميع ، علينا وعلى الآخرين ، ولهذا قال عيسى عليه السلام : « كل من اخذ بالسيف ، بالسيف يهلك » ، وهذا القانون الصحيح .

الفصل الثاني
الخوف من المعرفة

بدايات التفكير بـ (كن كابن آدم) :

منذ زمن بعيد كان يخطر لي أن أكتب لكتاب (مذهب ابن آدم الأول) جزءاً ثانياً ، ولعل الموضوع لم يكن لينتهي لو أنني كتبت جزءاً ثانياً في ذلك الوقت ، ولشعرت الآن أن علي أن أكتب جزءاً ثالثاً .

حين كتبت كتاب (مذهب ابن آدم الأول) قبل ثلاثين سنة ؛ كنت أشعر أنني لم أتمكن من إيضاح الموضوع ، وأن ذلك بعيد المنال ، ومع ذلك شعرت في حينها بضرورة أن أسجل الأفكار المتوافرة وأنشرها بسرعة ، ولعل الهاجس الذي كان يحثني على نشرها

على الرغم من علاّتها ، هو خوفي من أن أضيع تحت أرجل الفتن دون أن أسجل رأيي في هذا الموضوع ، ولأجل هذا عَقَـدْتُ فصـلاً في الكتاب بعنوان : (للإعلان وليس للإقناع) ، وفي عام 1990 دعيت إلى إمارة الشارقة في الخليج لأتحدث عن مذهب ابـن آدم الأول ، وهناك قال لي محمد سالم القاسمي ، وهو الشخص الذي دعاني : لقد آن الأوان كي تكتب من جديد كتابـاً لا يهـدف إلى الإعلان فقط ، بل للإقناع أيضاً .

ومع أن نفسي كانت تراودني لأكتب ، ولكن لم أكن لأبدأ في التنفيذ ، وقد كتبت بعض الأفكار ، ولكنها لم تصـل إلى حـد إخراج كتاب كامل في هذا الموضوع .

لقد طالبني الكثيرون ممن يعرفونني ، ويعرفون هاجسي ، بالكتابة في هذا الموضوع وبتنفيذ هذا الهاجس ، وكان منهم الكاتـب عبد الحليم أبو شقة ، وأختي ليلى ، وغيرهما كثير ، وكنت أشعر بصحة طلبهم ، ولكن لم يكن الأمر ليصل إلى درجة التنفيذ ، وذلك لعوائق التطلع إلى النضج والتكامل .

وفي عام 1995 ألحت عليَّ أختي ليلى أن أزورهم في كندا ، وكنت قبل ذلك قد رفضت طلبها مراراً ، ولكنني في هذه المـرّة وافقت كي لا أصدمها برفض طلبها وإلحاحها الشديد وغير العادي ، وكأنها أشعرتني أن الأمر سيبقى في قلبها إن رفضت الزيـارة ، فقبلت وأنا غير مقتنع بجدوى هذه الزيارة .

كانت ترى أن الفرصة مواتية ، وأنها قد لا تتوافر بسهولة مرّة أخرى ، إذ لا توجد موانع ملحة ومعقولـة تحـول دون تحقيـق الزيارة ، وكانت تقول لي : ربما تتمكن هناك من كتابة الجزء الثاني لكتاب (مذهب ابن آدم الأول) ، الذي طال عليـه الأمـد و لم يتحقق بعد .

وفي النهاية غادرت دمشق إلى كندا برفقتها ، ومررنا بعمّان وأقمنا فيها خمسة أيام كانت حافلة بالحديث عن مذهب ابـن آدم ، ثم أخذنا طريقنا إلى كندا التي بقيت فيها من تاريخ 7/4 إلى 1995/8/17م ، والتقينا الناس هناك ، وزرنا الولايات المتحدة خلال هذه المدة وعدنا منها ، وفي يوم الثلاثاء جمعت لي الأوراق وقالت : ينبغي أن تكتب ، فوعدتها أن أبدأ في صباح اليوم التالي ، ولكـنني لم أكن أدري كيف سأبدأ الكتابة .

استيقظت في الساعة الثالثة صباحاً وأنا أفكر في هذا الموضوع الإنساني الكبير ، محاولاً إبراز أهمية موقف ابن آدم الذي رفـض الدخول في مغامرة العنف .

ابن آدم ومشكلة الفساد

حين كتبت عن مذهب أن آدم ؛ اخترت هذا العنوان ، لأنني كنت أحسُّ أن هذا الموضوع هو مشكلة الإنسان من عهد ابن آدم الأول القديم في التاريخ ، إلى المستقبل الذي يمكن أن يخضع لمنظورنا .

كانت التهمة التي وجهت للإنسان حين استخلف في الأرض انه سَيُفْسِدُ فيها ويسفك الدماء ، ولو كان هناك ذنـب أكـبر في إدانة الإنسان لاتُّهم به .

لقد ذكروا الفساد وسفك الدماء ، و لم يذكروا عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وممارسته التوجه إلى المشرق والمغرب ، وهـذا دل على أن مشكلة الفساد وسفك الدماء هي أمُّ المشكلات ، وان التصورات التي تؤدى إلى ممارسة هذا الطقس الفظيع ؛ هي مـن أكـبر العيوب التي يمكن أن توجَّه للإنسان الإدانة عليها .

أشعر أن هذه التهمة التي وجهتها الملائكة للإنسان ، هي التهمة التي سيوجهها الناس في المستقبل البعيد ، وسيتساءلون : كيـف كان الناس يمارسون هذه الطقوس ؟، وسيتعجبون كثيراً ، وسيحمدون الله لأنهم تخلصوا من تقديم القرابين البشرية .

وكلما قرأت أو تذكرت عادات المكسيكيين في تقديم القرابين البشرية الكثيرة العدد ، وإخراج قلوبها وهي تنبض ، شعرت انـه لابد من دراسة هذا الموضوع ، وتحليل الإنسان الذي يحمل طبيعة مزدوجة قابلة للتزكية وقابلة للتدسية ، والمكسيكيون الذين نتحدث

عنهم كانوا يعيشون بعد نزول القرآن وختم النوبات ، ولذلك لابد من إعادة دراسة الوضع البشري الذي كان يعيش عليه المكسيكيون ، وأحداث التاريخ قابلة لأن يعاد فهمها وتفسيرها من جديد في كل عصر ، والإسلام الذي جاء به الأنبياء جميعاً سيُكتشف ، وسيعاد فهمه وتفسيره في كل عصر بما يتلاءم مع الأوضاع التاريخية لذلك العصر ، وسنفهم من جديد كيف كشف الإنسان النار والزراعة والكتابة .

إنني كلما تحدثت عن التهمة الموجهة للإنسان من الفساد وسفك الدماء ، وعن جواب الله تعالى عن هذه التهمة وهو أن الله يعلم في هذا الإنسان ما لم يعلمه المتَّهِمون ؛ أواجه بالسؤال التقليدي الذي يُضيع مغزى الحديث وأهمية الموضوع ، وهو قولهم : كيف علموا أن هذا المخلوق سيفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟

إنهم يبخعون الموضوع ، ويضيعون المغزى والهدف من الخبر ، وذلك حين يتناولون الجانب الذي لا يتصل بحلِّ المشكلة التي أراد الله أن يسوق الخبر من جله ، فهم لا يوجهون انتباههم إلى الكيفية التي نتخلص بها ن التهمة ، بل يتوجهون إلى السؤال عن الكيفية التي مكنت الملائكة من معرفة مستقبل الإنسان وفساده وسفكه للدماء ، مع أن الله تعالى لم يبحث هذا الأمر وإنما قال : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) [البقرة : 30/2] ، أعلم في هذا الإنسان شيئاً يختلف عن العلم الذي عندكم عنه ، ثم قال بعد ذلك مباشرة : (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) [البقرة : 31/2] .

من الذي سيكتب عن قوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ؟ لا بل من هم الذين سيكتبون عن علم آدم للأسماء ؟

إن أهمية هذا الموضوع تكمن في أن الله تعالى أشار بهذا إلى الميزة التي يمتاز بها آدم عن باقي المخلوقات ، ميزة التعلم بالرمز ، وبهذا سيتجاوز الإنسان الفساد وسفك الدماء .

بهذه الميزة العجيبة ، والأداة التي تحصد المعرفة يتمكن الإنسان من الارتقاء ، والتخلص من مشاكل الفساد وسفك الدماء ، ومن لا يتذوق معاني (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ) لا يدخل إلى عالم الإنسان وإمكاناته ، ولهذا لابد من بحث هذا الموضوع ، حتى ولو كمقدمة ومدخل لدراسة الإنسان .

إذن ، كيف سندخل إلى مذهب ابن آدم ونحن لا نملك أدوات البحث والمعرفة ؟ ونحن لا نعرف الإمكانيات المستقبلية البسيطة المرتبطة بتعلم آدم للأسماء ، وبالإمكانيات التي تحققت في الماضي بواسطة قدرة آدم على إطلاق الأسماء .

وكما نُواجَه اليوم بسؤالٍ عن الكيفية التي علمت الملائكة بها أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء ، كذلك واجه الأولون موضوع تعلم آدم للأسماء بمثل هذا الإحباط والتشويه ، حين بحثوا عن الأسماء التي تعلمها آدم ، وعن اللغة التي تعلم بها هذه الأسماء ، ولم يبحثوا في أن الأسماء المنطوقة أولاً ، والمكتوبة ثانياً هي الوسيلة الوحيدة لنقل الخبرات من دماغ إنسان إلى دماغ إنسان آخر ، وأنَّ الإنسان بهذه الوسيلة يتمكن من تزكية نفسه أو تدسيتها .

كيف نبدأ البحث ومن أين ؟ وماذا سنقول فيه ؟ وهل سنتمكن بالبحث والكتابة من تقريب الموضوع وتبسيطه ؟

أظن أننا يمكن أن نزيد في الموضوع ، مهما كانت هذه الزيادة ضئيلة ، وما ينبغي أن نبخس جهودنا مهما كانت جدواها قليلة ، فإذا علمنا الكيفية التي حدث بها التقدم البشري عبر النمو البطيء والكئيب والمضني ، والكم الهائل من البشر الذين ماتوا ، والذين عانوا الكثير من الآلام ، حتى حدث هذا التقدم البطيء ، بهذه المعرفة نستطيع أن نحدد اتجاهاتنا المستقبلية ، وما علينا أن نقو به في سبيل التقدم المنشود .

إنها لجهود مباركة ومقدسة مهما كانت ضئيلة ، ومن عرف ما بُذل في سبيل دفع المعرفة إلى الأمام ؛ لم يحقر جهوده مهما كانت ضئيلة ، وعلى هذا الأساس ستتواصل محاولات تسلق الحائط الأملس الذي علينا أن نتجاوزه .

أثر المناخ الثقافي في آلية تفكير الإنسان

الموضوع أولاً ليس موضوع تقديم أدلة للإقناع ، بل هو بحث في موقف الإنسان من الأدلة ، لمعرفة الكيفية التي يصنع بها هذا الموقف ، وتحديد الشروط التي ينبغي أن تتوفر في دليل ما ليكون مقبولاً في جوٍّ ثقافي ما ، والشروط التي ينبغي أن تتوفر في الإنسان ليصل إلى درجة القدرة على تأمل الدليل والتعامل معه . إنه بحث في ما يحدث داخل الإنسان .

إننا إن لم نمتلك تصوراً عن الوضع الإنساني الذي يحدد فهم الإنسان لموضوع ما أو قدرته على التعامل مع الأدلة ؛ فإن جهودنا التي نبذلها تكون عديمة الفائدة ، فلابد إذن من العودة إلى الخلف ، كي نتمكن من القفز إلى الأمام .

لقد مرّت البشرية بمراحل ينبغي أن نستحضرها ولا ننساها أو نغفل عنها ، ولكن ما هي شروط استحضارها ؟ ولماذا يكثر القرآن من الدعوة إلى الذكر والتذكير وعدم الوقوع في الغفلة ؟ وكم هي مرّات التذكير التي ينبغي أن نقوم بها حتى يبدأ التذكر ؟

يحدثنا القرآن بأن البشر يصلون إلى درجة من عدم القدرة على الفهم ، تجعلهم لا يسعون إلى الفهم ، وليس هذا فحسب ؛ بل يقاومون الفهم بكل جهودهم .

فالإنسان يصل إلى درجة لا يكون قابلاً معها للفهم ، وإنه لممتع أن نتبع الوضع الإنساني في القرآن ، وذلك حين يصف من أحواله أنه يرفض التأمل ، ويعجز عن الفهم والتذكر .

ينبغي أن ندرس هذه الحالات ، والحالات الأخرى التي تجعله يفهم الموضوع على عكسه ، ويرى السيئ حسناً ، والحسن سيئاً : (زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً) [فاطر : 8/35] ، ولا ينتفع من سمعه وبصره : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) [البقرة : 2/6-7] ، بل إنه يصل إلى درجة يقبل معها تقديم نفسه والآخرين قرابين في سبيل الحفاظ على ما في ذهنه .

إنني أقترح على الشباب الذين يدرسون الدراسات النفسيَّة والاجتماعيَّة ، ويتأملون في تاريخ الأفكار ، وفي علاقة الإنسان بها ، وينظرون إلى ما يقدمه القرآن في هذا الموضوع ؛ أن يجعلوا من هذه النقاط مشاريع أبحاث يقدمونه في أطروحاتهم ، ويتعمقون في دراستها وتوضيحها ، ويتعرفون مدى عمومية هذه الحالات في البشر والظروف التي ترافقها ، والصعوبات التي تحول دون كشفها في المجتمعات .

إن دراسة الناس للمجتمعات الأخرى غير مجتمعهم ، تمكنهم من فهم وإدراك أنّ الناس يرون الحسنة سيئة والسيئة حسنة ، ولكنهم ينزهون أنفسهم عن أن يصابوا بهذا المرض ، وقد بدأت الدراسات الإنسانية بالكشف عن هذه الحالات .

كيف نخدع المرء نفسه دون أن يشعر ؟ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ، قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) [البقرة : 2/11-12] ، (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً) [الكهف : 18/57] .

أمراض الجسد وأمراض الفكر والنفس

يقول بعضهم في التفريق بين أمراض الجسد وأمراض النفس : إن الإنسان حين يقرأ عن الأمراض الجسدية يخشى أن يكون مصاباً بها ، ولكنه حين يقرأ عن الأمراض النفسية لا يشعر بهذا الشعور ، وتكون نفسه مطمئنة إلى انه محصَّن ضدها .

ولازالت الدراسات التي تقام حول هذه القضايا تمشي على استيحاء ، وهي متهمة بالإغراق في الوهم والخيال ، وخاصة حين يتوجه الباحث إلى دراسة ثقافة مجتمعه ، فالناس قادرون على رؤية عيوب الآخرين ، ولكنهم لا يقدرون على رؤية عيوبهم هم ، وعيوبهم إما أنها غير قابلة للرؤية مطلقاً ، وإما أنها إذا رؤيت نُظر إليها على أنّها خفيفة وطفيفة وغير جديرة بالبحث والنقاش ، وبالمقابل يُنْظر إلى العيوب الصادرة عن الآخرين على أنها عظيمة كالجبال الساحقة الماحقة .

لقد كان بعض الصوفية أقدر من غيرهم على الدخول إلى هذا الحرم المحمي ، وكذلك كان بعض علماء النفس والمؤرخون الذين يدرسون الفكر ، وتاريخ ما بالأنفس ، ويقومون بمقارنة المجتمعات والثقافات ، ويزيد احتمال كشف العمى الفكري حين يرى الإنسان أهل ثقافتين تتهم كل واحدة منهما الأخرى بالجنون والفساد في الأرض ، وأن أهلها من أصحاب الجحيم ، وترى نفسها

الابنة الوحيدة للسماء ، فالذي يعيش ثقافة ثالثة ، ويرى نماذج هاتين الثقافتين أو الدينين أو المذهبَيْن ؛ يصير أكثر قدرة على كشف الأفكار والأوهام التي تحرك الآخرين ، ويرى كيف أن كلا الجماعتين المتنازعتين من نوع واحد ، وكلما زاد التوسع في هذه الدراسات ، واصطدم الباحث بعدد كبير من الثقافات المتنوعة ؛ كلما تمكن من كشف الخصائص العامة التي تحكم الثقافات ، والفروق الضئيلة الموجودة بينها .

وإذا تمكن دارس الإنسانيات من الوصول إلى هذه الرؤية ثم رجع إلى القرآن ؛ فإنه سيبصر مقدار الاهتمام الذي يعطيه القرآن لتشابه القلوب بين الثقافات التي ترى كل واحدة منها نفسها مقدسة ومتسامية ، بينما ترى الآخرين مُدَنَّسات حقيرة .

ويضرب القرآن المثل باليهود والنصارى فيقول : (وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) [المائدة : 18/5] ، وكذلك ينظر المسلم إليهما بتعالٍ كبير ، ومن شدة العلو الذي يمنحه لنفسه ، ولا يتمكن من أن يراهما شيئاً ، ولا يستطيع أن يفهم أن الآخرين ينظرون إليه بالمنظار نفسه ، دون أن يكون لديه أو لديه أي ميزان ومقياس .

بل انتم بشر !

إن القوميات والمذاهب الفكرية عاجزة عن رؤية نفسها ؛ فلابد من تقديم أمثلة كثيرة لمساعدتها على الرؤية بأن الآخرين بشر أيضاً .

لقد تفاخر إبليس ، واعتبر نفسه عالياً ، لأنه خلق من نار ، ولم يخلق من طين ، ورأى أن فهمه هذا من اكبر وأحسن وأعظم المذاهب الفكرية ، ولا زال البشر يتمتعون بحظ وافر من هذين الافتخارين الإبليسيين ، ولديهم كامل الاستعداد لبذل الأموال والأنفس في سبيل العِرق والمذهب ، وحين أقول المذهب أعني كل الانتماءات الرؤيوية ، بما فيها مختلف الأديان والأيديولوجيات ، فجميعها مذاهب فكرية .

وحين يتحدث القرآن عن الناس الذين قالوا : (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) ؛ يقول لهم : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) [المائدة : 18/5] ، هل يعذب المحب حبيبه ؟ أليس ما ينزل بالمسلمين الآن عذاب مهين ؟ ومع ذلك فنحن أبناؤه وأحباؤه رضي أم لم يرضَ ، وليس المهم أن ينزل علينا العذاب وفق قانون الله وسنته في خلقه ؛ بل المهم عو أن نبقى أبناءه الوحيدين ، ولذلك رد عليهم الله بأن بنوة الله ومحبته ليست بالادعاء :

والدعاوى إنْ لم تقيموا عليها بيّنات ؛ أبناؤها أدعياء

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) ، هذا هو الرد على الذين ادعوا بنوّة الله ومحبته لأنفسهم ، حين قالوا : (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) .

من الذي سيكتب تحت هذا العنوان : (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ) ؟ من الذي سيبين للناس أن السُّنة البشرية والقانون الإنساني لا يحابي احداً منهم ، وان الكلمات التي يتسمى بها الناس ما انزل الله بها من سلطان : (إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) [النجم : 23/53] .

إننا لا نزال ندَّعي أن غيرنا لا يمكن أن يدخل الجنة ، وأنّ الآخرين ليسوا على شيء ، ونبيع الجنة ونتوازعها فيما بيننا فقط ، وإن كنا نسخر من الذين باعوها من قبلنا ، فمن ذا الذي سيكتب في معنى : (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ) ؟ ومن ذا الذي سيفهم معنى (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) [النساء : 123/4] .

لقد فرّغت هذه الكلمات من معناها ، فكيف تُملأ بالمعنى من جديد ؟ وكيف تم تفريغها من قبل ؟ من الذي سيدرس هذا الموضوع ؟

إننا نفرغ الكلمات من معناها ونملؤها بمعانٍ نريدها ونهواها، وكشف هذا مفيد جداً ، ومن غير كشفه ستظل الكلمات تخدعنا ، ولكن خداع الكلمات وتفريغها وتحريفها وملأها وتوجيهها لا يغير قوانين الوجود ، ومهما قلنا : إن الله معنا ، سنجده يتخلى عنه

ويذيقنا بأس بعضنا بعضاً ، ولن يتغير قانون الله : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [فاطر : 43/35] ، ولكن نحن الذين سنتغير ، سيتغير مفهومنا عن الله وقوانينه وسننه ، ولن يمل الله حتى نملّ ، وسنقوم بالحروب حتى نملَّ ونشعر ونؤمن بأنها لا تخدم أصحابها ، بل تطلب منهم أثماناً باهظة ، وتطلب المزيد : (هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) [ق : 30/50] .

المسلمون وعِبَرُ التاريخ :

يصل الإنسان إلى درجة تجعله غير قادر على الفهم ؛ هذه المقولة صحيحة بشرطيها الزماني والمكاني ، ولكن الزمان سيرغمنا على قبول الحقائق طوعاً أو كرهاً ، وإذا لم نكفِ الأدلة التي سيقت لحصول الفهم فانتظر المستقبل ، لأن الأدلة ستأتي ، وإذا لم تتمكنوا انتم من الوصول إليها فإن أبناءكم أو أحفادكم سيصلون ، وسيخرج من أصلابهم من تكون له القدرة على الفهم والتغيير .

أين الشعراء ؟ أين الكتاب ؟ أين المتبصرون ظ الذين يتمكنون من رؤية الحدث وفهمه بسننه ، وتبليغه كما فهموه .

لقد ألغينا عِبر التاريخ وقوانين الأحداث ، ومن ألغى عِبر التاريخ فإنه سيُطَالب بدفع الثمن ، وسيظل يدفع الثمن إلى أن يملَّ ويضطر إلى قبول الأشياء التي ظل يرفضها طويلاً ، صاغراً مطأطئ الرأس : (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثُلاتُ) [الرعد : 6/13] ، (وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ، وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ، وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ، وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ، بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ، وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ، إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ، أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ، أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 38/25-45] .

لم يذكر القرآن أحكام المواريث إلا مرّة واحدة ، ولكن كم مرّة ذكر أحكام هلاك الأمم ونهوضها ؟ : (وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ، وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً) ، وكم مرّة ذكر فرعون ذي الأوتاد ؟ ذي الأهرامات التي تتحدى الأجيال : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ، يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود : 96/11-102] . (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ، فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، ... ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) [العنكبوت : 38/29-43] .

كيف نعيد الحياة إلى موات التاريخ والأحداث ؟

كم يبدئ القرآن ويعيد أمثلة التاريخ وأحداثه التي حدثت في الماضي ، وكم يحث على انتظار المزيد ليتجلى القانون وسنة الله ؟

كيف فرغنا هذه الآيات الكثيرة من المعنى ؟ وكيف صرنا نمرّ عليها صماً وعمياناً ؟

هل نستطيع إعادة الاهتمام بأحداث التاريخ ؟ وهل نستطيع أن نستخرج الحالات النفسية التي كان عليها الناس من خلال القصص القرآنية ؟ وهل نستطيع أن نعرف المصائب التي حدثت لهم ، والقوانين التي تربط الأحوال النفسية بتلك العواقب ؟

ما هو التاريخ ؟ وما هو الحدث ؟ ما أركان الحدث التاريخي ، وكيف نحلله ؟ وما هو أصغر جزء يتركب منه التاريخ بحيث نستطيع أن نعزله لنقول عنه إنه حدث تاريخي ؟

كيف يبدأ الحدث التاريخي ، وكيف يتطور ، وما هو مصيره ومآله وعاقبته ، وما علاقة ذلك كله بقانون التغيير ؟ (إِنَّ اللَّـهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الرعد : 11/13] ، هذا هو قانون التاريخ ، وهو يدل على أن ما بالأنفس هو مصدر الهلاك والنجاة .

إن ما بالأنفس هو من صنعهم ، وما بهم من عواقب هو من صنع الله : (فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) [العنكبوت : 40/29] ، و (كُلاًّ هَدَيْنَا) [الأنعام : 84/6] ، ومنهم من استحب العمى على الهدى .

والتاريخ كما يقول ابن خلدون : « في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق » .

كيف نحلل التاريخ وأحداثه ، وكيف نفهمها ؟ كيف سنفهم أيام الله ونتذكرها ؟ (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) [إبراهيم : 5/14] .

الإله وتصوراتنا عنه :

الحدث محكوم بخبايا النفس ، فدعني أخبرك أن ما بنفسك هو إلهك ودينك ، وأن أفكارك هي إلهك ودينك ، فإذا قلنا : إن أفكارك لن تغن عنك شيئاً ، فكأننا قلنا : إن إلهك لم يغن عنك شيئاً : (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) [هود : 101/11] ، (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ، إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) [الفرقان : 41/25-42] .

لو قلنا : ما أغنت عنهم أفكارهم شيئاً ، أو : إن كاد ليضلنا عن أفكارنا ؛ لما تَغَيّرَ من الموضوع شيء .

إن إلهك هو تصورك عن إلهك ، وهو الكيفية التي تفهمه بها ، وتصورك عن تصرفاته ومقاييسه وموازينه .

إننا نعظم الله كثيراً ، ولكننا في واقع الأمر نعظم أفكارنا عنه ونتمسك بها .

لقد كان الذين يناصبون النبي العداء ؛ يثقون بأفكارهم ويقولون : (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ، أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً) [الفرقان : 42-43] ، ولكنك حين تثق بأفكارك دون أن تربطها بالعواقب ؛ فإن إيمانك بالله يتساوى بالإيمان بالصنم ، وليست العبرة بالأسماء ؛ بل بالمحتوى ، وبالتصور الذي تحمله ، سواء أكان عن الله أم الصنم : (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ) [فصلت : 23/41] ، (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [آل عمران : 154/3] .

إن ما بنفسك عن إلهك ، وعن التاريخ هو الذي يضلك ويهديك ، وإذا تعاملت مع سنن التاريخ وقوانين الله ؛ فستحصل على العواقب سواء أكنت تؤمن بالله أو بالصنم أو بقوانين الكون : (كُلاًّ نُمِدُّ هَؤلاء وهؤلاء) أي الذين يعملون للدنيا والذين يعملون للآخرة ، من كان يريد العاجلة ، ومن كان يريد الآخرة .

والمجتمع الذي يعمل وفق سنن الله ، فإن هذه السنن تنجيه في العاقبة ، في الآخرة ، فعمله هو الذي ينجيه في الدنيا ، ولكن الشرائع التي وضعها الله للنجاة في اليوم الآخر ؛ هي التي تبني الدنيا أيضاً ، وارجع إن شئت إلى الأعمال التي ترفع درجاتك في الآخرة ، وستجدها هي التي تبني دنياك على أحسن وجه .

الواقع وما بالأنفس :

إن الصور الذهنية التي نعطيها للأسماء والرموز والأفكار التي نحملها هي التي تحكمنا وتشكل مفاهيمنا ومعتقداتنا ، وبكلمة واحد مختصرة أقول : إن ما بالأنفس هو الذي يصنع الوقائع .

ولكن ما هو الشيء الذي بالأنفس ؟ كيف يحل بالأنفس ، وكيف نتقبله ؟وهل يحدث ذلك تلقائياً ؟

ما هي أركان التغيير ؟ أين مكانه ؟ من الذي يغير ، وماذا يغير ؟ ماذا يرفع ، وماذا يصنع ؟ وعلى أي أساس يرفع ويضع ؟

كيف يصلح الإنسان ، وكيف يفسد ؟ كيف يزكي نفسه ، وكيف يدسيها ؟ كيف يصل إلى الهدى أو الضلال ؟

ما هو المرجع في الفساد والصلاح ، في الخير والشر ، في النافع والضار ، في الهداية والضلال ؟

إن الفساد والصلاح يستويان إن لم يُنظر إلى العواقب : (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، ولا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ) [فاطر : 35/19-21] .

ما هي درجات الحرارة التي يتحملها الإنسان ، ويعيش فيها بارتياح ؟ ما هي درجات الحرارة التي يهلك ويتجمد فيها المجتمع أو يحترق ؟

ما هي العلاقات الصالحة والفاسدة في المجتمع ؟ كيف نعمى عن هذه العلاقات ، ولا نقدر على إبصارها ؟ ما سبب هذا العجز ، وما سبب تنزيه الذات ، وكيف يتزين سوء العمل فيتحول إلى حُسْنٍ في نظرنا ؟ لماذا إذا قام الإنسان بالعمل بنفسه ؛ يراه حسناً ومعقولاً ومقبولاً وجميلاً ، وإذا عمله الآخر يصير ظلماً ودنساً وحقارة وجنوناً ، ولا يصلح العالم إلا بإزالته وتدميره ؟

ما ميزان الحسن والقبح ؟ هل صورنا الذهنية هي ميزان الحسن والقبح ؟ وإذا كانت صورنا هي الميزان ، فإن للآخر صوره الذهنية ، ويعتبرها مرجعاً له ، وإذا استوى الميزانان ، تساوى الوزن فيهما ، وبمقدار ما أقدس نفسي وأدنس الآخر ، فإنه يصدق أيضاً أن أكون مدنساً في نظر الآخر .

هل نملك القدرة على أن نتأمل هذا الموضوع ؟

الأمر ليس بحسب أهوائنا أو أهواء الآخرين ، بل هو على حسب سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير ، والتي لا يتحول بموجبها الحسن إلى قبح ، والقبح إلى حسن ، لا تستوي الحسنة ولا السيئة في ميزان الله ، بينما تستوي في موازيننا الحسنة والسيئة . بل وتتحول السيئة إلى حسنة (زين له سوء عمله فرآه حسناً) وكذلك العكس .

إن أهواءنا ليست معصومة ، وكذلك أهواء الآخرين ، والبشر جميعاً خطاؤن ، وخير الخطائين هم الذين ينظرون إلى عواقب أهوائهم ، فيكشفون أخطاءهم ويغيرونها .

أيها الإنسان ! إنك لا تستطيع أن ترى وجهك بعينيك إلا إذا استعنت بمرآة عاكسة ، ولا تستطيع أن ترى قفاك إلا بمرآتين .

أيها الإنسان لا تثق بفهمك ، إذا طالما خدع هذا الفاسق الناس ، بل ثق بالتاريخ وعواقب الأمور ، لا تثق ببصرك ، فإن بصرك لا يحول السراب ماءً .

لقد ذكر القرآن في سورة الفرقان أحداثاً تاريخية عديدة ، فذكر موسى وهارون وفرعون ، وتحدث عن عاد وثمود وأصحاب الرس ، والقرون (الأقوام) الكثيرة التي كانت بين ذلك ، ثم قال : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ، إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ، أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ، أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 25/41-45] .

في هذه القصص يذكر القرآن على أحوال الماضين ، وكيف انه لم يكن بمقدورهم السماع والأبصار والتعقل ، وكيف أن الذين يتصفون بهذه الأوصاف هم كالأنعام ؛ بل هم أضلُّ ، (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً) [الفرقان : 25/41] .

إن هدفي من هذا السياق تلمس الحالة الإنسانية وطبيعة اختلاف الفهم في تفسير الوجود ، فتفسير الوجود قد يتناقض مع تفسير وفهم مجتمع آخر إلى درجة تُفْقِدُ الطرفين القدرة على التفاهم والتواصل ، والمشكلة هي أن الإنسان قد يزين له سوء عمله فيراه حسناً ، ولكن كيف يفهم الإنسان انه على خطأ أو على صواب ؟؟!

مرجعية العواقب :

إن النظر في العواقب الناتجة عن كل حدث هو الذي يؤدي بالإنسان إلى فهم ما إذا كان على صواب وحق أو على خطأ وباطل ، ولكل حدث طبيعته الخاصة ونوعه ، فمنها المعجل ومنها المؤجل ، واجل الأفراد ليس كأجل الأمم و (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) [يونس : 49/10] ، والعواقب قد لا تظهر إلا بعد مئات السنين ، وقد يظهر بعضها بعد عشرات السنين ، ولذلك لابد من فهم هذه المواضيع بأمثلة واضحة ، والمثال الذي أريد أن أضربه هو أن الناس كما يخطئون في تفسير حركة الأفلاك ، كذلك يخطئون في تفسير أن أضربه هو أن الناس كما يخطئون في تفسير حركة الأفلاك ، كذلك يخطئون في تفسير حركة الأفلاك وسيرها في المجتمعات ، ويصبحون غير قادرين على تمييز الخطأ من الصواب ، ويتمسكون بالأفكار الخاطئة ، ويسخرون من الأفكار الصحيحة ، ويستهزئون بأفكار الرسل والأنبياء ؛ قال تعالى : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) [الفرقان : 44/25] ، وبعد هذه الآية مباشرة قال : (أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 45/25] .

إن حركة الظل وسكونه ، ودلالة الشمس على هذه الحركة موضوع جدير بالتأمل والتعمق . كيف يمكن فهم الحركة ، وكيف يمكن حدوث الاشتباه في حركة الأجسام وسكونها ؟

كنت أضرب مثلاً لفهم هذا الموضوع الجلي والخفي بمثل آخر وهو أن الإنسان أحياناً يكون راكباً في حافلة أو قطار ، وتأتيه لحظات يلتبس عليه فهم أي المركبين أو القطارين هو المتحرك ، وكنت أسأل الناس العاديين عما إذا حدث معهم هذا الأمر أحياناً ، فيجيبونني بالإيجاب ، فأسألهم كيف كنتم تميزون بين الساكن والمتحرك ؟ فيقول بعضهم : أنظر إلى الأرض ، ويقول آخر : أنظر إلى العمود المغروس في الأرض . الشاهد هنا هو أن الإنسان حين يلتبس عليه أمر الحركة ويشك في أن المتحرك هو أو الآخر ؛ يلجأ إلى ثالث خارج عنهما ليتمكن من تحديد الساكن من المتحرك ، وكذلك حين يلتبس الحسن والقبيح ، والصالح والفاسد ، والصواب والخطأ ؛ في هذه الحالة يكون التنازع قائماً بين الفرقاء ، ويظن كلٌ منهم انه هو المصيب القابض على اليقين ، ولكن من هو الثالث الذي يزيل الالتباس في هذا الموضوع ؟ إنه العواقب والمآلات والنتائج ومصير الأمور ، إنه التاريخ والهلاك أو النجاح الذي يظهر كنتيجة لأفكار الأمم وأعمالها .

كم هو سهل وبسيط ، وكم هو صعب ومعقد هذا الموضوع ؟

عن هذا الموضوع ليخفى على الفلسفة العالمية المعاصرة في نهاية القرن العشرين ، وإن جولة سريعة على منتجات الفلسفة الحديثة تجعلنا ندرك أننا قد وصلنا إلى جدار مسدود من العجز عن إدراك الحق والباطل والصواب والخطأ ، والحسن والقبيح .

العدمية في الفلسفة الحديثة :

إن عدم فهم هذا الموضوع ، موضوع المآلات والعواقب ، هو الذي كان السبب في إعلانهم موت الله وموت الحقيقة وموت التعالي ، لأن فلاسفة القرن العشرين كشفوا عن أن ما كانوا يعتقدون انه الحق والإلهي المتعالي ؛ ليس حقاً ولا إلهياً ولا متعالياً ، بل هو باطل وشيطاني وسافل .

استمع إلى فوكو الذي يلخص فلسفة نيتشة ويشرحها إذ يقول : « التاريخ بالنسبة إلى نيتشة ... هو وقائع عداوات دنيئة ، وتفسيرات مفروضة بالإكراه ، ونيات منحرفة ، وروايات مجيدة تستر وراءها أحقر الغايات ... التاريخ مصنوع من حوادث وشتات وأحداث عرضية وأكاذيب ، ولست له أية علاقة بتفتح الحقيقة ... إن تاريخ الحقيقة هو تاريخ خطأ وتعسف ... وإذا كانت الأشياء الوحيدة التي يمكن اعتبارها إلهية هي الخطأ والضلال والكذب !!.. ماذا سيحصل إذا اتضح أن الله نفسه (الحقيقة) هي كذبتنا الإقدام عهداً ؟ ... » [ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية ، ص 100] .

حين كنت أقول للناس : إن التاريخ هو مصدر معرفة الحق ، كانوا يواجهونني ويقولون : كيف تقول : إن التاريخ هو مصدر معرفة الحق ، والتاريخ كله أكاذيب وتشويهات وتحريفات ؟ فأقول لهم : أيها الأحبة ! ليس التاريخ هو كما كتبه الاتحاد السوفييتي عن

نفسه ، ولكن التاريخ هو مآل الاتحاد السوفييتي ومصيره . عن هذا المآل والمصير لا يمكن تكذيبه ، إنه ينسف الأكاذيب ويكشف الزيف ، التاريخ ليس ما كتبه المحبون ، ولا ما كتبه المبغضون . التاريخ لا يضيع هدفه ، ولا يحيد عن مساره ، ولا يخطئ غايته ، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [يوسف : 21/12] .

إن تاريخ أمريكا ليس هو ما يكتبه الأمريكيون عن أنفسهم ، ولا ما يكتبه الذين يكرهونهم أو يحبونهم ؛ بل هو المصير الذي سيؤول حال أمريكا في التاريخ ، والنظرة التي ينظر بها الذي سيأتون بعد خمسة مئة عام إلى النتيجة التي آل إليها وضع أمريكا والأمريكيين .

والحضارة الفرعونية مثل على ذلك ، فماذا قال المؤرخون عن الفراعنة الذين سخروا الناس لبناء الأهرامات ، لتكون مثوىً لشخص واحدٍ أو شخصين ؟ وماذا قالوا عن بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام في تلك الأيام ، ليكون مثابة للناس وأمناً ؟

أين بنو أمية ؟ أين العباسيون ؟ أين العثمانيون ؟

إن التاريخ ليس كما فهمه نيتشة بأنه الكذبة الأقدم عهداً ، بل هو المكان والزمان الذي تجلت فيه عظمة الله بديع السماوات والأرض ، الذي أحسن كل شيء خلقه .

إن الفلاسفة الذين لا يرون في الخلق حكمة ، ولا يرون التاريخ إلا لعيناً يتبع لعيناً ، وبؤساً متتابعاً ؛ لا يستطيعون أن يروا أي حسنة في العالم ، إنهم لا يرون إلا الفساد ، ولا يبصرون إلا لحظة آنية ، وتعمى أعينهم عن كل شيء إلا الفساد وسفك الدماء ، ومن كان شانه ألا يرى تطوراً وزيادة وتحسناً في الخلق ؛ لا يمكن إلا أن يكون متشائماً ، ويستحيل أن يكون جاداً في سعيه للإصلاح .

إن اليأس مقرون بالكفر ، لأنه محبط للعمل مانع من الحركة ، فشوبنهور المتشائم لا يمكنه أن يرى في الخلق جمالاً وحسناً وتقدماً . والالتباس في هذه المواضيع يجعل الناس حيارى يائسين غير جادين في التغلب على الفساد . إنهم لا يرون في الإنسان إلا السنتين الأوليين من طفولته ، اللتين يقذر فيهما نفسه ، ويعجز عن أن يتخلص من أقذاره ، إنهم لا يرون مستقبله وشبابه وسعيه ، ولا يعلمون أن تاريخه المستقبلي أكبر امتداداً من حياته الطفولية ، والإنسان لازال في عهد طفولته : (كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) [عبس : 23/80] ، لابد من فهم هذا ، وقد يسأل سائل : ما طائل هذا الكلام ؟ لا حرج في هذا الكلام ، ولكني أرى أن له طائل ، ولعل بعضنا لا يفهم في أول الأمر أن لهذا الكلام ثماراً كبيرة ، وقد مررت بهذه المراحل ، واعلم صعوبات الطرق ، وأعلم فوق ذلك أنه من الممكن أن أكون مخطئاً ، فأرى السراب وأحسبه ماءً ، ولكن مع ذلك أشعر أن العالم في تقدم ، وإذا تأخرت أنا ، فإن العالم لا يتوقف ، وإذا كنت زبداً فسأذهب جفاءً وغير مأسوف علي ، وإذا كان فيما أقوله نفع وفائدة فسيمكث حتى يأتي ما هو أكثر نفعاً ، وأكثر وضوحاً ، وأشد تألقاً ، وأسهل فهماً ، وأيسر تقبلاً ، وأعتقد أنه لو كان لدي علم أكثر ؛ لكان كلامي أكثر إيجازاً ، وأمثلتي أكثر وضوحاً وأكبر تأثيراً وأسرع تغييراً .

دراسة التاريخ في المدة الطويلة :

لقد بدأ المؤرخون الآن يتلمسون هذا الاتجاه ، ومدرسة الحوليات ابتكرت دراسة التاريخ في المدّة أو الفترة الطويلة ، وقد شعر رواد هذه المدرسة أن الأحكام لا تكون صائبة إلا إذا كانت معتمدة على الأزمنة الطويلة أي العواقب التي تستمر طويلاً أو تأتي متأخرة ، ولهذا يشعرون أن حكمهم على الأحداث يكون اكثر عمقاً وموضوعية كلما ابتعدنا عنها في الزمان ، وهذا الاتجاه في دراسة التاريخ يعد تقدماً نحو الأسلوب النبوي الديني ، نحو أسلوب الأنبياء الذين كانت لهم قدرة على الصبر على مبادئهم حين كان الناس يسخرون منهم .

لقد ضرب عيسى عليه السلام مثلاً على ذلك في الإنجيل حين تحدث عن الأنبياء الكذبة الذين يأتون بلباس الحملان وهم في الداخل ذئاب خاطفة ، فسألوه : يا معلم : كيف نميزهم ؟ فقال لهم بجملة واحدة قصيرة ولكنها طويلة المغزى وعميقة جداً ، أجابهم قائلاً : « من ثمارهم تعرفونهم ، هل يمكن أن تجني من الشوك عنباً ، ومن الحسك تيناً » .

إنه المنهج التاريخي ، إنه الميزان الحساس الدقيق ، وأياً كانت صعوبته ؛ فإنه هو المرجع ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى في سورة الرعد ، فبعد أن ذكر قانون التغيير في التاريخ ، وأنه يبدأ مما بالأنفس ، وما بالأنفس يأتي من تأمل الأحداث ، والأحداث بعواقبها وخواتيمها ، بعد ذلك ذكر أن الماء الذي ينزل من السماء يحتوي على الحياة والنماء كما يحتوي على الزبد والرغوة فقال : (أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ) ثم ربط البيان الإلهي بين هذا الزبد وبين الحق والباطل ، والصحيح والخاطئ ، والضار والنافع في مسيرة التاريخ فقال : (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ) [الرعد : 17/13] ، (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) [العنكبوت : 43/29] .

وفي الإنجيل أن عيسى عليه السلام كان يكلم الناس بأمثال ، و لم يكن يكلمهم بغير أمثال ، والتعلم كله يكون بالأمثال ، والأقدر على استحضار الأمثال الواضحة هو الأقدر على التعليم ، والمعلم القدير هو الذي يقدم العلم للناس في أمثلة تجعلهم يقتربون من الموضوع أكثر ، ولا يقل تبسيط العلم عن اكتشافه ، وتبسيط العلم هو فن من أعظم الفنون الجميلة ، ولا يقدره إلا من يعانيه .

ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً

إن المثل الذي أتناوله مراراً ، واكثر من اللف والدوران حوله هو مثل الشمس : (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 45/25] . الشمس دليل على إمكان حدوث الاشتباه في أوضح الواضحات ، فإذا كان يشتبه علينا حركة حافلتين متجاورتين ؛ فإن الاشتباه في حركة الشمس في التاريخ كان عجيباً ، فالشمس التي يضرب بها المثل في الوضوح والظهور ؛ كانت حركتها ملتبسة التباساً شديداً على جميع الناس من أيام بدء الخلق الإنسان إلى أيام قريبة حين كشف الناس أن الشمس تدور حولهم ، وأنهم هم الذين يدورون حولها .

كم كان ما اعتقده الناس من أن الشمس تدور حول الأرض ، وقد بلغ هذا الرسوخ في الاعتقاد بهذه الظاهرة درجة أنهم كانوا مستعدين لأن يموتوا وينزلوا الموت بالآخرين في سبيل بقاء هذه البدهية الواضحة الجلية ، ولكنها في الحقيقة كانت خفية أشد الخفاء .

أليس عبرة عظيمة أن تكون الشمس الساطعة التي تمد الأرض بالنور والضياء والدفء موضع اشتباه وخطأ في التفسير من الناس جميعاً ؟ أليست الشمس الدليل الأسطع على الخطأ في تفسير الحركة ؟

لقد سجل التاريخ أحداث كشف هذا الخطأ العظيم بأسلوب أحدث ضجة في العالم كله ، وذلك منذ عهد ليس بالبعيد ، فالأحداث كلها سجلت بدقة في محاكمات ودفاعات وردود وهجمات وإدانات وسخريات .

(أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 45/25] ، لقد جعل الشمس دليلاً على هذا الامتداد والتقلص ، دليلاً على خفاء حركة الأفلاك .

كم كان صعباً أن يقلب الناس تصوراتهم عن هذه الحركة ويغيروا ظنهم أو يقينهم إلى العكس تماماً ؟ فإذا كانت الشمس التي هي مضرب المثل في الوضوح والظهور بهذه الدرجة من الخفاء والاشتباه ؛ فما هي الأمور التي يمكن أن تكون أوضح منها حتى ندعي أننا لا يمكن أن نقع في الخطأ في فهمها وتفسيرها ؟

ألا يمكن أن تعتبر من هذه الحادثة الكونية فنؤمن بقوله تعالى : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (في التفسير) فلا نبيح الإكراه في فرض التفاسير والآراء والفهوم مهما كانت واضحة وجلية ، لأنها مهما كانت واضحة وجلية ؛ فلن تكون في وضوح وجلاء ظاهرة الشمس ؟

إن من رحمة الله بالناس ، ورحمتهم ببعض ؛ أن تفاهموا أو تفاهم بعضهم على أنه لا مانع من بقاء التفاسير المختلفة ، ولا يحمل البشر بالقوة والإكراه على قبول تفسير معين ، لأن الشمس دليل على الوقوع في التفسير الخاطئ ، واتفقوا على أن يكون للتفسير

الخاطئ الحماية والحق في الحياة ، لأن عدم حماية التفسير الخاطئ ، يفقد الحماية للتفسير الصحيح أيضاً ، فحين تقبل حماية الخطأ تكون جعلت لنفسك الحماية والحق في الحياة ؛ لأن الآخر ينظر إليك على انك مخطئ أيضاً .

كم من الزمن سنحتاج لفهم هذا الموضوع ؟ وهو أنك لن تكون محمياً إلا إذا حميت الآخر وأعطيت له نفس الحق الذي تعطيه لنفسك .

الواقع والصور الذهنية

إن مشاعرنا وأهواءنا وصورنا الذهنية تصنع مواقفنا من الأحداث والأشياء ، ولكن هذه الصور والأفكار والأهواء التي في نفوسنا لا تغير حقائق الأشياء والأحداث ، بل تبقى كما هي ، ولو كانت الأشياء تتغير بتغير أفكارنا لما أمكن للكون أن يبقى ، نعم (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) [المؤمنون : 71/23] .

لو كان الأمر كما ظن الناس لفسد نظام الكون ، ولترتب على ذلك أن تدور الأجرام البعيدة بملايين السنين الضوئية حولنا خلال أبع وعشرين ساعة .

وكما كان أمر حركة الأرض والشمس مشتبهاً على الناس ؛ فإن علاقة الحكام والسياسيين بأنظمة وقوانين سير المجتمعات تشتبه عليهم أيضاً ، فهم يظنون أن حركة المجتمعات إنما يصنعها الحكام السياسيون ، ويظنون أن الشعوب بمن فيها من المفكرين وأهل العلم لا تأثير لهم على هذه الظاهرة .

ولكن الفرق بين فهمنا الخاطئ لتفسير حركة الشمس ، وفهمنا الخاطئ لتفسير حركة التاريخ ، هو أن الشمس لا تتأثر مطلقاً بأفكارنا نحن ، إذ ليس لديها مشاعر وعواطف نحونا ، فهي لا تغضب ولا تفرح بأفكارنا نحوها ، ولكن السياسيين يختلفون عن الشمس والكواكب ، فهم يتأثرون بأفكارنا ويغضبون أو يفرحون بسببها ، بل إن في العالم سياسيين يتركون السياسة استجابة لأفكار وآراء شعوبهم ، هذه الأفكار والآراء التي يمكن أن تتغير وتتبدل إما إلى أعلى أو إلى أسفل ، وإما إلى الأمام أو إلى الخلف ، إنها قابلة للتغيير ، والذي يفهم التاريخ وقانون سيره ؛ هو الذي يستطيع أن يمسك دفة توجيه العالم ، فهل نستطيع أن نكشف قانون مذهب ابن آدم ؟ وهل نستطيع أن ندرك الصعوبات التي تواجه ابن آدم الذي يتحدى بالمسلم ، يتحدى الآخر الذي يتحداه بالحرب ؟

إنه عالم مختلف جداً ، مختلف بكل جزئياته وكلياته ، إنه عالم يدور الصراع فيه بين الفهم والقهر ، ولكن القهر في عالم الفهم لا يجدي . هل نستطيع أن نفهم أن عالم القهر ليس كعالم الفهم ؟

حين يعجز عالم الفهم يبدأ عالم القهر ، عالم الإكراه ، فهما عالمان مختلفان تماماً ؛ عالم الفهم عالم جديد جداً في دنيا الكائنات ، وهم لم يتكيفوا معه بعد ، إنه تطور ، إنه خروج من عالم الأنعام إلى عالم الإنسان ، إلى عالم حمل الأمانة ، إلى عالم الرقي ، إلى عالم الإبداع ، إلى عالم التفاهم بالرموز ، إلى عالم يمكن فيه نقل العواقب بالرموز ، ويستطيع الناس فيه أن يتفاهموا بالكلمات لا باللّكمات ، إلى عالم يلتزم فيه الناس بالكلمات : (وأَلْزَمَهُم كَلِمةَ التَّقْوى) [الفتح : 26/48] ، فالتزموا كلمة التقوى .

بناء الحياة الراشدة

ما هي الحياة الراشدة ؟ كيف نعثر عليها ؟ كيف نكتشفها ونتعرف عليها ؟ ما هي الأرضية الصلبة للانطلاق نحو الرشد ؟ هل يمكن أن أخدعك وأجرك إليها ؟ هل يمكن أن أسحرك لأدخلك إلى عالم قريب وبعيد جداً ؟

كنت أبحث مع بنات أختي بعض المواضيع ، فشعرت أنهنَّ أدركن الفرق بين الاقتناع والإقناع ، وأن درجة الإقناع درجة متقدمة جداً ، وانك حين تطرح موضوعك الذي تظن انك فهمته تشعر أنك عاجز تماماً عن نقله إلى الآخرين ، فما هي العوائق دون ذلك ؟ ما هي طبيعة فهم الإنسان ؟ وما هي العوائق التي تمنع الفهم ؟ هل المشكلة في الآخر الذي لا يفهم ، أم هي عند الأنا الذي لا يتمكن من الإفهام ؟ أين النقص ، أين الخلل ؟

من السهل علينا أن ندين الآخر ، ونعذر الأنا ، ولكن العودة إلى الأنا ، إلى الذات ، إلى النفس هو منهج القرآن ، وتغيير ما بالأنفس هو وظيفة الأقوام ، وينبغي ألا ننكر هذا الأمر ، وعلينا أن نظل متمسكين بهذا المبدأ : التغيير من عندنا ، وهو وظيفتنا ، وإذا عجزنا ينبغي أن نتعرف بالعجز من غير أن ننكر الوظيفة المناطة بنا . لقد خلق الله الكون مسخراً للإنسان ، وإذا لم يتسخر فهذا لا يعني انه غير قابل للتسخير ، بل يعني أننا مقصرون . علينا ألا نضيع هذه القاعدة لأن تضييعها يؤدي إلى فساد في الوجود وسفك للدماء . علينا ألاّ نشوه هذه العلاقة ، وما ينبغي أن يكون هناك حرج من الاعتراف بالقصور والنقص شيئاً فشيئاً بدأب ويقين ، وهذا هو الموقف السليم ، لا موقف ذاك الذي يتهم الوجود بأنه غير قابل للتسخير . وحتى قوله تعالى : (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَداً) [الكهف : 57/18] ، ينبغي أن نفهمه بظروفه ، لا بأن ما بأنفسهم غير قابل للتغيير ، فتأمل هذا ، وتمسك به ، فإنه يجعلك على الموقف السليم الذي يحثنا على أنت نكمل النقص الذي يعترينا ، لا أن نقعد ونقول : الأمر مستحيل . قد يكون مستحيلاً ضمن إمكانياتنا الحالية ، ولكن الإمكانيات ليست معاقة وثابتة ، بل هي قابلة للنمو والاكتمال .

هذا الإيمان الراسخ هو الذي يجعلني أسعى للوصول إلى ما هو أقرب للرشد ، ولتوفير إمكانيات الفهم ، ولا يساعد التشويه والاتهام على حل المشكلات ، ولابد من العودة إلى الاعتراف بالنقص الذي نعانيه ، والذي هو قابل للإتمام والإكمال .

نعود إلى سؤالنا الأول : ما هي الحياة الراشدة ؟ وما هي الأرضية التي سننطلق منها لبناء الحياة الراشدة .

إنني أحاول أن أبيّن أن الأرضية الأساسية هي الاعتراف بإمكان التقدم إلى الحياة الراشدة ، والنظر إلى الكون على أنه قابل للترشيد نحو الأفضل دائماً ، وقانون الزبد يرشد إلى هذا .

هذا الموقف هو موقف عقائدي ووجودي ، إذ إنني أفهم الوجود على انه لم يُخلق وينته خلقه بعد ، وهو ليس معرضاً للحتّ والتعرية والانقراض ، بل هو لا يزال يخلق ويزداد فيه ، ومستقبله خير من ماضيه ، فالله سبحانه وتعالى لازال يزيد في الخلق ، والقانون في ذلك هو أن الزبد يذهب ويزول ، والنافع يمكث ويترسخ .

هذا هو القانون الذي سار عليه الكون منذ ملايين السنين ، من عهد الكائنات البدائية التي لم تزل إمكاناتها تزداد إلى أن خُلق الإنسان العجيب المكرم : (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون : 14/23] الذي يزيد في خلقه ، وتزداد مخلوقاته كفاءة وتسخيراً وإرشاداً ، ولا حرج في أن يلتبس هذا الأمر على كثير من الجن والأنس : (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) [الجن : 10/72] ، وإذا كان فينا من يتشكك في هذا الأمر ؛ فإنه لا يوجد من لا يعتقد أن الله يريد بنا اليسر لا العسر : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً) [الجن : 1/72-2] ، وإذا كنت في شك من هذا فتوقف وتأمل الوجود واكشف قانونه ، وتأمل كيف بدأ الخلق ، وتأمل تحسن الخلق خلال المدة الطويلة في الزمن الماضي ، وكيف أن الإنسان كان يأكل لحم الإنسان ، وإذا لم يأتك خبر ذلك فارجع إلى التاريخ ، لأنك إن فقدت هذا المبدأ الأول والأساسي فإنك ستظل متشائماً يائساً ، وسوف لن تنشط للعمل الجاد على تحسين الكون بنفسية فياضة متفائلة .

تأمل منطلقاتك ، فإذا أمكنك أن تعرف التقدم الذي حصل في الماضي ، فإنك تستطيع أن تتصور إمكانيات التحسن في المستقبل ، لأنك تتمكن من تصور النشأة الآخرة ، لأن لهذه النشأة الأولى نشأة آخرة متقدمة في المستقبل ، في هذه الدنيا ، نعم في هذه الدنيا .

إن الانتقال إلى بحوث أخرى دون التمكن من هذه المبادئ يجعل البناء خراباً أو على شفا جرف هار .

لقد تعلم الناس كيف يعطون الصحة للأجساد ، وذلك بمعرفة قانون الأجساد ، وبدأ الإنسان بتعلم قانون صحة الأنفس ، وهذه هي الوظيفة الأساسية للإنسان ، فالقرآن لا يعطي الأولوية لعلاج مرض القلب الجسدي ، بل لعلاج مرض القلب النفسي ، ولا يغرنك الحديث الذي ينتشر ويوحى به ، وهو أن العالم يسير إلى أسوأ ، وقد غرست بأقوالٍ نسبت إلى الرسول r ، وسواء صحت نسبتها إلى الرسول r أو لم تصح ، فإننا نخطئ في فهمها وتأويلها .

إن مناخنا الفكري بمستوياته العليا والدنيا ، مشبع بهذه المورثات ، وهذا هو ما يوحى إلى الناس ، باليـأس والقنـوط ، ولازال سادتنا وقادتنا الفكريون ينثرون مثل هذه الأفكار من غير حذر أو وجل .

هذه الأرضية التشاؤمية لا ينبت فيها حَبٌّ ، بل هي قيعان لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً ، فكيف نتوجه بوعي إلى هذه المتاهات المميتة ؟ وكيف تستسلم الأمم الفاشلة إلى مثل هذه الدعاوى لتسوغ فشلها وعجزها ، وتُبعد عن نفسها اللَّوم والمسؤولية ؟

لقد مررت بهذا الموضوع في وقت مبكر من حياتي ، قلت لنفسي : من الذي سينذر نفسه ويجاهد في سبيل شيء مكتوب عليه الفشل وعدم النجاح ؟ وهل لهذه الفكرة أساس في القرآن ؟ رجعت إلى القرآن وقرأته كله ، فلم أجد شيئاً من هذا ، وغنما وجدت (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه) [الزلزلة : 7/99] ، و (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) [الحج : 15/22] ، تأمل في كلمة (الدنيا) وتأكد منها .

إن الموضوع أكبر من هذا واخطر ، وإذا لم تكفِ الأدلة التي سبقت في التاريخ الماضي ؛ فـ (انْتظِروا) [الانعام : 158/6] الأدلة التي سيأتي بها التاريخ المستقبلي ، فإنه سوف يأتيكم بما لا تستطيعون دفعه أو التعامي عنه ، وبحسب شعوري فإن ذلك لم يعد بعيداً : (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً) [المعارج : 7/70-6] ، فطوبى لأولئك الذين سيصلحون ما أفسده الناس .

إنني أبحث موضوع الحياة الراشدة لأفهم أركانها وشروطها وإمكان إعادتها وحمايتها ، وحين أقول : الحياة الراشدة فإنني أريد أن أدخل عالماً جديداً كما يقولا إقبال :

تحلو له رؤياه كوناً محدثاً بِدْعَ المِثالِ يروقه تصويره

فإذا جلى صوت الأذان منامه شاد الذي في حلمه تعبيره

وللدخول إلى حياة الرشد دعني أحدثك بفكرة أخرى أيضاً ، أرجوا ا تساعد على تنظيف الطريق وسبيل الرشاد .

كانت الحياة الأولى للبشرية مبنية على الخارقات الماحقات ، لا على وضوح السنن التي لا تتغير ولا تتبدل ، وبإيجاز أقول : لقد فُسّر القرآن على الطريقة القديمة ، على أساس الخوارق ، مع أن القرآن كان إيذاناً بذهاب عهد الخوارق ، مع أن القرآن كان إيـذاناً بذهاب عهد الخوارق ، وإعلاناً بمجيء الحياة السُّنَنِيّة ، وهذا ما أدركه بوضوح الفيلسوف محمد إقبال ، وبحثـه بـوعي وتعمّـد ، لا بغموض وتلقائية ، وهذه الفكرة أيضاً تقع عند مفترق طرق يضل فيها السالك ، وهو أحوج ما يكون إلى تصحيح مسـاره ، يضـل اعتماداً على الخارق الذي بمجرد أن تستحضره ؛ تكون قد دخلت في الظلام والتيه ، ونحن سرعان ما ننقلب إلى الخوارق والتفسـيرات الخارقة عند الأزمات والمحن ، وتظهر التفسيرات الخارقية في كل المستويات ، ولو أن دارساً تتبع ظواهر العودة إلى الخوارق في مجتمعنـا ، لوجدها في مختلف المستويات ، لوجدها فيما تتناقله الصحف ، وفيما يدوّنه الكتّاب ، وحتى العلمانيون لم يتخلصوا من الخـوارق ، ولا قدرة لهم على عرض المواضيع بعملية وإقناع ، فهم يخترعون المعجزات والكرامات ، لا للأنبياء والأولياء ، ولكن للسياسيين أيضـاً ، وكما يبحثون لهم عن نسب يهودي حين يكرهونهم ؛ فإنهم يبحثون لهم عن الخوارق حين يحبونهم ، وما أسرع ما يتحول الإعجـاب إلى مقت ، ويتحول معه الرجل الذي كان معقد الأمل في الخلاص ، إلى عميل للعدو ومدَّع للرشد .

كيف سنتخلص من هذه البيئة الموبوءة الملوثة بكل الأرجاس ؟ لقد وصف الله الخمر والميسر بأنها رجس ، وإذا كـان الخمـر توازن الجسد ، والميسر طريقاً لسرقة علنية ، والنصاب ملجأ عند الأزمات ، وكانت هذه كلها رجساً ، فكم هناك مـن أرجـاس في حياتنا تفسد علينا الفكر والحياة .

من هنا مهماً أن ندخل حياة الرشد ، وان نفهم ابن آدم ، فقد كان من أرشد الراشدين الذين دشنوا الحياة الإنسانية ، وكـان موقفه رداً عملياً على الذين اتهموا الإنسان بأنه يسفك الدماء ويفسد في الأرض ، وبأنه غير جدير بالاستخلاف ، وكان رد الله تعـالى عليهم : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة : 30/2] ، أعلم في هذا الكائن العجيب ما لا تعلمون : (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها) [البقرة : 31/2] ، لأن علم الأسماء هو السبيل إلى تراكم المعرفة ، وهو ما سيمكن الإنسان من سلوك سبيل الرشد ، ومن إقامة الحياة

الراشدة والمجتمع الراشد ، ولكننا إلى الآن نقدس الجهل ولا نقدس العلم ، ونخاف من العلم لأنه إن ظهر فسوف يزيل جهلنا وأوهامنا .

الخوف من المعرفة :

دعني أقص عليك قصة تثبت لك أن جميع الذين لا يسلكون سبيل الرشد يخافون من العلم ، وبتعبير آخر ، جميع الذين لا يعرفون العلم يخافون منه ، لأنهُ سيزيل جهلهم ، وهم يظنون أن زوال جهلهم ، زوالٌ لوجودهم ، لأن وجودهم مبني على الجهل ، ولكن ما الذي نجهله ؟ وما الذي نخاف أن نفقده ؟ وما هذا الذي نخاف منه ؟

لقد تقدم ميشيل فوكو إلى بحث هذا الموضع وكان يقول عن المعرفة (اللوغوس) أو الخطاب أو الثقافة : « أين هي الحضارة التي تبدو في الظاهرة أنها كانت اكثر احتراماً للخطاب من حضارتنا ؟ أين تم تكريمه أحسن واكثر ؟ أين تم تحريره جذرياً فيما يبدو ؟ وأين ... ؟ غير أنه يبدو لي أن نوعاً من الخوف يختفي وراء هذا التقدير الظاهري للخطاب وتحت هذا الحب الظاهري للوغوس ... كل شيء يجري كما لو أنه أريد محو علامات ظهوره نفسها ضمن ألاعيب الفكر واللغة ، يوجد في مجتمعنا وفي كل المجتمعات الأخرى كما أتصور - لكن حسب اوجه وتقطيعات مختلفة - خوف عميق من اللوغوس (المعرفة) ، نوع من الخوف الأصم ضد هذه الأحداث ، ضد .. ، ضد هذا الدوي الضخم المتواصل والمختلط للخطاب .

وإذا أردنا - لا أقول محو هذا الخوف - بل تحليله ضمن شروطه ، ضمن لعبته وآثاره ، فإنه يلزم - على ما اعتقد - اتخاذ قرارات ثلاثة يقاومها فكرنا اليوم » [ميشيل فوكو ، نظام الخطاب ، ص 33 - 34] .

الخوف من المعرفة مع التقدير الظاهري لها ، لم هذا الخوف من المعرفة ؟ لماذا هو عميق في كل المجتمعات ؟ السبب في ذلك أن الإنسان لا يزال يخضع للعبة السيد والعبد ، للعبة القاهر والمقهور ، ولا قدرة له على الخروج من هذه اللعبة التي انحصر فيها طويلاً ، فبالمعرفة الظاهرية يصل الإنسان إلى أن يقهر الآخرين ، فإذا عمّت هذه المعرفة فانه سيسخر الذي يقهر الناس بالمعرفة وربما يصير مقهوراً ، وهذا ما يخشاه .

هذا هو الخوف من كشف الحقيقة ، الخوف من قبول المساواة ، لأن المقهور حين يسعى للخروج مما هو فيه ، لا يهدف إلى السواء ، بل لا يهدف إلى أن يتحول إلى قاهر ، ولهذا فإن الصراع مأساوي ، وتكاد الحلقة تكون مفرغة ، وهي ليست مفرغة .

إن السواء والعدل يزيل القاهر ، ولكنه يزيل المقهور أيضاً ، ولهذا فإن الاحتفاظ بالقهر ، والخوف من زواله ، أو السعي لجعل المقهور قاهراً ، كل هذا يخدع الناس ، وكأن هذه اللعبة سرمدية ، والتاريخ لم يعطنا نماذج قادرة على الاستمرار في الخروج من دائرة القاهر والمقهور ، في الخروج من اللعبة القديمة .

هذا هو تحليل الخوف ضمن شروطه وضمن لعبته وآثاره ، ولهذا يقاوم فكرنا اليوم اتخاذ قرار الخروج . إن قبول السواء مُغرٍ ، ولكن الاستعلاء الذي يسحر البشر لا يزال يسيطر على الناس ، والآباء هم الذي خرجوا بإصرار من لعبة القاهر والمقهور ، ومعهم خرج الآمرون بالقسط من الناس ، ولازالت البشرية تتسلق هذا الجدار الأملس الذي يمكن أن تحدث له نتوءات تساعد على تسلقه ، هذا ما نسعى إليه ، وهذه هي التعويذة التي نريد أن نفك بها السحر الأكبر ، السحر الذي خدع أعين الناس خلال التاريخ : (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ، أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ) [يس : 30/36-31] .

كيف نخرج من دوّامة القاهر والمقهور إلى حياة الرشد والسواء ؟ كيف نضيء ظلمات التاريخ الذي يتقدم ببطء شديد إلى الوعي ؟ كيف يُخفي علينا بطؤه واختلاطه السعي الحثيث ، والتقدم الراسخ الثابت إلى الهدف ، والخروج من وهم العبثية ؟

الخروج من لعبة القاهر والمقهور

المسألة قريبة وبعيدة في آن ، فلا يزال من الممكن فهم التاريخ على أنه لعين يتبع لعينا ، وفساد يتبعه فساد اكبر ، هذا الفهم للتاريخ هو اليأس وهو الكفر الناتج عن العجز عن رؤية هدف التاريخ وإرادة الله : (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يَعْلَمُونَ) [يوسف : 21/12] ، (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً) [المعارج : 70/6-7] ، إننا نعرف سبب بعده ، ونلمح سبب قربه أيضاً ، وهذا الأمر ليس إعجازياً ، بل هو تاريخ وتراكم للضحايا ، ضحايا العجز عن التبصير والفهم ، ولكن الله غالب على أمره ، وسيتعلم الإنسان من الألم ومن الثمن الذي يدفعه في كل مرّة تستهويه لعبة القاهر والمقهور ، المكرِه (بكسر الراء) والمكرَه (بفتح الراء) .

والصعوبة الأولى تكمن في خوف القاهر من أن يعود مقهوراً ، أما الثانية فهي في شهوة المقهور أن يصير قاهراً ، وتبادل المواقع عبر التاريخ أعجز الناس عن رؤية حلٍّ ثالث يعافي الطرفين ، ولهذا لابد من تأمل الصعوبتين تأملاً كبيراً ، لأنهما خافيتان ، وسرعان ما يتحول الشيء إلى ضده . فكيف نستطيع أن نخرج من هذه الثنائية الوثنية إلى التوحيد ؟

هل يكون مجنوناً أو ساحراً من قام يدعو إلى هذا ؟ ولطالما وصف الناس الأنبياء بالسحر والجنون ، وأقصى ما وصل إليه من تأمَّلهم لا يتجاوز أن يكون وصفاً لهم بأنهم مثاليون ، خياليون ، غير واقعيين .

إن الأثمان التي تتطلبها الواقعية التي تتبع الأحلام والخيالات غالية وباهظة ، وهذا ما فعله ابن آدم ، فهل لدي من القدرة ما يمكّنني من إبراز أن ابن آدم الذي خرج من لعبة القاهر والمقهور ؛ خرج من الثنائية الوثنية إلى التوحيد ، هل يمكن لنا أن نسلط عليه بعض الأضواء لإخراجه من السحر والجنون والخسران ؟ هل نستطيع أن نبطل السحر ونرفع الجنون ونظهر الخسارة التي تترتب على الوثنية والخضوع للعبة القاهر والمقهور ؟ متى سيشعر القاهر والقاتل بالخسارة ، ومتى سيندم ويتوب ؟

لقد وصف الله ابن آدم القاتل بأنه قتل أخاه فأصبح من الخاسرين ، وحين اكتشف جهله أصبح من النادمين ، وغن ما ينزل من حيف على ابن آدم الذي خرج من الوثنية الثنائية ، من لعبة القاهر والمقهور ، سيكون سبباً قريباً لإظهار الخسارة ، وسيترتب على ذلك الندم والخروج من الوثنية إلى التوحيد .

هل لي أن أطمع في كشف السحر ، وفي جعل ما يراه الناس مستحيلاً ؛ قريب التناول معقولاً ؟

نعم إنني أطمع في ذلك ، لأن العالم مندفع إليه ، بل هو مدفوع رغماً عنه ، لأنه طريق توحيد الاتجاه لا عودة عنه .

انظر ماذا حصل ويحصل للذين يريدون النكوص أو الخروج ، وإن لم تكف الأثمان التي دفعت حتى الآن ؛ فهل جهنم تقول : هل من مزيد ؟ ولن يملّ الله حتى تملوا ، ولن يغير حتى تغيروا .

لقد خرج ابن آدم من لعبة المكرِه والمكرَه ، خرج من لعبة القاتل المستعلي ، ومن لعبة المقتول الذي يظن أن حلّ المشكلة يتأتى بمقابلة القتل بإرادة القتل .

هل استطعت أن تقترب من فهم المشكلة ، مشكلة أن القاتل والمقتول حينما يكونان من صنف واحد ، وضمن لعبة واحدة هي لعبة القاهر والمقهور ، فإن الأمر لا يتغير بإحلال أحدهما مكان الآخر .

هل لي أن اطمع في تجلية الموضوع ؟ هل لي أن أضع المشكلة تحت المجهر ؟ كيف يمكن أن يكون القاهر والمقهور ضمن لعبة واحدة ودين واحد ونظام واحد ؟ يكونان كذلك حين يتبادلا المواقع فقط ، ول يخرجان من قانون لعبة القاهر والمقهور ، عندها يكونان من نوع واحد . ولكن هناك قانون آخر ولعبة أخرى ، وتستطيع أن تخرج من لعبة القهر المتناوب ، وهذا ما فعله ابن آدم والأنبياء جميعاً والآمرون بالقسط أيضاً ، وكذلك لن تَحلَّ وتنزل الديمقراطية ديار قوم إلا إذا خرجوا من لعبة تبادل العنف ، فتأمل ، تأمل مثيراً ، لعلي أخدع نفسي حين أظن أنني صرت قريباً من الحل ، فالعالم شوّه ابن آدم ، وشوه الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس رغم أنهم خارج اللعبة لا داخلها ، ولذلك لابد من الخروج من لعبة الرّب والعبد ، ومن التألّه والتعبد للبشر .

إنني سعيد ، لأنني أشعر أنني أمشي على بينة ، وماذا يهمني إن غمي عليكم فلم تتمكنوا من رؤية ما أراه ؟ لا بل يهمني ، لأن طمعي صار في أن أقنع الآخر ، ولم أعد اكتفي بان يفهمني ويفهم مذهبي ، ثم إن شاء فليعتبرني مجنوناً كابن آدم القتيل ، نعم صرت أبشّر بما علم الله في الإنسان من القدرة على ترك الفساد في الأرض والخروج من سفك الدماء .

هل لي من حرج إن أطلت في البحث والدرس واللف والدوران لكشف السحر الذي يُسيطر علينا ؟ أليس جديراً بنا أن نبدئ ونعيد كي يبدأ ظهور ملامح الفكرة الجديدة القديمة ؟

ليس لدينا نموذج قابل للفهم ، ولو من قبل بعض الناس مهما قلّ عددهم ، لكنني أطمع في إيصال هذا المفهوم إلى الناس ، وصرت أراه قريباً .

اطلب ولا تضجر من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا

أما ترى الحبل بتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا

(وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ... وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة : 74/2] .

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ نعم نطمع في ذلك ، ونؤمن بان تغيير ما بالأنفس وظيفة بشرية ، وبأننا نستطيع أن نغير إذا أخذنا بشروط التغيير ، ولا يشترط أن يتم التغيير في هذه اللحظة .

حين كتبت مذهب ابن آدم الأول ، سخط علي بعض أصدقائي الخلص ، واعتبروه تثبيطاً لهمم المسلمين ، ولكن بعد عشرين سنة جاءني أحد هؤلاء الأصدقاء واعترف لي قائلاً : كنت عارضتك قبل عشرين سنة ، ولكنني الآن أشعر أنه ليس أمامنا من طريق غير هذا الطريق .

أليس من الواجب علينا أن نثبت ونبذل الجهد للبلاغ حتى يكون مبنياً ؟ أليس الزمن هو الذي يكشف حقيقة الأفكار وقيمها ؟

نعم إننا نؤمن ، وعلينا أن نوضح إيماننا كي يتبين الرشد من الغي ، ولنزيل الالتباس الذي حدث بين الرشد والغي ، أليس من واجبنا أن نجتهد في إزالة الالتباس ؟ نع ، هيا نتابع السير ، هيا نجتهد في البحث عن الطريق ، هيا نبحث عما فقدناه خلال مسيرتنا في التاريخ . لم يفتِ الأوان بعد ، هلم نُلق ضوءاً على بعض آيات القرآن ، على الكيفية التي يتبين فيها الرشد من الغي .

القرآن و (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) :

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة : 256/2] .

كيف سأتبين الرشد من الغي من هذه الآية ؟ كيف أعيد إليها المعنى ؟ كيف سأحولها إلى آية ناسخة وقد جعلها المسلمون آية منسوخة ؟

لقد جاءت هذه الآية في سورة البقرة بعد آية الكرسي مباشرة ، وآية الكرسي هي الآية التي جعلها المسلمون التعويذة التي تحفظ الإنسان من الشرور ، ونحن نجدها معلقة في بيوت المسلمين في كل أنحاء الأرض ، وفي سياراتهم لتحميها من العين الحاسدة ومن الحوادث . وهي آية تعظيم الله وتقديسه وتنزيهه ، « وقد قال رسول الله **R** فيما صح عنه أنها أعظم آية في كتاب الله »[1] : (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) [البقرة : 255/2] ، و (لا إله إلا الله) هي أول ما يطلب من الإنسان النطق به ليدخل إلى الإسلام ، ومن قالها موقناً بها دخل الجنة ، وكل ذنب قابل للغفران إلا ذنب الذي يشرك ، أي الذي ينكر (لا إله إلا الله) : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) [النساء : 48/4] ، ومن كانت آخر كلامه قبل أن يغادر الدنيا ، كان دليلاً على أنه مات على الإيمان ، كما أن دخوله إلى الإسلام كان بالنطق بها .

ميزان الزبد والنافع

ما معنى التوحيد ؟ ما معنى الشرك ؟ ما معنى الرشد ؟ كيف نفهم الأمور ؟ ما معنى الفهم ، وكيف يحصل الفهم ، وكيف نعلم أننا فهمنا ، وكيف نثق بفهمنا ؟

---

[1] رواه مسلم في صلاة للسافرين ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، رقم (810) .

هنا أعود إلى القول للمرّة الألف أن ادعاءك صحة الفهم ليس دليلاً على صحته فعلاً ، وعليك أن تعرض فهمك على المسطرة لتقيسه بها ، وعلى الميزان لتزينه بها ، فإن صح هناك كان صحيحاً ، وإلا فهو زبد جفاء لا خير فيه .

اعرض فهمك على ميزان الزبد والنافع ، لتعرف هل هو صحيح حقاً ، فالصحيح هو الذي يمكث في الأرض ، والزبد هو الذي يذهب جفاءً : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) [النساء : 123/4] ، ومن يفهم سوءاً يجز به . كيف نتبين الفهم الصحيح من الفهم السقيم ؟ كيف نبين الذئب من الحَمَل ؟ كيف نتبين الرشد من الغي ؟ من ثمارهم تعرفونهم . كيف نعرف الثمار ؟ نعرفها من التاريخ ، من حوادث الدهور ، فالتاريخ لا يحوّل الخطأ إلى صواب ، بل يفرزهما بميزان دقيق ، فيذهب بالزبد جفاءً ، ويبقى النافع ، ربما يشتبه علينا الأمر مدّة من الزمن ، قد تطول وقد تقصر ، ولكن القانون لا يضيع أبداً ، والتاريخ شاهد على ذلك ، وحوادث التاريخ شاهدة أيضاً ، وإذا لم تكن كافية لغفلتنا عنها ، فإن التاريخ مستعدٌّ لأن يعيد نفسه ويستوفي الثمن ويُخضع رقابنا ، فالتاريخ لا يمل من التكرار ولن يمل الله حتى تملوا .

القرآن ومبدأ التوحيد

إذن ، فالتاريخ والأحداث هي التي ستكشف وتحدد معنى (لا إله إلا الله) ، ودعوة الأنبياء جميعاً هي (لا إله إلا الله) ، ولكن كيف فقدنا ثمرات التوحيد ومنافعه ؟ كيف فقدنا (لا إله إلا الله) ؟ هل قلنا على الله إنه اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو أنه متعدد الذات ؟ هل جاء الأنبياء ليعلموا الناس توحيد الله وأنه ذات خالقة للكون والحياة ؟

لا أعتقد أن هذا الأمر مشكلة أساسية ، لأن توحيد ذات الله أمر فطري في الناس الذين يتأملون في خلق السماوات والأرض : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران : 191/3] .

هذا النوع من التوحيد ، توحيد الخالق ، كان القرشيون الذين نسميهم كفاراً ، كانوا يؤمنون به : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [الزخرف : 9/43] ، (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) [الزخرف :87/43] .

بعضهم يسمي هذا التوحيد توحيد الربوبية ، ولكن هناك توحيدان غير هذا التوحيد ، فتوحيد الربوبية الذي هو توحيد الخالق لا يدّعيه أحد ، وحتى فرعون لم يدع خلق السماوات والأرض ، بل ادعى ملك مصر ، ولا أظن أن أحداً من الخلق الآن يستطيع أن يدّعي انه خَلَقَ السماوات والأرض ، والقرآن لم ينزل لغرس هذا التوحيد فقط ، بل نزل لإبطال أمرين آخرين هما الجبت والطاغوت ، فما هو الجبت وما هو الطاغوت ؟

الجبت هو دعوى الذين يزعمون أن لهم عند الله دالّة أو قرابة أو انهم وسطاء أو شفعاء ، أو أن بإمكانهم أن يقربوا الناس إلى الله زلفى . وفي هذا الباب يدخل كل المشعوذين الذين يستغلون الناس ليوصلوهم إلى الله ، ويهددونهم بأنهم سيسخرون الآخرة وستصيبهم المصائب في الدنيا إن لم يطيعوهم ، وهذا النوع من الناس لا يسيطرون على الناس بسلطانهم الدنيوي ، ولا بقوتهم السياسية أو المادية ، بل يخوفونهم بقوى خفية غيبية ، فيخاف الناس الذين لم يعرفوا التاريخ وتجارب البشر من هذا النوع ، ويتخذ هذا الخوف مظاهر له في عبادة الرجال الصالحين أحياءً وأمواتاً ، أو الذين يظن فيهم الصلاح والقربى والزلفى إلى الله ، وهذه هي وثنية الشعوب الضعيفة .

أما الطاغوت فهو الذي يرهب الناس ويهددهم بالعذاب في الدنيا ، وبالقتل وقطع الأرزاق ، وبالضرب بيد من حديد (وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا) [طه : 71/20] .

لقد كان هذان الصنفان من الشرك مختلطين فيما سبق من الأزمان التاريخية ، فكان الَملِكُ مختلطاً بالله ، أو مقرباً منه ، أو إبناً له أو للسماء ، ولكن ومع مرور التاريخ حصل الافتراق والتخصص ، وغن بقي التعاون والتآزر . وربما برز بعد ذلك إله المال وهو الاقتصاد ، ثم بدأ ينفصل ويتخصص ، كما بدأ الجبت يظهر بصورة جديدة هي صورة الإعلام والإقناع .

التوحيد و (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

كل هذا مهم ، ولكن الأهم هو أن نعرف : معنى آية الكرسي ، معنى (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ) ومعنى (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) . لأن مبدأ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) متصل بمبدأ (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ) ، وكثيراً ما يحدد القرآن معنى (لا إله إلا الله) بالطاعة ، بالإسلام ، بالخضوع ، ولكن هذا لا يكفي إذا لم يكن عن اقتناع وتصدق وإيمان ، لأن الطاعة والإسلام والخضوع الذي يأتي بدون اقتناع وتصديق لا يكون ديناً ، ومن هنا كان مبدأ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) تفسيراً لآية الكرسي ، وتوضيحاً لها ، لأن الاعتراف الذي يأتي بالإكراه لا يكون ديناً ، وكما انه (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) كذلك لا دين في الإكراه ، بل هو نفاق ورفض من الأعماق ، ولكن القناعة وحدها غير كافية أيضاً ، إذ إن كثيراً من المقتنعين والمؤمنين لا يكونون مقتنعين بالصواب ، ولذلك يكون إيمانهم على الخطأ وبالخطأ .

ليس كل إيمان صحيحاً ، فكما يمكن للإيمان أن يكون بالصواب ، كذلك يمكن له أن يكون بالخطأ ، فهناك إيمان بالله الحق ، وهناك إيمان بالجبت والطاغوت (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ) [النساء : 51/4] ، (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ) [العنكبوت : 52/29] ، (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) [النحل : 72/16] .

إذن ، لا يقتضي وجود الإيمان أن يكون هذا الإيمان إيماناً بالحق كما يظن كثير من الناس .

لابد من الوقوف عند هذه النقطة ، لأن المؤمنين بالصواب ، والمؤمنون بالخطأ يشتركون في الإيمان ، وقد يبذل كل واحد منهما نفسه في سبيل إيمانه ، ويظن كل واحد منهما أنه على الحق المبين ، ولا يعتبر بذل النفس والمال دليلاً على صحة الإيمان ، لأن المؤمن بالخطأ يبذل نفسه وماله في سبيل الإيمان الخاطئ .

ميزان العواقب

كيف نميز الإيمان الصحيح من الإيمان الخاطئ ؟ كيف نميز الذئاب من الحملان ؟ كيف نميز الرشد من الغي ؟

ينبغي أن نكرر كثيراً أنه لا يوجد ميزان لمعرفة هذه الأمور وتمييزها غير عواقب التاريخ ومصير الأمور وقانون الزبد الذي لا يرحم أحداً ، فحتى وغن طال بقاء الزبد فإن مآله إلى الزوال ، ولا يبقى إلا الأنفع ، وللذي يكون خيراً وأبقى على مر الزمن ، ولهذا صار الزمن عنصراً هاماً في معرفة الخطأ من الصواب ، والضار من النافع ، والغثاء والزبد من الأنفع والأبقى .

كل الكلام يمكن فهمه على الخطأ ، لأن الكلام ليس هو عين الحقيقة ، فكلمة نار ليست ناراً محرقة للذي ينطق بها ، وحقيقة النار موجودة في مكان آخر ، في واقع الحياة . وبهذا المعنى يظهر لنا أن الكلمات ليست حقائق الحقائق ، بل هي مجازات ورموز للتذكير ، وحتى كلمة (لا إله إلا الله) لها معنى خارجي ، ومن هناك نعرف صدق المراد بها لا من داخلها .

من هنا يأتي اهتمام القرآن بالتاريخ ، وبما حدث للأمم خلاله ، ومن هنا تأتى أهمية آيات الآفاق والأنفس ، وأهمية هذه الآيات تنبع من أنها هي التي ستشهد بالصدق لآيات الكتاب ، ستشهد بالصدق للرموز ، وستحدد وتصحح معاني الرموز ، لأن المرجع الأخير هو آيات الآفاق والأنفس في التاريخ ، وكلما تقدم التاريخ وتراكم كلما برزت القوانين والسنن ، ومن هنا كانت أهمية الأمر الإلهي بالنظر إلى الماضي والحاضر ، والأمر بانتظار المستقبل القريب والبعيد .

التاريخ مصدر أساسي لمعرفة الخطأ والصواب ، وما لم يعترف المسلمون بهذا المصدر فإنهم سيظلون يثقون بصورهم الذهنية وبأهوائهم أكثر من ثقتهم بعواقب الأمور .

إن المسلمين لا يعتبرون بعاد وثمود ، واليابان والاتحاد السوفييتي ، وبالسوق الأوروبية المشتركة ، وكأن هذه الأحداث لا دلالة لها ، ولا تخضع لقوانين ، ولا يمكن أن يستفاد منها .

هل يمكن أن أبرز أهمية التاريخ ومصائر الأمور ؟

بين الرشد والغي

هل يمكن أن نفهم مصير (لا إله إلا الله) ، ومصير (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، مصير الرشد والغي بعد آية الكرسي ؟

ما معنى (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) وكيف مفهم الرشد والغي في وقائع التاريخ ؟

هل يمكن أن نجد في (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) الرشد من الغي ؟

ينبغي ألا نبتعد في فهم الرشد من الغي ، فهو قريب جداً ، الرشد من الغي في (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، الإكراه في الدين هو الغي ، واللاإكراه ف الدين هو الرشد .

فلنتأمل في (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، ولنتأمل في معنى الإكراه والكراهية ، كيف ومتى يتحقق الإكراه وما طبيعته ؟ ما هو الدين وما المراد به ؟ هل هو خاص بدين معين أم بالأديان كلها ؟ إن فهم ذلك يرجع إلى الإنسان الذي هو موضوع الإكراه ، فالإنسان هو الذي يقع منه الإكراه ، وهو الذي يقع عليه الإكراه ، وعليه يظهر مقدار هذا الإكراه ودرجته وأدواته .

هذا الموضوع جدير حقاً بالبحث النفسي والتاريخي ، ومن الأهمية بمكان استحضار كل ما قيل في الإكراه من قبل المسلمين وغير المسلمين ، لمعرفة بذرة الإكراه ، والكيفية التي تظهر فيها ، والكيفية التي تبذر فيها ، وكيفية نموها إلى أن تثمر ، ولمعرفة ما تثمر ، ومن الذي يزرع الإكراه ، ومن الذي يحصد ثماره ، وما هي أحوال الفاعلين للإكراه والمفعول بهم والمفعولين له .

أين الرشد من الغي ؟!!

كم هو موضوع خصب وشيق ؟! وكم هو مفيد أن يكون مثل هذا الموضوع محلّ دراسة موسعة وموثقة بالآراء والوقائع ؟

ما هو سبب نزول آية اللاإكراه ؟ وما مقدار ارتباط القاعدة العامة بهذه الحادثة ؟ وهل القاعد ة أوسع من الحدث ؟ وما عدد ونوع الأحداث التي تتسع لها القاعدة ؟

أريد أن أفتح شهية الشباب للدارسة ، ولا أريد أن أقدم لهم دراسة ، وليس في استطاعتي أن أقدم ذلك ، ويكفيني أن أبصر ما يمكن حلاً لمشكلة الإنسان ، ومشكلة ما بنفسه ، ومشكلة تغيير ما بهذه النفس .

لقد فُرّغت هذه الآية من أهدافها وأعماقها ، وشاع لدى كثير من المسلمين أنها منسوخة بآية السيف ، ومهما كانت أقوال هؤلاء الناسخين ، وأياً كانوا : فإن أقوالهم وتفسيراتهم ليس لها من القوة والفعالية ما يؤثر بشكل جدي في مسيرة وأحداث التاريخ .

عن ثقافتنا بحاجة إلى تجلية وتصفية ، لتعود الأمور إلى نصابها ، لأن مشكلاتنا متراكمة ، وكلما رفعنا طبقة ظهرت طبقات ، وكلما أبرزنا مشكلة برزت مشكلات أخرى .

دعنا نبحث الرشد قليلاً !!..

دعنا نتبين الرشد وندقق فيه !!.. هل تبين الرشد من الغي في آية : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ؟

إنني أرى أنه تبين ، والذي يتمكن من تصديق هذا هو الذي عرف تاريخ الإنسان وطبيعته ، وعرف الصلاح والفساد في المجتمع البشري .

إن طبيعة الإنسان هي التي ستكشف أنّ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) هو الصلاح والرشد ، وان الإكراه في الدين هو الغي والفساد . والذي سيكشف طبيعة الإنسان هو التاريخ ، هو نمو الإنسان ، وما يحدث له من نمو وتقدم مع تقلب الأيام ، وصلاح الإنسان وفساده مسجل في تاريخ الأيام .

ذاك هو المرجع ، ومن خلال التأمل في التاريخ سنرى أسباب وسنن الصلاح والفساد .

لقد فهم المسلمون من آية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) أن أهل الكتاب لا يجبرون على الدخول في الإسلام ، وأن لهم الحق بأن يبقوا على دينهم ، هذا ما فهمه جلُّ المسلمين من هذه الآية ، ولكن هل يتوقف الرشد عند هذا الحد فقط ، أم أن الرشد يعني أن صلاح

الإنسان وفساده متعلق بـــ (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، وأن أكثر صلاح الإنسان إنما يكون حين يرفع الإكراه عنه ، سواء أكـــان هـــذا الإكراه شعورياً أو لاشعورياً .

الجهاد و (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

إن وقائع الدهور هي التي ستشهد للأبعاد التي تأخذها آية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، وعالمنا اليوم قدم لنا في هذا الموضوع مـــا لم يعلمه الناس ، وما لم يفطنوا به .

إن حماية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) على مستوى العالم كله هي مهمة الأنبياء ، وهي وظيفة الجهاد في سبيل الله ، سواء بـــالفكر أو باليد ، وإذا ارتفع الإكراه (فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) [النساء : 90/4] .

هل نستطيع أن نكشف البون الشاسع والاختلاف الكلي بين عالم الإكراه وعالم اللاإكراه ؟

إن عالم اللاإكراه ليس له نقيض إلا عالم الإكراه ، والذين لا يمارسون الإكراه هم الذين حموا أنفسهم وأمـــوالهم ، واســـتحقوا العدل والإحسان .

هل نستطيع أن نفهم ارتباط لاإكراه في الدين بآية الرشد ، وارتباط آية الرشد بآية : (لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الـــدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ) [الممتحنة : 60/8-9] ؟

فلنسمِّ آية اللاإكراه ، آية الرشد ، ولننظر من خلال آية (لا يَنْهَاكُمْ) إلى آية الرشد ! إن آية (لا يَنْهَاكُمْ) موجهة إلى مجتمع الغي ، كما هي موجهة إلى مجتمع الرشد ، ومجتمع الرشد هو المجتمع الذي يحتوي كل الآراء والمذاهب والرؤى ، المختلفة في تفســـيرها للوجود ، ماعدا الذين يقتلون الناس ويخرجونهم من ديارهم من أجل أديانهم ، ولابد هنا من فهم الدين بالطريقة التي فهمنا بها مصطلح الإيمان ، وأنه قد يكون إيماناً بالصواب ، وقد يكون إيماناً بالخطأ أو بالباطل ، ولذلك قال الله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّـــاغُوتِ) [النساء : 51/4] . فالدين أيضاً يمكن أن يكون دين الله ، ويمكن أن يكون دين فرعون أو المشركين أو الكافرين : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ... إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) [غافر : 26/40] ، (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ .. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : 109/1-6] .

إذن ، آية : ((لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) ، هذه الآية لم تحدد نوع دينه ، ولكنها حددت السلوك الذي يتصف به ، وهو الامتناع عن القتل والتهجير ، ولابد من تفهم كلمتي : المقاتلة في الدين ، والإخراج من الديار . فكل من يمارس القتل لأجل الأديان والآراء والمذاهب التي في الرؤوس ، والتي لم تتحول إلى ممارســـة للقتل والإخراج من أجل الدين ، أياً كان هذا الدين ، كل من يمارس هذين السلوكين يقاطع ولا يوالي ، ومن لم يمارسها فإنه يستحق البر والقسط .

بهذه المفاهيم جاء الأنبياء : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ، قَالَ : يَا قَوْمِ لِـــمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) [النمل : 27/45-46] ، ولكن من هما الفريقان ؟ وما صفاتهما وكيف نتعرف عليهما ونميزهما ؟

الفريق الأول : هو الرسل الذين يدعون إلى عبادة الله وحده ، والفريق الثاني : هو أولئك الـــذين يرفضـــون دعـــوة الرســـل ، ونستطيع أن نقول : إنهما فريقان : فريق الموحدين ، وفريق المشركين ، فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، فريق الراشدين وفريق الغاوين ، فريق اللاإكراه وفريق الإكراه ، فريق الذين لا ينهانا الله عن برهم وفريق الذين بنهانا عن توليهم ، كما حددها آيتا : (لا يَنْهَـــاكُمْ اللَّهُ) و (إِنَّما يَنْهَاكُمْ) .

ينبغي أن نذكر أيضاً آيتي النساء اللتين تبيناه : الذين لم يجعل الله لنا عليهم سبيلاً ، والذين لنا عليهم سلطاناً مبيناً : (فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) [النساء : 90/4] ، (فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً) [النساء : 91/4] .

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 255/2] ، الفريقان هما فريق الرشد وفريق الغي ، فريق الذين يقاتلون في الدين ويخرجون من الديار ، وفريق الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم .

عواقب التباس الرشد بالغي

وإذا كنا نطيل في بحث هذا الموضوع ، فإن ذلك يعود إلى أننا نريد أن نبين الرشد من الغي ، لأن الالتباس الحاصل بين الرشد والغي يجعلنا نعيش الغي ونحن نظن أننا نعيش الرشد ، ونبذل أموالنا وأنفسنا في سبيل الغي ، ونحن نظن أننا نبذلها في سبيل الرشد ، وطالما بذلت دماء وأزهقت نفوس بين غيّ وغيّ ، لا بين رشد وغيّ ، وذلك لأن الأمر يلتبس على الناس حين يرون نزاعاً ، فيظنون أن كل نزاع لابد فيه من أن يكون أحد الطرفين على الرشد والآخر على الغي ، ولا يعلمون أن من النزاعات ما يكون بين غيّ وغيّ ، بين إكراه وإكراه آخر .

هذا أحد مواطن الالتباس التي طال عليها الأمد حتى فقد الناس معنى الرشد ، فلم يعد أحد منهم يريد أن يكون راشداً .

لابد أن يتبين الرشد من الغي ، ولكن من المفارقات الطريفة والجميلة أنه رغم التباس الرشد بالغي التباساً شديداً في العالم الإسلامي ، فقد بقيت علامات واضحة لمن أمكنه أن يتأمل ويتبين الرشد من الغي .

إن الرشد هو اللاإكراه ، والغي هو الإكراه ، ولكي يكون الدين راشداً ينبغي أن يأتي بغير إكراه ، ولكن ليس كل دين بغير إكراه هو دين راشد ، فإن جاء الدين بالإكراه كان نفاقاً .

المفارقة الطريفة هي موضوع تسمية الخلفاء الأربعة بعد النبي r الخلفاء الراشدين ، فلماذا سمي هؤلاء راشدين ، وكيف اختير لهم هذا الاسم ؟

لقد عمّ عند جمهور المسلمين أن الذين أطلق عليهم وصف الرشد من الخلفاء هم الأربعة الأولون ، و لم يطلق هذا الوصف على الذين جاؤوا من بعدهم ، ولعل ما يعلل ذلك هو أن هؤلاء الأربعة جاؤوا إلى الحكم بغير إكراه ، وأما الذين جاؤوا بعدهم فقد وصلوا إلى الحكم بالإكراه ، ولذلك لم يطلق على أحد منهم اسم راشد .

لقد احتفظ المسلمون بهذا اللقب نقياً من التلوث والتشويه ، فالذين جاؤوا بعد الأربعة سموا خلفاء ، ولكنهم لم يسموا راشدين بل سموا : أمويين وعباسين وعثمانيين ...

وهكذا فكما لا يكون الدين بالإكراه ؛ كذلك لا تكون السياسة والملك بالإكراه ، قد يتسلم إنسان الملك والسلطان بالإكراه ، ولكنه عندها لا يكون راشداً ، بل يكون غاوياً .

لكي يتبين الرشد من الغي ينبغي أن ننتبه إلى آيات الآفاق والأنفس وعواقب الأمور وسير أيام الله في الأمم ، وكيف يتم تداول الإيمان بين الناس ، والتاريخ يتقدم إلى الرشد مهما كان بطيئاً ، وما ينبغي أن يغيب هذا عن أذهاننا أبداً ، وإلا نكون قد أخذنا عن الوجود نظراً غير راشد وغير سوي ، فالكون ليس جامداً ، وليس متداعياً ، بل هو متحرك إلى الأمام ، و لم يأتِ بعد ما علم الله مما سيزيد في الخلق ، و لم يأتِ بعد ما علم الله من القضاء على الفساد وسفك الدماء ، و لم يأت بعد ما سيخلق الله مما لا نعلم : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) [فاطر : 1/3] ، (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [النحل : 8/16] ، (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ) [الرعد : 17/13] .

تعميم مبدأ اللاإكراه

فكرة (ما ينفع الناس) أساسية لأخذ تصور صحيح عن الوجود وطبيعته ، لأن أي تصور آخر هو تصور تشاؤمي يأساوي قاطع لطريق العمل والاجتهاد ، ومثبط للهمم .

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 255/2] .

لا إكراه في السياسة قد تبين الرشد من الغي .

فإذا كان اللاإكراه واجباً في الدين الذي هو أقدس المقدسات ، فمن باب أولى ألاّ يكون هناك إكراه فيما دون ذلك ، فباستطاعتك أن تقول : لاإكراه في السياسة ، لاإكراه في المذاهب ، لاإكراه في القناعات ، ولا يوجد : افهم هذا وإلا قتلتك ، ولكن يوجد : افهم هذا الذي دليله كذا وكذا ، وإن لم تفهم فإن على كلٍّ منا أن يجتهد في توضيح الفهم الذي يتبناه ، ولا يجوز له أن يتجاوز إلى : إن لم تفهم سأقتلك وسأخرجك من ديارك .

لا يزال في العالم قتل لأجل الدين ، وإخراج من الديار ، ولكن هذه الأعمال بدأت تلاقي الاستنكار ، وفي هذا توجه نحو قبول فكرة (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) نظرياً ، وبدأ العالم بعمومه بالدخول إلى (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، وإلى (لا إكراه في السياسة) ، وهو يتطور باضراط في هذا الموضوع وسيتطور حتى (وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ) [الأنفال : 39/8] ، فالناس يدينون لله بقلوبهم لا بألسنتهم فقط ، والدين الذي يأتي بالإكراه ليس ديناً ، بل هو نفاق : (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) [الفتح : 11/48] .

إن دساتير العالم اليوم كلها تحتوي في بنودها الأولى على ما يقرر حرية الاعتقاد ، الجميع يسجلون هذا ، وإن كان تنفيذه يتفاوت تفاوتاً كبيراً ، وعلى الرغم من هذا فإن العالم يتقدم إلى الرشد رغماً عنه : (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) ، ومن لم يتبين له هذا حتى الآن فسيتبين له هذا طوعاً أو كرهاً ، لأن الإكراه زبد لا نفع ، والزبد سيذهب جفاءً ، ولن يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس .

لقد سلَّط الله الذين يأخذون بالرشد أكثر من غيرهم ، على الذين لا يأخذون به ويأخذون بالإكراه ، وعلى قدر أخذ الناس بالرشد فإنهم موعودون بالنصر والاستخلاف والتمكين في الأرض حتى يأتي من هو أشد تمسكاً بالرشد منهم ، وعندها فإن الأنفع ينسخ الأدنى منع نفعاً ، هذا هو قانون الله في الكتاب ، قانون الله في الآفاق والأنفس : (مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) [البقرة : 106/2] ، قانون الله لا يقضي بأن ينسخ الأدنى ما هو أعلى منه ، بل يقضي بأن ينسخ الأعلى ما هو أدنى منه في النفع .

وكما أن آيات الآفاق والأنفس تؤكد أن (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) مطلب آفاقي أنفسي مهما حاول الكارهون للرشد ، فإن البشر يتقدمون إلى الرشد ، والتاريخ يقدم الأدلة والمكافآت للذين يقتربون من الرشد ، ويقدم الحساب والجزاء الذي لا يحابي لمن ينتكب سبيل الرشد .

إن العالم يدلف إلى الأنفع والأصلح ، مدفوعاً بقانون الزبد ، لأن الأنفع هو الذي سيمكث في الأرض .

العالم وعقيدة التشاؤم

إن عقيدة الشؤم والتشاؤم واليأس تستولي على العالم هذه الإيمان ، وأصبحت ثقافة الناس مبنية على الرؤية الظلامية ، ولم يعد في الناس من يتبين الرشد الذي يتقدم شيئاً فشيئاً ، والمنارات والعلامات التي تسطع في الليالي الحالكة ، حتى لا ييأس الناس ، وحتى يظلوا يحثون الخطأ سيراً نحو النور والرشاد .

لو قام قائم ووضع استبانة دقيقة لكشف مقدار من يعيش حالة اليأس والتشاؤم ، ومقدار من يعيش حالة الأمل وعقيدة الإيمان ورؤية أن الكون يسير نحو الأنفع والأصلح والأرشد ، لكان هذا الإحصاء دليلاً يوضح سبب عدم مشاركة كثير من الناس في السعي إلى الإصلاح ، وسبب قعودهم حيارى يائسين متبلدين ، يسخرون من الذين يسعون إلى الإصلاح .

كم هي مهمة هذه الدراسات في تسريع حركة التاريخ ، وإيقاظ الناس ليكونوا من بناة العالم الأرشد بدأب ويقين .

ربنا أرنا مناسكنا ، واهدنا سبلنا ، وألهمنا رشدنا ، لنُنشد أناشيد التسبيح ، ولنحقق بسعينا علمك فينا ، ونكون كالبنيان المرصوص ، ولنطلع على عالم نورك الذي أخذت على نفسك عهد إتمامه ، لنكون باعثي الأمل في القلوب ومطلعي النور في النفوس ، ولنكون من الذين يسعى نورهم بين أيديهم .

ألا لنعد إلى بحث الرشاد .. من هو الكاتب الذي سيكتب عن الرشد والرشاد ؟ من هو الذي سيزين في أعين الناس حال المجتمع والحكم الراشد ؟ من ذا الذي سيكشف من جديد أن العالم مدفوع إلى الرشد ، وأنه يتلمس الرشد ؟

هل نستطيع أن نحمل نور الرشد ؟ هل نستطيع أن نرى ملامح رشد إبراهيم عليه السلام ؟

هل سيظهر سبيل الرشاد الذي دعا إليه ذلك الرجل الذي آمن ودعا قومه وقال لهم : (يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [غافر : 38/40] .

تُرى كيف ضاع الرشاد ، وكيف نستعيده ، وما الذي يصرفنا عن أن نتخذه سبيلاً .

لماذا وكيف ومتى ضيعنا الرشد ، وكيف نستعيده ، وكيف نرجع إليه ؟

لقد سجل تاريخ العالم الإسلامي ضياع الرشد بكل دقة ووضوح ، إنهم فقدوه في الفتن ، فقدوه حين استيقظ الغي وبدأ يتلبس بالرشد ، حين بدأ الإكراه في السياسة والحكم ، عندها انسحب الرشد مأسوفاً عليه والقلوب تتسمر وتقول : مات الرشد ، بل قتل واغتيل مأسوفاً عليه ، ثم دفنوه سراً ، وودعوه حسرة .

ومع الأسف الشديد فإن المسلمين لم يبحثوا هذا الموضوع بحثاً سنياً ونفسياً بشرياً ، وبدلاً من ذلك بحثوه وفسروه غيبياً وخوارقياً ، وجعلوه شاناً إلهياً ، و لم يفهموه فهماً وجهدٍ من الناس ، وحسبوه شاناً فوقياً ، فوق سعي البشر وجهدهم .

كم هي كثيرة المشكلات التي نحن بحاجة إلى إصلاحها وحلها وإيضاحها ، ومن المشكلات التي تراكمت ردُّ الأمور إلى الله وتحييد جهد البشر ، هذه مشكلة إسلامية ، وهي قبل ذلك مشكلة بشرية .

الفصل الثالث

قراءتان للقرآن

هنا أطرح موضوعاً متصلاً بمشكلة الرشد ، وكنت قد عرضته مرات عدة ، وبعناوين مختلفة ، لقد عرضته في كتاب (حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) ، ولكنني الآن أطرحه بشكل مختلف وبعنوان جديد هو : إمكان قراءة القرآن قراءتين مختلفتين .

نقرؤه مرّة على أن التاريخ ووقائع الأيام من صنع الله تعالى ، ومرّة على أن التاريخ والأحداث والتغيرات التي تحدث خلال التاريخ وبين الناس من صنع الناس أنفسهم . وعلينا أن نهتم بالتمييز بين هاتين القراءتين ، لأنه يترتب عليهما مواقف العرض الذي قدمه محمد أركون في تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، حين قال : « إن التاريخ بحسب القرآن من صنع الله وليس من صنع البشر ، بما فيهم الأنبياء والمصلحون » ثم يذكر آيات على ذلك .

فإذا وصل الالتباس في هذا الموضوع إلى هذه الدرجة ، فإنني أشعر بضرورة بحثه وتوضيحه . ولتوضيح هذا الأمر أذكر هنا المثل الذي يقدمه القرآن حين يتحدث عن كل من الزراعة والتناسل البشري ، فيقول :

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟) [الواقعة : 56/63-64] .

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟) [الواقعة : 56/58-59] .

في الواقع إن الله هو الذي خلق النباتات والأشجار ، وهو الذي خلق التربة والماء ، ولكن نحن من صنع البستان ، نحن من وضع البذور في الأرض وقلب التربة ، إلا أننا لم نصنع ، و لم نضع ، و لم نخلق سنن الإلقاح وتكوّن الأجنة في الأرحام ، ولكن بدون تزاوج الناس سوف لن يخلق الله الإنسان .

هكذا نستطيع أن نرى الجزء الذي يرجع إلى الله تعالى في حدوث الأحداث التاريخية ، والجزء الذي يرجع إلى الإنسان في حدوثها ، فنقول :

إن الله هو الذي انبت الزروع ، وخلق الأجنة في بطون أمهاتها .

ونقول أيضاً :

عن الناس هم الذين يفلحون الأرض ويضعون البذور ، وهم الذين يتزوجون ويضعون النطاف في الأرحام .

فالفعل يرجع إلى الله من جانب ، وإلى الإنسان من جانب آخر ، الخلق يرجع إلى الله ، ووضع البذور في الحقل ، والنطاف في الأرحام ؛ يرجع إلى الإنسان . وينبغي أن نميز بين هذين العملين ، بين السنن التي تعود إلى الله ، وبين ما يعود للإنسان من ممارسة هذه السنن ، والله تعالى هو الذي خلق السنن والنتائج ، والبشر هم الذين مارسوا السنن وسخروها لتحقيق النتائج ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقرأ القرآن قراءتين اثنتين ، قراءة تشير إلى أن التاريخ والتغيير الذي يحدث في حياة الناس ؛ يخلقه الله تعالى ، وقراءة تشير إلى أن أحداث التاريخ تنتج عن ممارسة سنن الله في التاريخ ، هكذا يُنسب الحدث إلى الله من جانب ، وذلك بخلقه للسنن وجعلها قابلة للتسخير من قبل البشر ، وينسب إلى الناس الذين يتصرفون بهذه السنن ويمارسونها من جانب آخر ، وممارسة الناس للسنن هي التي تكون سبباً لحدوث هذه الأحداث ، وبون هذه الممارسة لا يبرز الله تعالى الأحداث إلى الوجود .

ينبغي على المسلمين أن يتأملوا هاتين القراءتين ، وأن يعلموها لأطفالهم ، وأن يدربوهم عليهما ، كما يعلموهم ويدربوه على الأحرف الهجائية ، على تجويد القرآن ، كي لا تلتبس عليهم هذه التفصيلات ، وكي لا ينتج عن هذا الالتباس مذاهب وعقائد متضادة ومتضاربة ومتقاتلة ، وكي لا ينتج عن التباسها افتراء على الله وتكذيب لآيات الله ، أو تأليه للبشر ، أو إضاعة لقيمة سعيهم وجهدهم .

إن إبراز هاتين القراءتين ضرورة كبرى ، بل لعلنا ، إن لم نوضح هاتين القراءتين والالتباس الحاصل بينهما ؛ نضيع الفائدة من دراسة القرآن الكريم ، ويتحول إلى عامل إلغاء وحذف لجهود البشر كما فهمه محمد أركون اعتماداً على الصور الذهنية الموجودة عند أكثر المسلمين ، أو في الثقافة الإسلامية التي اختلط فيها أمور كثيرة ، والتبست التباساً شديداً .

هاتان القراءتان : قراءة خلق الله للسنن ، وقراءة ممارسة البشر لهذه السنن ، تُذكران أحياناً بوضوح وجلاء ، كما في قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الأنفال : 53/8] ، وقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الرعد : 11/13] .

عن النعم التي يتمتع بها البشر ، من الصحة في الأبدان ، والغنى في الأموال ، والتعاون على البر والتقوى في الشدة والرخاء ، هذه النعم لها قوانين وسنن ، وينبغي على الناس أن يفهموها ويمارسوها ، كي تبقى هذه النعم عليهم ولا تزول عنهم ، وإذا زالت فإن الله لن يعيدها إلى الناس إلا إذا غيروا بجهدهم وسعيهم وتبصرهم ما بأنفسهم .

هنا في آيتي التغيير هاتين ؛ نسب الله إلى ذاته تغييراً ، ونسب إلى الناس تغييراً ، ولكنه جعل التغير الذي نسبه لأي ذاته متعلقاً بالتغيير الذي نسبه إلى الناس ، فعلى الناس أن يغيروا ما بأنفسهم أولاً ، كي يغير الله ما بهم ثانياً ، وهذا واضح وجلي غاية الوضوح والجلاء في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) ، ولكن ومع وضوحه وجلائه لا زال يشوبه الغموض في نفوس الناس ، ولا زالوا ينتظرون من الله أن يغير ما بهم وما بأنفسهم .

ينبغي أن نتمسك بهذه الآية ، ونعض عليها بالنواجذ ، ونجعلها آية مفتاحية لفهم القراءتين بوضوح وجلاء ، وينبغي أن نقوم باختبارات وتدريبات على هاتين القراءتين ، لأن عدم الانتباه إليهما يخلّف إشكالات كثيرة وكبيرة .

الارتباط الوثيق بين القراءتين

إن الجهد والممارسة ومحاولة التعليم والتفهيم والتذكير يزيل الالتباس بإذنه تعالى . وبين هاتين القراءتين ارتباط شديد بحيث إذا ذكرت إحداهما ، استلزم ذلك وجود الأخرى حتماً ، فإذا قلنا : أن الله أنعم على قوم بالغنى والصحة والحب والإيثار ، فكأننا نقول : إن هؤلاء القوم غيروا ما بأنفسهم من عوامل الفقر والمرض والبغضاء والأنانية . كذلك إذا قلنا : عن الله ابتلى قوماً بالفقر والمرض والبغضاء والغدر ، فإن ذلك يعني أن هؤلاء القوم يحملون في أنفسهم عقائد ومفاهيم ومذاهب تورث هذه العواقب والثمرات ، ويعني أن الله لن يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وللتدريب على ربط هاتين القراءتين ، نقول : إذا قال الله تعالى مثلاً : (قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران : 26/3] ، عند هذه الآية نقول : إن الله تعالى لم يذكر إلا العمل الذي يرجع إليه من خلق السنن وخلق العواقب والثمرات من تطبيق السنن ، وإذا كان الله تعالى لم يذكر العمل الذي يقوم به الناس للحصول على الملك والعز وتحصيل الخير ؛ فهذا لا يعني أن الله يؤتي الملك من يشاء جزافاً ، وينزعه ممن يشاء جزافاً ، بل إنه تعالى لا ينزع الملك إلا من الذين غيروا ما بأنفسهم ، فالذين يعرفون السنن ويمارسونها يحصّلون ثمراتها ، ويتمتعون بالصحة والغنى والحكم الراشد ، والذين يجهلون السنن ، ولا يمارسونها ؛ تزول عنهم النعم ، وتحلُّ بهم النقم ، وصدق الله القائل : (وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [النحل : 33/16] .

وحين نقرأ قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال : 62/8-63] ، نقول : نعم لقد ألف الله بين قلوبهم ، ولكنه لم يؤلف بينها بخوارق بل بسنن ، وعدم فهم هذا يجعل حياة الناس مظلمة : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)]آل عمران : 159/3] ، فالذين يمارسون سنن تأليف القلوب لا يحصل الانفضاض من حولهم .

ومهما كان الجهد الذي يبذله البشر تافهاً وسهلاً وقليل المؤونة ، فإن النتائج الباهرة لا تتحقق إلا ببذله ، فالخلق الذي يقول عنه الله تعالى : (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) [لقمان : 11/31] ، هذا الخلق البديع المكرم لا يخلقه الله إلا إذا مارس الناس التزاوج .

موقف القرآن من الذين ينسبون أخطاءهم إلى الله

وإذا أردت أن تتدرب على فهم هذا الموضوع ، فانظر إلى ما يقوله الله تعالى عن الذين أعلنوا أنهم يحذفون جهد الإنسان ولا يرون إلا عمل الله : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) [الأنعام : 148/6] .

لقد حذف هؤلاء القوم ما يرجع إليهم في حدوث هذه العقائد والممارسات ، ونسبوا كل شيء إلى الله ، ولكن ماذا أجابهم الله على أقوالهم هذه ؟

أجابهم بقوله : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ) [الأنعام : 148/6] .

انظر إلى هذه الردود الخمسة التي رد بها الله على الذين ينسبون أخطاءهم التي ارتكبوها إلى الله ، ويبرئون أنفسهم منها ويدفعون المسؤولية عنها .

إن هذا الأسلوب في الاحتجاج ليس جديداً في التاريخ ، لأن الذين من قبلهم كذبوا هذا التكذيب .

هذا الفهم ، وهذا النظر ، يُنتج نتائج الخراب التي سوف يذوق وبالها أولئك المكذبون ، وسيصابون بالمصائب ، وهذا معنى قوله تعالى : (حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا) .

(قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟) ، إن هذه الدعوى ليست مبنية على علم يمكن إخراجه إلى الوضوح والجلاء ، كي تصير علماً .

هذه الدعوى ظن واتباع للأهواء فقط .

وهذه الدعوى ليست سوى حرص وأماني يخدعون بها أنفسهم .

ثم قال تعالى بعد ذلك : (قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام : 149/6] .

لا تظنوا أنكم حين ضللتم كان ضلالكم رغماً عن الله ، إنه قادر على أن يسيّركم تسيير الأجرام العظام كالشمس والقمر ، فلا تحيدون عن المسار الذي رسمه لكم ، ولكنه تعالى أعطاكم الأمانة فخنتموها وضيعتموها .

لقد أفردت لهذا الموضع مؤلّفاً خاصاً بعنوان (حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، ولكنني لا ازعم ، إلا هنا ولا هناك ، أنني قلت أو فهمت عن هذا الموضوع ما يكفي ؛ بل إن على العقول والقلوب المؤمنة الفتية في العالم الإسلامي وفي العالم كله أن يتفهموا هذا الموضوع ليحملوا الأمانة ويحققوا ما علم الله في الإنسان ، لأن ذلك لن يتحقق إلا بجهد البشر وتغييرهم لما بأنفسهم ، ولن يغير الله العواقب حتى يغير الناس ما بأنفسهم ، وسيظل الناس يذوقون بأس ما بأنفسهم حتى يغيروه ، ولن يملّ الله حتى نملَّ ، وإذا لم تكفِ المثلات التي خلت في التاريخ ؛ فستكرر أمثالها ، وفي هذا المعنى يأتي قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [يونس : 96/10-97] ، وقوله تعالى : (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [الشعراء : 210/26] .

إن الإيمان لا يحصل لهؤلاء حتى يروا العذاب الأليم ، وقد لا تكفي رؤية العذاب الأليم ، بحيث يحتاج الأمر إلى أن يذوقوا العذاب ، ولكن بعض الناس لا يرجعون حتى حين يذوقون العذاب ، إلا حين يتكرر العذاب في الأجيال المتعاقبة .

أيها الشباب أيها المسلمون ! أيها المؤمنون ! اجتهدوا وتنافسوا في إبراز الحقائق وتوضيحها ، وفي اكتساب العلوم والمعارف ونشرها ، ولا تكتموها .

كيف ومن سيبسط هذه المفاهيم ؟ من الذي سيجلو ويمحو الظلمات ، ويضع أبناء المسلمين على سبيل العلم الذي ينبغي أن يسلكوه .

كيف ومن الذي سيقيم الدورات التدريبية لتدريب أبناء المسلمين على هذه القراءات ، ولتصحيح المفاهيم المغلوطة والغامضة ؟ كيف سنحول المساجد إلى أماكن تشع بالعلم والنور لإزالة ما بالنفس من مفاهيم أورثت المسلمين الذل والحرمان ، وجعلتهم يذيقون بعضهم بأس بعض ؟ كيف نحوّل حياتنا إلى الأمن والهدى ، ونكون من الذين قال الله عنهم : (أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام : 82/6] ؟

إنني أرى المستقبل الذي تتحقق فيه هذه الآمال بعين البصيرة ، وحين نفهم طريق الهدى لن يتمكن أحد من أن يقف في وجهنا ، وسيشع النور ، وسيحل الأمن والهدى .

لقد ذكر الله تساؤل إبراهيم عليه السلام بعد محاجته قومه ، قال : (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام : 81/6-82] .

عن المر لقريب ، وسيتعجب الناس بعد أن يستيقظوا ويفهموا ! كيف كان يغيب عنا ، وكيف بقينا في الظلمات ، وكيف علينا هذا الأمر خلال كل هذا التاريخ الطويل المضني ؟!.

نعم لقد كنا غائبين عن رؤية ما يحدث ، ولا زلنا غائبين .

لنعد إلى الرشد ، ولنبحث كيف وبماذا يتبين الرشد من الغي ، وكيف التبس الرشد بالغي ، وكيف قبلنا الدخول إلى صراع الغي بالغي مع الغي ، وكيف سجلنا في التاريخ لحظة ضياع الرشد والدخول في الغي ..

ينبغي أن نكثر من العودة إلى المكان الذي فقدناه فيه .

حدثني صديقي فاروق الأدهمي بقصة فلسفية قال : كان هناك يبحث في الأرض عن شيء أضاعه ، فجاء إليه رجل وسأله ، عمّ تبحث ؟ قال : أبحث عن مفاتيح فقدتها ، فسأله : أين فقدتها ؟ فقال : هناك ، وأشار إلى مكان آخر غير المكان الذي يبحث فيه ، فقال له : إذا كنتَ أضعت مفاتيحك هناك ، فلم تبحث عنها هنا ، ولا تبحث هناك ؟ فقال : هنا يوجد ضوء ، وهناك لا يوجد ضوء . هذا الرجل لم يخطر في باله أن يأخذ الضياء إلى حيث فقد مفاتيحه .

دعنا نبحث عن الرشد حيث فقدناه ، دعنا نحمل معنا الضياء إلى حيث كان عهد الظلام ، وهل من ضوء ابيض لنبحث عما فقدناه ، لنبحث عن الرشد ؟ ولكن ما هو الرشد ؟ الرشد هو الاهتداء إلى الحل الأرشد (سبيل الرشاد) ، إلى الحل المثل ، إلى الحل الأقل كلفة والأعم نفعاً ، الرشد هو الحل بدون معاناة ، هو الحل بطريقة اللعب المغري .

كم هو مهم اكتشاف الطرق الراشدة لتعليم الأطفال واستغلال حب الاستطلاع غير القابل للإطفاء لديهم ، لا شك أن حب الاستطلاع الذي لا ينضب عند الأطفال يمكن استخدامه حين نكون ماهرين في إبداع الوسائل الجديدة والحلول المبتكرة .

توينبي ونظام سير الحضارة

وتحضرني هنا ملاحظة المؤرخ توينبي عن نظام سير الحضارة ، كيف بدأ وكيف تموت ، قال ما معناه : « إن الحضارة تبدأ من الأقلية المبدعة التي تهتدي إلى الحلول السهلة التي تختزل الجهد والوقت وتصل إلى أفضل النتائج بأقل الجهود ، فهذا المبدع ، أو هذه الأقلية المبدعة ، تقود القافلة بأناشيد الإعجاب التي تمتدي إلى اعظم الثروات الكامنة في الإنسان لاستخدامها على الوجه الأمثل ، وحين يفتح هذا الطريق ؛ فإن البشر والأطفال ليدهم استعداد للاستمرار في بذل الجهود وعدم التوقف عن الكد والكدح مادامت العلاقة بين الجهد والمردود لصالح المردود ، ولكن الحضارة تبدأ بالانهيار حين تبدأ العلاقة بين الجهد والمردود بالاضطراب ، وذلك حين يبدأ سهم الجهود بالارتفاع ، وسهم المردودات بالانخفاض ، هنا تبدأ النفوس بالانطفاء والتراخي ، والهمم بالتقاعس والتقاعد عن بذل الجهود غير المثمرة ، وهنا يتغير الوضع من الإبداع إلى التكرار الممل ، لأنه لم يعد هناك وقوف كافٍ من العواقب والمردودات المغرية ، فتتباطأ الحركة ، وعند ذلك يتحول الذي كان يقود الناس بإبداعه وبأناشيد الإعجاب ، ويستبدل بموسيقى أناشيد الفرح موسيقى الكرابيج والسياط التي تهوي على الأجساد كي تستمر في الإنتاج الذي لا يعود بما يغني عن المنتج شيئاً ، فانهيار الحضارة يبدأ عند تحول الأقلية المبدعة الموقظة لشهية الناس إلى السعي الحثيث والتعاون على زيادة الثواب على جهودهم ، عندما تتحول هذه الأقلية المبدعة إلى أقلية متسلطة تسوق الناس بالقهر والإكراه » .

تأمل هذه العلاقة الإنسانية ، وما فيها من وقود محرك لجهود البشر ، بدل إبداع طرق الثواب ، وتأمل العواقب التي يحصلها الناس من هذه العلاقة ، وستراها أضعافاً مضاعفة ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مئة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء .

استثمار طاقات الأطفال :

تأمل شان من يبدع طريقاً ليحصد من الحبة سبع مئة حبة ، بدل ذاك الذي يعود بحبة واحدة لا تسد النفقات ، أو لا تأتي بأي حبة فيكون إنتاجه أقل من الجهد الذي بذله .

إن نظام الكون مبني على التسخير ، والإبداع الأفضل دوماً ، والتسخير الذي يعطي مردوداً أعلى ينسخ التسخير الأدنى مردوداً ، وإن الاستثمار الأعظم هو استثمار إمكانات الأطفال على الاستيعاب ، ويتحقق ذلك بابتكار الطرق التعليمية المشوقة .

تأمل شوق الأطفال للعب والحركة والتأمل والابتكار إذا كنت ممن يستفيد بحذق مما قدمه التاريخ . لا يوجد اعظم من هذا الاستثمار الذي يعمل على إبداع وابتكار النفوس الطليقة الفتية التي لا تملُّ من الاستمرار والإصرار العنيد على السير في طريق الإبداع ، وذلك حين يتم وضعهم على الطريق .

هذا العمل هو اعظم الأعمال قاطبة على مستوى العالم كله ، وقد ضرب عيسى عليه السلام مثلاً غاضباً ، حين قال عن الذين يكونون قدوة سيئة لهؤلاء الأطفال ، ويعيقونهم عن التزكية ، ويقومون بدلاً من ذلك بتدسيتهم ، وقال عنهم إنهم جديرون بأن توضع أحجار الرحى في أعناقهم ثم يقذف بهم في البحر .

تأمل في معنى قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 9/91-10] .

كيف نغفل عن هذه الآيات ؟ كيف نضلُّ عن التنبه والتأمل في هذه العبر ؟ كيف نكسل ونتلبد ويتملكنا اليأس ؟

إن الطاقة الكهربائية مبثوثة في كل مكان من العالم ، ولكن كيف سينتبه الإنسان إليها ؟ كيف سنكشف سبيل الرشاد لنسلكه ؟ كيف نخرج من حياة الفساد والغي والقهر والكراهية والإكراه إلى حياة الرشد والرشاد ؟

الرشاد !!.. الرشاد !!.. الرشاد !!..

ليس كشف الرشاد ككشف الكهرباء والتفنن في تسخيرها ، لكنه يعتمد على الاهتداء إلى كشف الإنسان ، إلى كشف القوى الكامنة في هذا المخلوق الأمثل ، القابل لأن يكون في احسن تقويم وأعلى عليين ، والقابل لأن يردّ إلى أسفل سافلين . إنه قابل لأن يعاق عن النمو والاكتمال ، وان يحال بينه وبين سعيه إلى الإبداع .

لقد عاش الناس طويلاً قبل أن تدخل الزراعة وتربية الحيوان حياتهم ، وعاشوا طويلاً وليس في حياتهم القراءة ، عاشوا طويلاً وليس في حياتهم الكهرباء ، والآن يعيشون وليس في حياتهم الرشد ، ولا يزالون معاقين عن أن يصيروا أو يبلغوا حياة الرشد ، وأن يستأنسوا بالرشد والرشاد .

كيف فقدنا الرشد في أنفسنا ، وكيف فقدناه في مجتمعنا ؟ كيف فقدنا الرشد في تربيتنا ، وفي سياستنا ؟

كيف دخل إلى ظننا إمكان أن يكون كل من السوط والعصا أساساً في تربيتنا المدرسية والبيتية ، وفي التعامل مع الناس في مجتمعاتنا ؟

لازلنا نردد مقولة : (عن العصا من الجنة) ، وكانت قبل ذلك الكلمة التي يقولها الأب للمعلم حين يأخذ طفله إليه هي : (اللحم لك ، والعظم لنا) .

كيف لم ننتبه إلى أننا نمسخ حياة هذا الطفل المسكين ؟ كيف نوحي إليه بان المعرفة لا تأتى إلا بالعصا والسوط ؟ كيف نشوه استعداداتنا ؟ كيف نؤسس الكراهية والإكراه في حياتنا من أول لحظة ، ونقمع الحب ، حب العلم ، حب الاستطلاع ، حب اكتشاف المجهول ، حب الغوص في الأسرار والأعماق ، حب الدخول والاهتداء إلى أعماق الأشياء المخبّأة .

إننا لم نصل إلى أعظم وأقدس ما وصل إليه إبداع الخلق ، ولم نستطع أن نزرع في النفوس حب التطلع والمعرفة ، هذا الحب الذي يتجدد مع كل مولود ، وإذا كان ثمة فطرة فهي فطرة حب تعرف المجهول .

هل يمكن لي أن أقول : إن كل الوسائل التي نتعامل بها مع هذا الخلق المبدع (الطفل) ، إنما هي وسائل تعيقه وتحرمه من إمكاناته ، وتقطع عليه الطريق ، وتستلبه ، وتشعره بالحرمان ، وتمنعه من النمو ، وتقتل حبه وتوجهه للاستطلاع .. إننا بذلك نوحي إلى الإنسان انه لا سبيل للإصلاح والإبداع ، وانه لا مناص له من التحول إلى الفساد والتخريب والتحدي .

إن البشر يفكرون في استغلال التراب والنبات والحيوان ، ولكنهم يفكرون أيضاً في إعاقة الإنسان وابتكار الوسائل التي تجعله يائساً ، وتضعه على طريق الفساد الذي يؤدي إلى الهدم لا إلى البناء .

إن الرشاد هو الاهتداء إلى السبيل التي تجعل الأطفال يستمرون في كشف المجهول بطرق متجددة في الإبداع ، لا تجعل لهم سبيلاً للملل والتبرم والشعور بان طرق الإبداع والمعرفة قد سدّت في وجوههم ، فإذا أبدعنا الخبرات الجديدة المتلاصقة فإنهم سيتعلمون بدون علل .

إننا بحاجة إلى أن نقدم للمتعلمين وسائل مشوقة ومحرضة لمساعدتهم على تقبل العلوم والمعارف الحديثة . إن هذا ممكن ، وهو يتحدى ذكاء البشر القائمين على التربية ، والتاريخ يعلمنا أن التبذير في الإمكانات يكون في البدء كبيراً ، وكلما تقدم الناس ، كلما زاد توجههم إلى الاقتصاد .

أثر المعرفة التاريخية في الإنسان :

إن الناس يكبرون ويهرمون ويموتون دون أن تتوافر لهم الظروف التي توقظ شوقهم إلى التكامل ، ولعلهم يقضون حياتهم كلها دون أن يشعروا ولو مرّة واحدة بالسعادة الغامرة التي يتمتع بها الإنسان حين يتعرف على التاريخ الماضي ، وعلى كيفية حدوث ما حدث ومعاناة الناس لما عانوه .

إن هذا الفهم يولّد حالة من الخشوع والاحترام والقداسة للحياة ، حالة من السّكر الذي يتحدث عنه الصّوفية الذين قالوا : « لو يعلم الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف » . كيف نصنع هذه البضاعة ؟ كيف نذيقهم طعم هذه الحالات والمقالات ؟ إنها ليست سحراً ولا خوارق ، بل هي أمور لها طرقها وسننها التي يمكن كشفها وإيصالها إلى الناس .

إن إيصال الإنسان إلى تعرف الماضي والأمور التي كانت خافية عليهم جميعاً ، وعلى كيفية إبداع الأشياء الجديدة ، وإيصالها إلى الناس ، عن فتح عين الإنسان وقلبه على هذا التاريخ ؛ يجعله يعيش في نور غامر ، ورؤية واضحة للعالم بشكل جديد ومبدع ، ومن تمكن من رؤية الإعاقة التي نُمارسها على أنفسنا ، وعلى أطفالنا ، سيصاب بالدهشة من الكيفية التي نصد بها عن سبيل الله ، وسيندهش أكثر إذا علم أن كل ما نريد الوصول إليه هو أن نقطع الطريق على الذين يريدون الوصول إلى الرشاد والسواء .

إننا لا نعرف معنى سواء السبيل ، ولا صراط المغضوب عليهم ، ولا نعلم الكيفية التي خلق الله بها عباده حنفاء .

إننا ضد التاريخ ، وضد أعظم ما أبدعه الله بسننه خلال التاريخ ، لقد نبذنا التاريخ بسهولة ، ولم نقم له وزناً ، ولم نر فيه إلا أكاذيب وحماقات تبعث النفوس على التقزز والغثيان إلى درجة الإغماء .

إننا لم نر كيف يصحح التاريخ نفسه ، وكيف يذهب بالزبد جفاءً ، ويحفظ ما ينفع الناس بكل دقة وأمانة .

احتفال القرآن بالمواقف التاريخية الصحيحة

إن القرآن يهتم بالمواقف الصحيحة ويبرزها ولو كانت فكرة شخص واحد في حضارة ضخمة ، وإن أصحاب هذه الحضارة لا يسجلونها ، انظر كيف سجّل موقف مؤمن آل فرعون : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) [غافر : 28/40] ، لقد ألغى القرآن فرعون وعمله وأتباعه ، وزكى رجلاً واحداً من كل هذا التاريخ .

نعم إن في التاريخ فساداً ، وسفكاً للدماء يتبع سفكاً ، ولكن فيه أيضاً النظر إلى ما حل بهؤلاء الغافلين المفسدين السافكين للدماء .

انظر إلى مؤمن آخر تحدث عنه الله في سورة (يس) : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [يس : 20/36-21] .

لقد سجل الله تعالى موقف هذا الرجل ، وهو بهذا ينتقي مواقف محددة ، أو موقف شخص واحد في حضارة بأكملها ليزكيه ، ولكن التاريخ المسجل لا يذكر موقف مثل هذا الرجل الذي أبدع موقفاً صالحاً وقابلاً لأن يكون بذرة لتطور جديد في الحياة القادمة .

بين النظر والانتظار

قد يكون التاريخ سجلاً لمراكز الشرطة التي لا تسجل إلا الأعمال القبيحة ، ولكن التاريخ هو الذي يفرز الزبد من النافع ، التاريخ هو الذي يحفظ النافع ويلغي الضّار ، التاريخ هو الذي يفصل بين الحق والباطل ، التاريخ هو الزمان والمكان الذي تتجلى فيه سنة الله في الإبداع والتقدم إلى الأفضل ، التاريخ هو معرفة البدء ، هو معرفة الأول ، هو معرفة النماء والتحول والتغير ، إنه معرفة الكيف ، والكيف هو التحول والصيرورة ، وكيف بدأ الخلق ، التاريخ هو الماضي والحاضر والمستقبل ، التاريخ هو الذي يجعلك تصل إلى معرفة الغيب (القَبل والبَعد) ، فمعرفة القبل تفرض عليك التدبر والتفكر في البعد ، في الكيفية التي ولد بها علم المستقبل ، والكيفية التي يولد فيها التفكير في الغيب ، فكيف يبرز التفكر في المستقبل ؟ إنه يبرز من

انظروا إلى الحاضر الذي هو أمامكم واربطوه بالماضي الذي هو خلفكم ، اربطوا (انْظُروا) بـ (انْتَظِروا) .

كيف نتعلم الوصل والقطع ؟ كيف نتعلم أن لا نقطع ما أمر الله به أن يوصل ؟ كيف نفهم المرجعية ؟ كيف نفهم معنى العلم والعقل ؟ كيف نكشف أن الحق مرجعه إلى التاريخ ، إلى عواقب الأمور ؟

التاريخ وفرز الحق من الباطل

الحق ليس هو ما في ذهنك وتصورك ، الحق هو المصير ، هو المنقلب ، هو العاقبة ، هو الموجود في الواقع ..

الحق ليس تابعاً لتصوراتك الذهنية ، ولا عبرة بما في ذهنك إذا م يستند إلى أدلة في الواقع ، والناس قد يصلون إلى درجة إنكار الحق ، وقد يصابون بالحيرة والالتباس من كثرة الاختلاف في التفاسير والمذاهب والرؤى ، وقد يصل بهم الأمر إلى اليأس من وجود الحق ، ولكن لا يخطر في بالهم أنه لا معول على ما في الأذهان من تصورات ، وأن المعول عليه إنما هو المصير والعواقب ، فإن لم يكن لك علم بالعواقب ، فلا علم لديك ، وإذا كنت لا تعلم العواقب فلا تدعِ امتلاك العلم : (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء : 36/17] .

إنك إن لم تملك معرفة بالعواقب ؛ فما عندك لا يعدو أن يكون أهواءً وظنوناً وتخرصات .

العواقب إنما تظهر في التاريخ ، والقرآن يرجع إلى التاريخ ، والمرجعية بحسب القرآن هي للتاريخ وعواقب الأمور .

ما في ذهنك ليس من الضروري أن يكون علماً ، إذ قد يكون وهماً ، ولذلك لا يكون ذهنك حكماً في التمييز بين الخطأ والصواب من الأمور التي في ذهنك أو في نفسك ، فالذهن يجمع الحقائق والأوهام ، ويخلط الحق بالباطل ، وأما الذي يفرز الحق من الباطل ، ويغربل الأوهام من الحقائق هو غربال التاريخ ، والقانون فيه هو أن الزبد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض ، وليس غير التاريخ شيء يمكنه أن يفرز الحق من الباطل ، ولهذا فإن الله تعالى في كتابه قد جعل التاريخ مرجعاً . لكن بعض الناس يظنون أن التاريخ هو ما يكتبه الناس مما في أذهانهم ، إلا أن التاريخ ليس كذلك ، ليس التاريخ هو الكتب ، لأن الكتب قد تكون مليئة بالخرافات ، والتاريخ هو ما يذهب بالخرافات جفاءً ، وهو ما يُبقي ما ينفع الناس .

كم مرّة ينبغي أن نكرر أن مرجعية القرآن هي التاريخ ، هي عواقب النزاعات ومصيرها ؟

بدون التاريخ لا يوجد علم ولا عقل ، وكل علم أو عقل لا يعتمد على التاريخ ؛ لا يعدُّ علماً أو عقلاً ، بل هو وهم مهما كثر أتباعه وطال بقاؤه .

إن مصيره إلى الزوال والفناء ، والبقاء هو للنافع الذي سيمكث في الأرض .

كم هو ملتبس هذا الموضوع ؟ كم هو صعب وسهل في آن واحد ؟ كم هو قابل للغموض ، وكم هو بحاجة إلى تجلية وتوضيح ؟

لن تكون هناك مرجعية ما لم يكن هناك ميزان أو مكيال ، وحيث لا يوجد مقياس لا يمكن أن يكون هناك حق أو باطل ، وما تراه حقاً مبيناً ، قد يراه الآخر باطلاً مبيناً .

لقد اخضع الله ذاته وأنبيائه وكتبه ، للقانون الذي يتجلى في الواقع ، وبدون الواقع والعواقب فإن الله الحق لا يتميز من الله الباطل ، والنبي الحق لا يميز من النبي الباطل ، ولا يميز الكتاب الحق من الكتاب الباطل . كل هذه الأمور من ثمارها تعرفونها . وإننا حين نجعل العواقب والثمرات هي المرجع للحكم والتمييز ، نكون قد بدأنا بالإمساك بشيء يمكن أن يخضع للتمييز ، للميزان ، للقسطاس ، للمكيال ، للإحصاء ، للعد ، للكيف .

القرآن والتاريخ :

لماذا يهتم القرآن بتاريخ الأولين ويقول لنا : (لنْظُروا) إليهم وإلى الذين سيأتون من بعد ؟

إن الحق والقانون ، (الميزان والقسطاس) ، السنَّة ، لن تضيع لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل .

المناخ الذي يتمتع فيه جسدك بالاستقرار محصور ضمن درجات حرارة معينة ، ولا بقاء لجسدك خارجها ، سواء كان ذلك ارتفاعاً أو انخفاضاً ، برداً أو حراً .

المناخ الذي يتمتع فيه جسدك بالاستقرار محصور ضمن درجات حرارة معينة ، ولا بقاء لجسدك خارجها ، سواء كان ذلك ارتفاعاً أو انخفاضاً ، برداً أو حراً .

القانون ، السنة ، الميزان ، القسطاس ، الإحصاء ، كلها وسائل لتمييز النافع من الضار ، والذين لا يعرفون التاريخ لا يمكنهم أن يقدسوا لله ، ولا أن يقدروه حق قدره ، ولا أن يعزروه ولا أن يوقروه ، لأن عظمة الله تتجلى في خلقه وإبداعاته في خلقه لا في مكان آخر ، والقرآن يردنا إلى النظر إلى الخلق وعواقب الأمور ، واكبر الأخطاء والخطايا التي ارتكبها المسلمون ويرتكبونها ، أنهم لا ينظرون إلى العواقب .

والمسلمون بشر ، وقد يكون ظنهم صحيحاً ، وقد يكون خاطئاً ، وقد يفهمون الحق وقد يخطئون في فهمه ، إذا لم ينظروا إلى خلق الله ، والكتب لا يمكن أن تكون مصدر هداية إن ألغى الناس النظر إلى عواقب الأمور وسنن الخلق ، والكتاب يمكن أن يضل وأن يهدي ، فمن لا يعرف التاريخ يضل فيه وبه ، ومن يعرف التاريخ وعواقب الأمور يهتدي به : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ) [البقرة : 2/26-27] .

كيف نقطع القرآن عن العواقب ؟ كيف قطعنا ما أمر الله به أن يوصل ؟ كم مرّة أشرت إلى أهمية التاريخ في كتاباتي وأحاديثي ، وكم وجدت أن الناس لا يعرفون التاريخ ، ولا يفهمون إلا أنه الأشياء التي يكتبها الناس في مدح حكامهم ، وفي تزيين الباطل ؟

المسلمون والتاريخ :

إنني أندهش كثير اً حين أكتشف أن التاريخ (أيام الله) يفهم فهماً خاطئاً ومبهجاً من قبل المسلمين ، الذين يتصورون أنه مجرد أكاذيب وفواحش ودجل وخداع ، ولا يعرفون أنه مختبر سلوك البشر ، ومجال فرز الحق من الباطل ، وميزان الفوز من الخسران .

إنهم يندهشون أيضاً حين أقول لهم : إن التاريخ ليس هو الكذب والدجل ، وإنما هو المصير الذي يؤول إليه الكذب أو الصدق .

في الحقيقة هم لا يعرفون التاريخ ، ولا يدركون النور الذي ينبثق من الظلمات ، ولذلك فهم يعيشون في الكذب من أدنى المستويات إلى أعلاها ، ويشعرون باليأس والشك والمقت والحرمان .

هذا الطغيان والدجل والكذب يحمل بعضنا على مقابلته بالانفجار والتفجير أو الكذب المقابل ، ويسجل بهذا الأسلوب الانتحاري احتجاجه على الكذب .

التاريخ ليس أكاذيب ودجلاً ، التاريخ هو معبد ذي الجلال والإكرام ، هو محكمة الخالق العظيم التي تحاسب الناس ، لا تحاسبهم على ما في أذهانهم من الأهواء والظنون ، ولا على ما تخيلوه من السراب ن وعاقبة السراب لا يمكن أن تكون ماءً أو ظلاً : (حَتَّى إِذَا

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [النور : 39/24] ، التاريخ محكمة الحساب السريع ، نعم الحساب السريع في الدنيا قبل الآخرة .

إن من لا يعرف التاريخ ، ولا يحدق فيه ، يظن ويتوهم أنه لا يوجد حساب ، ولذلك فهو بطيء محبط ، أما الذي يعرف التاريخ ، فإنه يشعر بمعنى سرعة الحساب ، الحساب الذي نعيشه نحن في عصرنا هذا ، يشعر بهذا من درس الأزمان التاريخية ، والأحقاب الجيولوجية ، وكيف كان سيرها بطيئاً مملاً ، وكيف صار التاريخ الآن بتسارع مستمر .

كيف نأخذ بأيدي الناس إلى معبد التاريخ ، إلى الخشوع ، إلى الجلال والجمال ، إلى إبداع الخالق العظيم ، إلى نبضات القلوب ، وإلى خفقات النفوس ، إلى الأجنحة التي تهفو للطيران ، إلى ما في جوانحنا من شوق وتوق للعلو والصعود ؟

كيف نقترب من لحظة التجلي ؟ كيف تقترب من لحظة ابن خلدون الذي قال : « التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول .. وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، .. وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة .. » .

ماذا أكتب هنا ؟ عن أي مفتاح أبحث ؟ أين هو الضوء ؟ ما هي الأرضية التي أحاول أن امهد عليها ؟ ما هذا التاريخ ؟ أي شيء هي هذه المرجعية التي أريد أن أستبدل بها المرجعية الحديثة ؟ ما معنى المرجعية ؟ عن أي شيء أبحث ؟ كيف سأجعل للتاريخ معنىً مقدساً ؟ لأي شيء كنت أسعى حين ذكرت سابقاً أنه علينا أن نتعلم أن نقرأ القرآن قراءتين اثنتين ، قراءة أساسها أن التاريخ من صنع الله ، وقراءة أساسها أن التاريخ من صنع البشر ؟ ما هي الأشياء التي أريد أن أعرّف بها ، وما هي أدوات المعرفة التي امتلكها ؟ أي قرون استشعار عليَّ أن استخدم للدخول إلى معنى التاريخ ؟ ما ثمن الدخول إلى معنى التاريخ ؟ هل الدخول إلى هذا المعبد ميسور ؟ ما هي الطرقات التي ينبغي علينا أن نسلكها كي يسمح لنا بالدخول إلى حرمه ؟ لماذا كانت مكة بوادٍ غير ذي زرع ، ولماذا وضعت حولها المواقيت التي لا يجوز لقاصد الحج أن يعبرها إلا مُحْرِماً ينشد نشيد الحج ؟ ألا يمكن للإنسان أن يزور حرم التاريخ إلا بشق الأنفس ؟ ما هي الهدايا التي اعتاد عليها في حياته كلها ؟ هل عليه أن يخرج من المحيط ؟ هل عليه أن يرجع إلى الوراء وينزع عن نفسه الأوزار من زينة القوم التي يحملها على ظهره ، هل عليه أن يخرج من الرفث والفسوق والعصيان ؟

التاريخ والحجة الإبراهيمية

كيف ندخل معبد التاريخ ، ما هي شروط الطهارة ؟ ما هي طقوس هذا المعبد ؟ متى وضع مخطط هذا المعبد ؟ من الذي شيد أسسه ، ومن الذي سيفرش أرضه ؟ كيف سنطهر هذا المعبد الذي صار مركزاً للأوثان والأرجاس والغوايات ؟ متى سيحل الرشاد فيه ؟ متى سنعرف كيف وضعت أسسه ، وما هو تاريخه ؟ متى سنفهم أذان إبراهيم عليه السلام ؟ ماذا كان يُبنى في مصر على يد الفراعنة حين بنى إبراهيم عليه السلام البيت الحرام ؟ إبراهيم الذي وضع المرجعة التي يمكن من معرفة الحق والباطل ، والنافع من الضار ، وذلك حين قال لقومه : (ما هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) [الأنبياء : 52/21] ، (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) [الشعراء : 69-74] .

كأنهم يقولون : نحن لا نبحث الموضوع على أساس النفع والضرر ، نحن نبحثه على أساس ما وجدنا عليه آباءنا .

لماذا الآباء مصدر المعرفة ؟ لماذا كان الاقتصار على أعمالهم دون النظر إلى عواقب أفعالهم ؟ لماذا لا زال الآباء مصدر معرفتنا ؟ كيف نستطيع أن نجعل الآباء مصدراً للمعرفة الصحيحة ؟

حين نحاكم أعمالهم إلى ميزان التاريخ الذي يذهب الزبد فيه جفاءً ، ويمكث في الأرض ما ينفع الناس .

حين قال الصوفية قوله المشهور : « من لا شيخ له فشيخه الشيطان » ، فإن هذا القول ليس باطلاً كله ، بل إن نصفه صحيح ، إذ لا يمكن لأحد أن يتعلم الحروف الهجائية بدون شيخ ، بدون أستاذ ، بدون أب ، فالأب والأستاذ ضروريان ، وإلا كان علينا أن نعود بالتاريخ إلى ما قبل كشف الآباء للحروف الهجائية .

ولكن ، في الوقت نفسه ، لا يجوز لنا أن نقف عندما وصل إليه الآباء ، وإلا بقينا على سفك الدماء وذبح الأبناء ، ولم ندخل إلى ملة إبراهيم الذي أبطل القربان البشري ، أو فتح باب إلغاء القربان البشري .

المقصود هو : كيف نستفيد من الآباء دون أن يتحولوا إلى أغلال في أعناقنا وآصار على ظهورنا . وكما قال مالك بن بني رحمه الله: « ليت الأثقال التي على ظهورهم ندفنها معهم حين موتهم ، ولكننا نحولها إلى ظهورنا » .

وعلى كل فإن المثل القائل : « رُمي الطفل مع ماء غسيله » يذكرنا بضرورة تمييز الحق من الباطل ، فإن لم نميز نحن ، فإن الله سيفعل ذلك ، وهذا قانونه الذي يذهب الزبد جفاءً ، ويُبقي في الأرض ما ينفع الناس ، ونحن إذا تعلمنا نستطيع أن نتعلم من النصيحة ، فيكفينا بطل وضحية واحدة ، بدل آلاف الضحايا التي نحصدها دون أن نعتبر بها .

يقول الله تعالى عن إبراهيم : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) [الأنعام : 83/6] ، ويقول : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ) [الأنبياء : 51/21] .

لقد وضعت حجة إبراهيم على قومه في هذه الآية السهلة البسيطة القريبة : (هل يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟) إن الحجة الإبراهيمية هي النفع والضرر .

المقدس النافع

سئلت مرّة عن المقدس ، ما هو المقدس ؟ فقلت : المقدس هو النافع .فقيل لي : أليس القرآن هو المقدس ؟ فأجبت : أليس القرآن هو انفع النافعين ، وأهدى الهادين ؟

إن حجة إبراهيم هي التي تفرّق بين الحق والباطل : (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ) [الرعد : 17/13] .

كيف نرسم خريطة معالم التاريخ ؟ كيف نتبين الرشد من الغي ؟ كيف نميز الحق من الباطل ؟ كيف نميز النبي الصادق من المتنبئ الكاذب ؟ كيف نعرف الدين الحق من الدين الباطل ؟ كيف يلتبس هذا بذاك ؟ من الذي يفصل هذا عن ذاك ؟ متى يكون يوم الفصل ؟ إنني أبحث يوم الفصل الدنيوي ، والذي يأمرنا الله بانتظاره : (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ) [هود : 121/11-122] .

إنني أكتب كالغشيم الذي يضرب في خضم هذا العالم المضطرب الناطق الصامت ، وليس عندي برشامة أو كبسولة تجعلك بمجرد ابتلاعها عالماً بالتاريخ ، ولا امسك بميزان الحرارة لأقول لك : أنت في درجة حرارة كذا .

إنني أسعى لأضع اتجاهاً جديداً في التفكير ، ومرجعية للعلم والمعرفة ، وأريد أن أحدق في كتاب الله الذي أنزله ، وفي العالم الذي خلقه ، ولا يغني أحدهما عن الآخر .

العواقب المعجلة والعواقب المؤجلة

لولا الكتاب ما بدأ التاريخ ، ولا خرج الناس من التوحش ، ولولا أحداث العالم ما أمكن فهم الكتاب ، فعين على الكتاب وعين على أحداث التاريخ ، والعواقب هي التي تميز النافع من الضار ، والصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، وإذا كان هذا صعباً ، فإن الثمن الذي يطلبه الإعراض عن هذا الطريق هو الذي سيلوي أعناقنا ، وسيضطرنا لقبول النافع طوعاً أو رغماً عنا ، وإذا لم تصدقوا فما عليكم إلا أن تعيدوا التجربة السابقة ثلاث مرات أو أربعاً أو عشراً ، ولن يملّ الله حتى تملّوا ، ولن يغيّر قانونه حتى تغيروا ما بأنفسكم عن الله وسننه .

الناس جميعاً يدركون العواقب السريعة ، فالطفل الذي يمد يده إلى النار يتعلم ألا يفعل هذا مرّة أخرى ، هذا الأمر سهل الرؤية لدرجة أنه من السخف أن نذكره ونسوقه للاستشهاد به . ولكن بعض العواقب لا تظهر مباشرة ، بل تحتاج إلى انتظار ، وتحتاج دورة ظهور نتائجها إلى مدّة تتفاوت كثيراً ، وحتى إذا ما برزت وظهرت ، فإنها قد تخفى على الذين لا يجمعون أحداث التاريخ، ولا يصلون ما انقطع منها ،

إن انقطاع الصلة ، لا ليس حسناً أن نقول : انقطاع الصلة ، بل الأقرب إلى الصواب أن نقول : إن عدم رؤيتنا لارتباط الأسباب بالنتائج يجعلنا ننفي السننية وننكر القانون والميزان .

لقد تنبّه إلى هذا سكينر حين بحث موضوع النتائج المؤجلة أو المعززات المؤجلة ، وكذلك تنبه إلى ذلك توينبي حين بحث دورة الحضارة ، يشعر بذلك عندما درس نماذج عديدة بغية الوصول إلى قانون انهيار الحضارات وتحللها .

إن عمر الحضارة ليس كعمر الأفراد أو الدول والإمبراطوريات ، وإن دورة الحضارة ليست كدورة الإلكترون ، ولكن هل نقول : إنها مثل دورة المجرة ؟ إن المجرة لتحتاج إلى آلاف السنين لتكمل الدورة الواحدة .

هل لا أزال أبحث مذهب ابن آدم ؟ هل يحتاج فهم مذهب ابن آدم إلى كل هذه المفاهيم التي أبحثها ؟ ألا يكفي أن نقول : « كن كابن آدم » وكفى ؟ أو أن أقول : أنا على مذهب ابن آدم ؟

كان التاريخ يسير ببطءٍ شديد ، وقد اقتضى وضع الآباء والأبناء في الميزان وقتاً طويلاً ، وكان النبي يأتي ويذهب دون أن يتمكن من إقناع رجل واحد ، وقد ورد عن رسول الله r قوله : « يأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد ، ويأتي النبي ومعه رجل واحد ، ويأتي ومعه الرجلان ، ويأتي ومعهُ ما يسد الأفق ، وارجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

التاريخ يتسارع الآن بوتيرة عالية ، فقديماً كانت الحضارة الصينية تعيش وليس لدى أهل مصر شيء من أخبارها ، وحضارات أمريكا لم تكن معروفة البتة ، وحين وصل الناس إليها أزالوها بدل أن يتعرفوا عليها !!..

الدخول إلى معبد التاريخ

كيف سندخل معبد التاريخ ؟ ما هو مقدار الخشوع الذي نحتاج إليه للوقوف في صفوف المتعبدين فيه ؟ هل في هذا المعبد صفوف ، أم فيه أفراد قلائل ، رجل ورجلان ؟!..

هل يمكن لنا أن نعرف مقدار هذا المعبد ، ومقدار قداسته ؟؟..

أريد أن أقول لك : عن هذا المعبد هو المرجع الذي يرجع إليه القرآن ، ويجعله مصدراً للمعرفة ، وحين جعل القرآن التاريخ مصدراً ومرجعاً ؛ لم يعد الناس بحاجة إلى أن ينزل عليهم كتاب آخر ، ولا أن يأتيهم نبي آخر (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) [الحشر : 2/59] ، (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي الألْبَابِ) [يوسف : 111/12] ، ومن لا يقدس هذا المرجع ، ولا يبالي به ، فلن تبكي لهلاكه الأرض ولا السماء ، وإن لم تصدقوا فانظروا إلى الذين يدفعون الأثمان الباهظة من الدموع والدماء وحسرات الآباء والأمهات ، على أبناءهم المقتولين أو المفقودين أو المعوقين ، وحسرات الأبناء والبنات على آبائهم وإخوانهم ، وحسرات النساء على أزواجهم .

انظروا إلى الأموال التي يخسرونها في سبيل طريق لا يأتي منه نفع ، وكان بإمكانهم أن ينفقوها على المعرفة ، وعلى العلم ، وعلى الفقه في الدين ، وعلى معرفة يوم الدين في الدنيا والآخرة ، وعلى معرفة يوم الدينونة ، يوم يدفع الناس الديون .

إن الذين لا يعتبرون يغرقون في الديون ، وكذلك الجاهلون الخاملون .

---

[1] نحوه أخرجه احمد (158/3) وابن ماجة في الزهد ، باب : صفة امة محمد r ، رقم (4284) عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه .

اكشفوا قانون الديون ، اكشفوا سنة الله في الديون والدينونة ، اكشفوا الارتباط الكائن بين الأسباب والنتائج ، اكشفوا معنى استعاذة رسول الله r من غلبة الدين وقهر الرجال .

من أين ينشأ الدين ؟ ما هي نفسية كل من الدائن والمدين ؟ ما معنى قهر الرجال ، وقهر الأمم والشعوب ؟ أين نعيش نحن ؟

إننا لا نعرف قيمة المعرفة ، ولا معنى التفقه في الدين ، ولا مشكلة الديون في العالم الفقير ، ولا ندري من أين ينشأ الفقر .

الفقر ليس هو الإفلاس من الدرهم والدينار ، الفقر الحقيقي هو الإفلاس من تزكية النفوس التي : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 91/9-10] .

الفقر والإفلاس الحقيقي هو الجهل بالتاريخ وسننه وآيات الله في خراب الأمم وهلاك القرون والشعوب ، ونحن بانفصال شديد عن المعرفة ، ولا يكفي أننا لا نعرف ، بل إننا لا نعرف أننا لا نعرف ، وحتى حين يسألني بعضهم : ماذا تقرأ ؟ أصاب بالعجز ، ولا أستطيع أن أقول : اقرأ كذا وكذا ، لأن الأشياء المكتوبة والتي ينبغي أن نُرشد إلى قراءتها لازالت كسحر فرعون ، الذين كانوا يرهبون الناس .

كان محمد إقبال حين يصل إلى هذه النقطة يقول مخاطباً به : أنت تغلي السعر والأيدي خواء . وكأني به ينظر إلى ما ينبغي أن يُنفق للحصول على المعرفة ، كان يرى أن الثمن الأول غالياً ، وأول من يحصل على المعرفة ؛ يحصل عليها بالصدفة ، ولكن الذي يأخذها بعد ذلك لا يأخذها بالصدفة ، بل يأخذها بالجهد الواعي .

كيف سنعرف مشكلة المعرفة ، مشكلة الوعي ، مشكلة الفقه الأكبر ، الفقه في الدين ، الفقه في الدينونة ، فقه الجزاء والعواقب ؟؟!.. أين فقهاء العواقب ؟

حين أتذكر العقبات التي تقف أمامنا ، والعقد المتراكمة حولنا ، والسدود والأسوار التي تمنعنا من الدخول إلى المعرفة والفقه ، وتحجزنا عن التأمل والتدبر والتذكر ، وتحول بيننا وبين أن نصل ما أمر الله به أن يوصل ، حين أتذكر كل هذا أشعر بأننا لم نعد نستطيع أن ندفع مراكبنا إلى الأمام ، وأننا فقدنا النور الذي ينبغي أن نرى فيه طريقنا ، وأشعر أن علينا أن ندفع ثمناً غالياً للحصول على المعرفة ، أو للشعور بان طريق المعرفة ليست مفتوحة أمامنا .

إننا لا نقبع في الجهل فقط ، بل نخاف من المعرفة ، لأننا نحمل وهماً عن الفقه والفهم والإدراك ، ونسيء الظن بالله ، ونجعل أصابعنا ف آذاننا ، ونستغشي ثيابنا ، ونصر ونستكبر استكباراً .

كيف نكشف هذا الوهم الكبير ؟

إننا نظن أن الثمن الذي تتطلبه المعرفة كبيراً جداً ، هذا الوهم هو الذي يشعرنا بالفقر ، ونحن فقراء بالمعرفة فعلاً .

كأنني ألامس المشكلة من بعيد ، ولكن كيف أكون قريباً منها ؟ كيف أوصل إليك ما رأيت ؟ أنت معذور ، إذا لم يأتك رسول و لم تبلّغ الأفكار عن رسول .

مذهب بلال ومذهب ابن آدم

أين أنت يا بلال ؟؟

أخبر الناس بأحوالك ، هل أنت مثل سكر الصوفية ؟ ما نوع سكرك ؟ هل أنت مسحور ؟ هل أنت أسطورة ؟ هل أنت خارق ، هل أنت ممكن أم مستحيل ؟ متى سنتعلم منك سرك وسر من صنعك ؟ ولكن من الذي صنعك ، الله أم محمد ؟ هل أستطيع أن أفهم شيئاً ما فيك صنعه الله ، وشيئاً آخر صنعه محمد r ؟ هل أنت مثل سائر الناس وسائر النفوس ؟ هل أنت داخل في قوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 91/7-10] .

هل أنت خارق يا بلال ؟؟ هل أنت معجزة ؟؟

أريد أن أعرفك ، أريد أن أحللك ، أريد أن أفكّكَكَ ، أريد أن اكشف سّرك ، أريد أن أنشر مذهبك .

كيف أدخل إلى مذهبك يا بلال ؟ ما هي خصائص مذهبك ؟ هل أنت سُنِّي أم شيعي أم معتزلي أم تنويري أم أرثوذكسي ؟ هل أنت آدمي ؟

دعوني والهوى يغتال عقلي فعقلي أن اجن بكم جنوناً

أنت سرّ الله ، فيك سرّ آدم وحواء ، أنت حامل الأسرار ، أنت مستودع النبوات .

هل أنت من المبشرين بالجنة ؟ هل سمع رسول الله صوت نعالك في الجنة ؟

أخبرني يا بلال عن مذهبك ، عن دينك ، عن سرّك ، عن عرقك ، ما الذي جعلك تجن جنونك بمجرد أن آمنت بمحمد ؟ ماذا رأيت فيه ؟ هل أستطيع أن أرى ما رأيت ؟ ألا تحسب حساباتنا ؟ ما هي حساباتك ؟ مع أي (كمبيوتر) كنت تتعامل حين اتخذت القرار الصعب ؟ كيف حسبت إمكاناتك ؟ كيف تجاوزت العزوة العشائرية وأنت لا عشيرة لك ولا مال ولا عيال ، وأنت الغريب المملوك ، هل يكمن سرك في فقرك ؟

اعذرني يا بلال لأنني أتحدث عنك ، بما أسأت إليك ، ولكنني أشعر أن سرّك ينبغي أن يكشف ويذاع ويعلن بين كل السود والفقراء والمحرومين ، وأشعر انه ينبغي أن يفهمك كل البيض والأغنياء والمترفين .

أنت يا بلال بحاجة إلى اكتشاف ، أظن أم جلال الدين الرّومي كان يبحث عنك حين كتب المثنوي ، في كل أناته ، وفي كل ما أخرجه نايه من حنين وأنين ، واعتقد أن إقبالاً كان يريد أن يقترب منك ، حين جعل مولانا جلال الدين الرومي أستاذاً وشيخاً له .

حين خرج الرومي هائماً على وجهه ، يبحث عن شمس الدين التبريزي ، هتف قائلاً : أنا لم أكن ابحث عن شمس ، أنا كنت ابحث عن ذاتي . لقد كان يبحث عنك دون أن شعر ، وآنا أبحث عن شيخ ، عن صوفي ، عن صاحب قلب ، ولكن سعيي وقف عندك في النهاية .

من ذا الذي سيتابع سعيي في التعرف عليك ؟ أنت تحمي نفسك بالجهل ، بالظلام . إن العالم اليوم يعيش في الظلام ، فكيف نتعلم النفخ في الصور ؟ كيف نتعلم إحياء الأموات .

ليست المعجزة الحقة في أحياء الأجساد التي فقدت الحياة ، وليس هذا ما نسعى إليه ، ولكننا نسعى إلى أحياء موتى الأفكار ، موتى العلم والفقه والفهم ، موتى الإدراك .

كيف نخلعُ الأوثان ؟ كيف نزيل الرعب ؟ كيف نبعث الأمن ؟ كيف نقترب من (مملكة بلال) ؟ كيف نفهم بلالاً وكيف نحلله ؟ كيف نخرج بلالاً من عالم الأسطورة والغيب ، إلى عالم الحضور والشهادة ؟.

يا بلال ! هلاّ علّمت الناس ما حلّ بك ، وما حصل لك !!..

ما السرّ الذي احتوى عليك صدرك ؟ من أنت يا بلال ؟ هل أنت فيلسوف ؟ هل أنت عالم تاريخ ؟ بماذا آمنت ؟ ما نوع إيمانك ؟ ما الشيء الذي رأيته وغاب عن الناس ؟ هل خرجت من بطن أمك حاملاً العلم والمعرفة ؟ هل أنت معجزة ؟ ألست مثل سائر الناس ؟ ألست داخلاً في قوله تعالى : (أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تعْلَمُونَ شَيْئًا) [النحل : 16/ 78] ؟.

ممن تعلمت وماذا تعلمت ؟ هل يكن أن تخبرنا بسرك ؟ هل لديك سر ؟ هل يمكن أن تكشفه ؟ هل ذهب هذا السرُّ بذهابك أم أبقيته للعالم من بعدك ؟ كيف اختزلت فيك رسالات الرُّسل ؟ كيف تحديت فلسفات الفلاسفة ؟ من أنت يا بلال ؟! ومن الذي يستطيع أن يخبر عن سرّك ؟ هل أستطيع أن ادعي أنني اطمع في أن أكشف سرّك للعالم الذي غابت عنه فلسفتك ورؤيتك ؟ هل أنا مجنون حتى ازعم لنفسي أنني أدركت سّرك ، وأنني أطمع في أن انشره وأذيعه بين الناس ؟ هل أنت كأبي الهول لا يكشف سرّك ؟

لست سرّاً يا بلال ، بل أنت علانية ، وستصير بضاعتك قابلة للتداول . أنت عينة من مصنع معين ، أنت لست معجزة ، أنت تخضع للقانون والسُّنَّة ، لست مستحيلاً ، أنت ممكن يا بلال . إنهم لا يفهمونك ، إنهم يظنون موقفك عجزاً عن الدفاع عن النفس ،

وضعفاً ، واستكانة ، يظنوك مسكيناً لا تفهم الصواب ، ويعتقدون أمك لو سلكت طريقاً آخر كان أفضل ، يظنون انك لو لم تعلن إيمانك لكان أفضل ، ولكن هل فهموا إيمانك ؟ هل فهموا بماذا آمن ؟

من الكاتب الذي سيكتب عنك يا بلال ، يا سيدنا ، يا بن باح ؟ إنني أُسيء إلى اسمك ، وإلى إيمانك بمحاولتي تناولك وتحليلك وتفسيرك وتأويلك ، وإذاعة سرك .

كيف ستعلم العالم الأسود المضطهد دروسك ؟ كيف ستعلم الأحرار معنى عبوديتك ؟ كيف نقتبس من نورك ؟ كيف استطعت أن تفهم ما غاب عن الناس ؟ كيف استطعت أن تصير أعظم اقتصاديي العالم ؟ كيف ميزت الربح من الخسارة ؟

عن العالم اليوم يهتم بالاقتصاد ، ولكن ما معنى الاقتصاد ؟ الاقتصاد هو اختزال الجهد والوقت ، وتكثير المردود .

لقد ضربت يا بلال المثل في الاقتصاد ، وتجاوزت كل نماذج الاقتصاد في العالم ، ضربت المثل الاقتصادي الأعلى في صناعة الإنسان ، في تحويله ، في تغيير ما بنفسه ، فماذا حلّ بنفسك ، وما الذي تغير فيها ؟ هل أستطيع أن أفهمك وأن أبلغ عنك ؟

لقد وقف الرومي وتحادث مع شمس الدين ، وقال بعد ذلك متعجباً مما عند شمس :

هذه النار فما قصتها أحرقت ما عندنا وقدتها

كيف يُحَوَّلُ الإنسان ؟ كيف يوقظ ؟ كيف يُختزل الإيقاظ والتحويل ؟ كيف تختزل التربية ؟ كيف يختصر الزمن ؟ كيف يضاعف الإنتاج في مجال التربية والتغيير ؟

إن هدف الكون إبراز الخير والأبقى ، فكيف يُمُّ زمن الخير النافع ، وكيف يختصر زمن العناء ؟

بلال وتغيير كا بالأنفس

أيكون اكتشاف الأسلوب الذي به تم تحويل بلال وتغييره ؛ سبيهاً إلى باكتشاف النار ؟ كيف اكتشف الناس النار ؟

كانت النار توقد تلقائياً في الطبيعة ، ثم بدأ الإنسان ينتبه إلى اشتعال النار ، ثم تعلموا إشعالها ، ولكن كم استغرق الإنسان من الوقت حتى تعلم إيقاد النار ؟ هل نستطيع أن نتأمل هذا الأمر ؟

هل كان ظهور بلال ، كالاشتعال التلقائي للنار ، أم أنه كان تحولاً من الإيقاد التلقائي إلى الإيقاد الصناعي ؟ما شان الكهرباء ؟ كيف كانت ظواهر الكهرباء في الطبيعة ؟ كيف كان الإمساك بها صعباً ؟ كم من الوقت الطويل احتاج اكتشاف الكهرباء وتسخيرها ؟

هل نستطيع أن نقلص زمن التحويل والتغير والتربية ؟ ما هي الجهود التي ينبغي أن نبذلها لتحويل الإنسان ؟

أمامنا تعرض نماذج من التحويل والاختزال التلقائيين ، فالطفل الذي كان يولد قبل عشرة آلاف عام ، مثل الطفل الذي يولد الآن ، وما يتعلمه خلال السنوات الخمس الأولى من حياته تلقائياً ، هو اختزال لجهود الناس خلال عشرة آلاف عام ، إنه يمتص خبرات ومعلومات السابقين خلال خمسة أعوام . هذا من ناحية اختزال التربية التلقائية ، وتحويل الطفل في الصغر بحيث يحتوي تجربة عشرة آلاف عام . ولكنّ قصة بلال لم تبدأ من الطفولة ، بل هي عملية تحويلية أعقد وأصعب ، ومع ذلك فهي عملية ليست خارقة .

هذا ما ينبغي أن نراقبه ونكشف سنته وآليته ، إنه تغيير لما بالأنفس ، وباستطاعتنا أن نضيئه ونضيء احتمالاته ، ونزيد أو نخفض هذه الاحتمالات ، وهذا معنى قوله تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية : 13/45] .

هل لي أن أدعي كشفت أموراً ، واقتربت خطوات ، وتقدمت مسافات في هذا الطريق ؟

يقول إقبال :

ما فشى ذا السر غيري في البشر لم يثقّب ناظم مثلي الدُّرر

كانت النار قديماً تشتعل تلقائياً ، دون أن يعرف البشر سنتها ، ولكن للنار سنة يمكن الإمساك بها ، وإذا أمسكناها استطعنا تكرارها كلما أردنا .

كيف سأنقل إليك ما يداعب خيالي ؟ كيف سأجعلك تصاب بالعدوى ، عدوى العافية ، عدوى الصحة ؟ إن العدوى إنما تكون من طرف واحد ، ولكن حيث لا يمكن أن يصاب المريض بعدوى الصحيح ؛ لا يمكن جعل الصحة عدوى في الأمراض الجسدية ، أما قانون الصحة النفسية ؛ فهو قابل لتحقيق العدوى ، لأن قانون الأنفس ساري المفعول في الاتجاهين : فالصحة النفسية تعدي ، والمرض النفسي يعدي أيضاً . القانون الجسدي يسير باتجاه واحد والقانون النفسي الفكري يسير باتجاهين .

اليأس والكفر

هذا من الزيادة في الخلق ، والخلق يزداد ، والزيادة إلى الأنفع ، ومن هنا يمكن أن يقال : إن طاقة البناء تغلب طاقة الهدم ، وإذا جاء الحق زهق الباطل : (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً [الإسراء : 18/17] ، (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [سبأ : 49/34] .

ليس القانون أن يجيء الباطل فيزهق الحق ، ولا أن يجيء الباطل فلا يبدئ الحق ولا يعيد .

كم هي المسافة التي تفصل بين الاعتقادين ، وبين الفكرتين ، وبين الفهمين ؟ كم هو جميل ورائع وبديع أن نصل إلى يقين بأن مجيء الحق يزيل الباطل ، بدل أن نعتقد العكس ، وبدل أن تعتقد أن الباطل أبدي وسرمدي ، ولا يزول بمجيء الحق . عند هذه النقطة يحصل الافتراق بين الكفر والإيمان ، بين الحق والباطل ، بين التفاؤل والتشاؤم .

لماذا اليأس قرين الكفر ؟ (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ) [يوسف : 87/12] ، (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ) [الحجر : 56/15] .

صحيح أن الدخول إلى عقيدة التفاؤل في فهم الكون ليس سهلاً ، لكن الكون مبني على التفاؤل في التقدم إلى الأنفع من يوم أن خلق الله أول الكائنات الحية إلى الإنسان الذي قال الله عنه : (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون : 14/23] .

قف عند هذه النقطة وحرر موضوعها ، لا يكفي أن أقول لك : اعتقد بهذا الرأي إن لم تر ذلك في الواقع ، إن لم تر التاريخ على هذا الوضع .

إن الاعتقادات الصغيرة المتشائمة تصور الكون لعنة وفساداً وخراباً ، ولكنه إبداع مستمر .

انظر إلى الكون وحدق فيه جيداً ، لترى كيف يتسارع التاريخ باطراد ، وكيف يُلِّد النجاحُ النجاح ، والأملُ الأملَ ، الأمل ليس نابعاً من الأهواء ، بل هو نابع من التاريخ ، من الواقع ، من الخلق .

كم نعيش في حيرة وظلام ويأس وضلال وقنوط ؟!!..

اختبر الناس ، وسوف تجد أن ضياع الاعتقاد الصحيح بنظام الكون يجعل الموقف مأساوياً ، ومتَّسماً بالعجز والكسل والكآبة .

انظر إلى وجه اليائس كم هو بئيس ، وانظر إلى وجه الفاشل كم هو تعيس ، وانظر إلى وجه الناجح كم هو برّاق العينين مُشرق .

اليائس يرى إمكان التغيير بعيداً أو مستحيلاً ، فكيف تستطيع أن تفهمه أنّ التغيير ليس بالخوارق أو المعجزات ، وأن مجرد ظهور إمكان الحلّ ، حتى قبل ظهور الحل ، سيبعث الحياة في نفس الإنسان ، وسيوجهه لحل المشكلات بعزيمة لا يمكن إيقافها ، بينما لا يمكن وضع اليائس على طريق العمل ، لأن اليائس يولّد القنوط ، وقد يُحدث اليأس الانفجار عند اليائس ، نعم اليائس ينفجر ، وبدل أن ينقذ نفسه وينقذ الآخر ، فإنه يدمّر نفسه ويدمّر الآخر ، وقد يشتبه عمل اليائس بعمل الإنسان الذي يعرف السُّنَّة ويتقدم على بصيرة .

كم تلتبس علينا هذه الأمور ، وكم تغيب عن أبصارنا وعقولنا ؟؟!!..

هذا الأمر هو ما جاء به الأنبياء ، لأن التغيير ينبغي أن يكون بوعي وبصيرة ، والتغيير الذي يكون على بصيرة يتصف بالهدوء والإصرار والاستمرار ، أما اليائس الغامض فيتصف بالانفجار ، ويسعى إلى الاختباء في الظلام ، والانقطاع عن الآخر .

إن هذا الموضوع ملتبس ومحير ، وحتى حين نبدأ بإبصار الضياء ، ونشعر بقدوم الفجر ، فإن الغموض يظل مختلطاً بالوضوح ، لأن الفجر لا يولد فجأة .

ربما يكون سعيي كله متجهاً نحو جعل العمل الإسلامي على بصيرة ، ولأكشف طريقاً قليل النفقات ، كثير المرود ، يختصر الزمن والجهد ويحسّن النتائج ، فكيف نكتشف هذا الطريق ، وكيف نمشي عليه ؟ أيكون كل ذلك مستحيلاً ؟ إن هذا الأمر بحاجة إلى سعي ودأب ، وإلى تمرين متواصل .

محمد إقبال أصابني بالعدوى ، وكذلك مالك بن نبي ، وكل منهما كان يرى رؤيا مختلفة عن الناس ، ولكن كيف ننتبه إلى هذه الرؤى المختلفة ؟ كيف سأشرح ما أحس به ؟ لماذا يصعب علينا نقل العدوى بالصحة الفكرية والنفسية ؟

رحمك الله يا إقبال حين قلت : لو كان جنوني قوياً لأصبتك بالعدوى ، وماذا يفعل الجنون البارد :

ومَزَّقْتُ الجيوبَ وأنت خالي جنوني لا ألومك في قصوري

سيأتي الحق ، وسيزهق الباطل ، سيجيء الحق ، ولن يتمكن الباطل من الحركة ، وسيتجمد ، ولن يستطيع أن يبدئ أو يعيد .

هل نستطيع أن نمهد السبيل لمجيء الحقب ؟ هل يمكن أن نصف الجمال والجلال ؟

هل أستطيع أن أبين أن ما أتحدث عنه ممكن وقريب ، وأن الوهم المتراكم هو الذي يحول بيننا وبين الفهم ؟ هل سأصل إلى درجة انفجار اليائس ؟ لا ، أريد انفجاراً آخر ـــ، لا أريد انفجاراً ملوثاً ، فهل نستطيع أن نصنع انفجاراً نظيفاً ؟ أليست مشكلة العالم الآن انهم لا يتمكنون من إنتاج طاقة وظيفة ؟ وحتى مخلفات الطاقات القذرة يصعب التخلص منها ، ولا نعود نعرف أين علينا أن نلقيها .

الجنون والسحر والرحمة والعذاب

كان جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي يناجي نفسه ، وكذلك كان محمد إقبال بن نبي ، حين كانوا يبحثون قضية ما ، وأنا أيضاً أناجي نفسي . هل أجرؤ على مناجاة الذات ؟ هل يمكن أن أرفع صوتي ؟ هل أجرؤ على الجهر بالجنون ؟ متى نصير واثقين بحيث لا نخاف ولا نستحي من إعلان الجنون ؟ متى نفهم الجنون ؟ متى نفهم بأينا الجنون وبأينا المفتون ؟ كيف سنحول الجنون إلى سحر ؟ لماذا كان الأنبياء يوصفون بالجنون والسحر ، وما العلاقة بين الجنون والسحر ، وما هو الشيء الخارج عن الجنون والسحر ؟ ما معنى الجنون ، وما معنى السحر ؟ وإذا لم يكن الأنبياء مجانين أو سحرة ، فماذا يكونون ؟! .

أقصى الجنون يصل إلى التدمير ، وأقصى السحر يصل إلى الاستلاب الكامل والسيطرة ، والنبوة ليست تدميراً ، وليست استلاباً ، بل هي رحمة ، قال **r** : « أنا رحمة مهداة »[1] ، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء : 107/21] ، رحمة حتى للذين لا يؤمنون بك ، ولكن ما هي الرحمة ؟ إنها التنمية ، إنها توفير الجهد والزمن ، وزيادة المردود ، هذه هي الرحمة ، والكون كله مخلوق على قانون الرحمة ، وكلما عرفنا قانون الكون اقتربنا من الرحمة ، من هدف النبوة التي دعت إلى الإيمان بالله الرحمن الرحيم ، الذي سبقت رحمته غضبه .

هل نستطيع أن نرى الرحمة في الكون ، أم أن علينا نرى العذاب دائماً ؟؟!.

أليس من الجنون أن ترى الرحمة في الكون عذاباً ، أو أن نعمى عن طريق الرحمة ولا نبصر إلا طريق العذاب ؟

---

[1] رواه الحاكم (35/1) والقضاعي في مسند الشهاب ، رقم (1160) والطبراني في الصغير (95/1) وإسناده حسن .

إن قانون الكون مخلوق على الرحمة ، وقانون الحياة يسير على الرحمة أيضاً ، وحتى الحيوانات فإن نموها وتناسلها يسير على الرحمة ، الأمومة رحمة وحنان وشفافية ، لا فظاظة وغلظة .

كيف يمكن لنا أن نفهم أن النبوة رحمة ؟ كيف كشف الأنبياء ؟ كيف نكون ورثة الأنبياء ، وكيف نكون رحماء ؟ كيف نعرف الشقاء والعذاب عن الناس ، وكيف نرحمهم ونزيل عنهم الآصار والأغلال ؟

لم يأت الأنبياء بالآصار والأغلال ، بل جاؤوا بالرحمة ، جاؤوا ليرفعوا الآصار (الأثقال) ، والأغلال ، والسلاسل التي تقيد أعناق الناس وأيديهم وأرجلهم ، جاؤوا لتعم الرحمة الجميع ، وليرفع العذاب عن الجميع ، وليكسب الجميع دون أن يخسر أحد شيئاً .

الأنبياء والرحمة

كيف خفي علينا ما جاء به الأنبياء ؟ كيف حولنا الرحمة إلى عذاب ؟

إنني أقول كلمة وأكررها ، وهي : إن عهد الأنبياء لم يأت بعد إلى حياة البشر ، لأنهم جاؤوا وبشروا بحياة لم تكن موجودة ، ثم ذهبوا ، ولكن ما بشروا به سيأتي ، والعالم مندفع إليه رغماً عنه ، والقرآن دائماً يبشر بأن الحق سيأتي وسيظهر ، وانه رغم الفساد الذي يعيش عليه الناس ، إلا أن الصلاح قادم ، وإذا لم تقبلوا أنتم ؛ فإن الله سيأتي بقوم يقبلونه .

كنت أقول ، ولا أزال أقول ، وسوف أظل أقول : إن ما دعا إليه الأنبياء لم يتحقق بعد في واقع البشر ، ولكنه سيتحقق وسيظهره الله على الدين كله .

لقد جاء الأنبياء ليتنافس الناس على فعل الخير ، ولكننا حولنا دعوة الأنبياء إلى تنافس على فعل الشر ، فمن أشد منا قوة في قهر العباد ؟ من أشد منا قوة في الاحتفاظ بالامتيازات ؟ من اكثر من استلاباً ، وأشد قهراً ؟

كيف حولنا الرحمة إلى عذاب ؟ كيف قطعنا أرحام البشر ، كيف مزقنا بني آدم ؟

إن الذي يمزق رحمة الأقرب ، لا يمكن له أن يرحم الآخر الأبعد ، أليس بأسنا - نحن المسلمين - بيننا أشد ؟ أسنا نخاف من بعضنا أكثر من خوفنا من أي عدو آخر على وجه الأرض ؟ ماذا حلّ بنا في حرب الخليج ؟

من دلالات حرب الخليج

إن حرب الخليج ، تلك المأساة العظيمة ، من أكبر الأدلة والبراهين والحجج ، وإذا كان للأدلة معنى ، وللبراهين قيمة ، وللحجج سلطان ، فإن حرب الخليج هي الفاضحة الواضحة ، إن حرب الخليج من أيام الله الكبرى والعظمى ، إنها عذاب ومأساة حيرت النفوس ، وصدمت العقول والألباب ، إنها الصادمة ، إنها القارعة ، إنها الحاقة ، لقد أخرست الأسنة ، وحيرت الأفئدة ، ولم يستفق الناس منها بعد ، إنها أعظم حدث ، لأنها أبرزت المرض الذي كان خافياً ، بشكل فاضح ، المرض الذي اختمر خلال التاريخ الطويل فكان انفجاره عظيماً ، لقد كان مرضاً كامناً متوطناً ، وكان مرضاً خطيراً ، ولازالت بذوره كامنة .

لقد كان مرضاً ضخماً وعنيفاً ، ولكن بروزه بعنفوانه وسطوته ، أتاح ظهور العلاج الكئيب الكالح على أعظم ما يكون الظهور .

بئس المرض وبئس العلاج ، فقد كان العلاج كئيباً ، بقدر ما كان المرض فادحاً ، وقد كان الدافع إليهما حقداً وبغضاء وكراهية وتوحشاً ، ولم يكن فيه شفقة ، ولا صلة لرحم العشيرة ، ولا فائدة لرحم بني آدم ، بل كان تقطيعاً لكل الأرحام القريبة والبعيدة .

لقد جاء الأنبياء بالرحمة ، جاؤوا ليخففوا العذاب ، وليضيعوا الأثقال ، ولكننا نسلك سبيل العذاب والأثقال وإهلاك الحرث والنسل .

هل هذا هو سبيل من أرسل رحمة للعالمين ؟ هل هذا هو سبيل الرشد ؟ هل هذا سبيلٌ للرحمة أم للحقد والكراهية ؟

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف : 146/7] .

(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) [هود : 78/11] ، أليس في المثلات اعتبار ؟ أين من يكشف الغطاء ؟ أين يبرز الصواب ؟ أين الرشاد ؟ هل تبين الرشد من الغي ؟ هل هناك رشد ، وهل هناك شيء قريب إلى الرشد ؟ ما هو الرشد ؟

القراءتان وصرف الإنسان عن الآيات

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) ، ما معنى سأصرف ؟ وكيف يكون الصرف ؟ هل نستطيع أن نمسك بقانون الصرف ، وهل للصرف قانون ؟ متى يُصْرَف الإنسان عن الرؤية ؟

كيف يضحك الإنسان ، كيف يقهقه ويهتز ؟ متى يضحك الإنسان ، وما قانون الضحك ؟ متى يبكي الإنسان وما قانون البكاء ؟ (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) [النجم : 43/53-44] .

هل نتذكر القراءتين ؟ كيف نقرأ (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ) ؟

لماذا صرفَ اللهُ عن آياته ؟ وماذا عمل الإنسان حتى حدث الصرف ؟

ما أرى ، وماذا سمع الإنسان حتّى ضحك أو بكى ، وماذا صنع الله حتى أضحك وأبكى ؟

ما هو الحدث الفكري الذي يؤثر في الحدث الحيوي ، وما الرابط الذي يصل بينهما ؟

ما هو الحدث الفكري ، وما هي الصورة الذهنية التي تُحدث الصرف عن الآيات والاستهزاء بها والضحك منها ؟

أمراض الفكر وجراثيمه

ما هو الحدث الفكري ، الذي يُحدث الإقبال والإصغاء والسمع والخشوع والبكاء ؟ هل هذه خوارق وفوضى ، أم هي نظام دقيق ؟ كيف نكشف الجرثوم ، وكيف نعتقله ونحجمه ونسيطر عليه ونحمي أنفسنا منه ؟

لقد عالجنا مرضنا القديم بمرض أشد بأساً وأشد تنكيلاً منه ، فكيف نتخلص من المرض القديم والمرض الجديد ؟ متى نكف عن علاج المريض بقتله بدل قتل المرض ؟

إننا حريصون على المرض ، نقدسه ، ونحرص على قتل المريض بدل علاجه ، فمتى نكف عن قتل المريض المصاب بالمرض الذي نحمله جميعاً ؟

إننا بقتلنا له نصدر على أنفسنا جميعاً حكم القتل ، مهما بدا لنا هذا المريض بغيضاً ، فإننا لا نميز بين المرض والمريض ، المرض مستوطن وجرثومته عند الجميع ، ونحن لا نفكر في المرض أبداً ، بل نفكر كيف نقتل المريض .

إننا نقدس المرض ونحافظ عليه ، ونخاف من زواله ، ونحمي عوامله وندافع عنها إلى درجة الموت في سبيلها .

نعم ، إننا ندافع عن المريض ونحميه ، إلى درجة أننا على استعداد للدفاع عنه حتى الموت .

كيف نكشف هذا الجرثوم المتلوث الخبيث ؟ الذي يغتال الفهم ، ويحمي نفسه بقوة الخفاء والتمويه والتلوث ، وإذا كانت الجراثيم الكائنات الحية تختفي عن الأبصار ، فإن الجراثيم الفكرية أشد خفاءً وتلوناً وتمويهاً وتقلباً ، هذه الجراثيم تتحدى المناظير ، وتتحدى أهل البيان والمصلحين ، وتضحك منهم .

لقد وصف ميشيل فوكو هذا الجرثوم ، فقال على لسانه : « أنا لست حيث ترصدني ، أنا هنا حيث أضحك منك وعليك » ، وهذا الكلام يصف الحقيقة لأنها خفية أيضاً .

كأن الجرثومة تلعب معنا لعبة (الطميمة) ، تختبئ عنا ، وتجعلنا نتوه ونطاردها مطاردة الأشباح ، إنها كالشيطان الذي يستطيع أن يختفي اختفاءً كاملاً ، وقد تحدانا نحن البشر ، إنه يرانا ونحن لا نراه ، لا نراه ولكننا نرى تخريبه وفساده والأشلاء التي يتركها : (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ) [الأعراف : 27/7] .

إن الشيطان يتلبس علينا ، ويضحك منا ، ويغرينا ويغوينا .

نعم لدينا أناس يخرجون الشياطين ، ويعالجون المرض التعساء الذين أصيبوا بالأمراض النفسية ، وهم مبثوثون في كل البلاد الإسلامية ، في طولها وعرضها ، إنهم يُفْرزون تلقائياً وطبيعياً ، لا يتخرجون من الجامعات ، بل يتخرجون من جامعة الثقافة العامة التي تعمل ذاتياً . ولكننا ، نحن المثقفين الذين يقال عنا إننا من إنتاج الثقافة الحديثة المتطورة ؛ لسنا أفضل ولا أقرب إلى الرشد في علاج شيطان التخلف الذي يضحك منا ويقهقه ، حين نظن أننا تخلصنا منه بالحداثة والفهم ، وفي الحقيقة نحن لم نتخلص إلا من اسمه ، أما وظيفته وفعاليته فقد زادت وقويت ، وكما يقول محمد إقبال : « إن الشيطان أخذ إجازة طويلة حيث مثقفو العصر الحديث يقومون بدوره في معالجة الذين يتخبطهم الشيطان من المسِّ » .

أين باستور الجراثيم الفكرية ؟ هل توجه منا أحد لسلوك سبيل يؤدي إلى المعرفة ، وإلى الكشف في هذا المجال ؟!..

يقول سكينر : « لو جاء أرسطو وأفلاطون وجالينوس ، وحاولوا أن يقرؤوا صفحة واحدة في الرياضيات والبيولوجيا والأمراض الجسدية ، لأصيبوا بالدهشة ، ولما تمكنوا من تفهمها إلا بعد وقد طويل من التأمل ، ولكن لو جاء سقراط وديوجين ، وحاولا قراءة كتب السياسة والأخلاق والقانون الدولي ، فإنهما لن يجدا صعوبة في فهم هذه الكتب ، ولما وجدا تقدماً عنهما في فهم المشكلات القديمة ، ولوجدا أن الناس لا زالوا في المكان الذي تُركوا فيه » .

لماذا لم نستطع تجاوزهم في موضوع الأخلاق والقانون الدولي ؟ ألأن هذه المواضيع غي قابلة للفهم ؟

لا ، ليس الأمر هكذا ، بل لأن المنطق الذي ننطلق منه في بحث المشكلة هو منطق خاطئ ، وسكينر تقدم فعلاً في هذا المجال ، وبدأت قرون الاستشعار لدى الفلاسفة تتلمس مجالاتٍ جديدة ، وإن كانوا لم يقتربوا من منهج الأنبياء أبداً ، وحتى حين يقودهم التأمل والتتبع إلى ما هو قريب من منهج الأنبياء ، فإنهم يقولون : إنه الجنون ، هل يمكن لنا أن نفكر في الجنون .

الفصل الرابع
الغيرية والجنون الأعظم

انظر إلى كلمات فوكو ، تأمله وهو يقول : « إن قدرة المحلل النفسي على فهم المرض العقلي لمريضه محدودة فالتحليل النفسي يستطيع أن يفكَّ عقدة بعض أشكال الجنون ، لكنه يظل بعيداً عن (عمل الجنون الأعظم) » وينهي كلامه عن الجنون بعدد معين من الإشارات إلى شكل أساس من الغيرية ، يخرج عن متناول العقل والعلم ، ويبدو خفية أنه سبب إمكانيتهما ، فهو يلمح إلى لمعان شعراء مثل : أرثو ، هولدرلين ، نيرفال ، الذين نجوا بطريقة ما من هذا السجن المعنوي الهائل ، واستشفّوا تلك التجربة الأصلية للغبارة التي تستجوبنا أبعد من حدود المجتمع .

يتساءل فوكو عما إذا كانت هذه الغيرية بداية معارضة جذرية للثقافة الغربية ، وتتضح هذه الإشارة إلى غيرية عميقة تفتح التاريخ وتتجنبه ، تتضحُ بالنسبة إلى التحليل الذي يجريه لاحقاً ، فهو يتصور هذا البحث عن تجربة أصلية تقع خارج التاريخ .

إن هذه المحاولة الفلسفية مميزة لأكثر أشكال الفكر الحديث تقدماً ، ولكن هذا الفكر محكوم عليه بالفشل ، لذلك فهو يسعى إلى اكتشاف طرائق أخرى غير اللجوء إلى تخوم أنطولوجية لا يمكننا حتماً بلوغها ولو كانت تحدونا ، من أجل تبيان حدود معرفة الإنسان بشان وجوده ، وبالتالي حدود العلوم الإنسانية ومهامها .

وينضمُّ فوكو إلى تلك القلة من المفكرين النادرين الذين استشفّوا (عمل الجنون الأعظم) ، إلى أن يقول : « وليس تحريفاً كبيراً للنص أن نستبدل عبارة (جنون) بعبارة (كلمة الله) » [ميشيل فوكو مسيرة فلسفية / 17-18] .

ما معنى هذه الكلمات ؟

بحسب مدى خيالاتي ، فإن هذه الكلمات تحتوي تلخيصاً كبيراً لسير الفكر الإنساني :

أولاً : حديثه عن المرض الفكري والمرض العقلي ؛ ليس حديثاً عن مرض عضوي ، وكلمة (مرض) قد تجعلنا نتيه ، لأننا نحملها على الحالة التي تجعل صاحبها مصاباً بالهذيان وإنه لصعب حقاً أن نفهم أن العالم كله مريض ، ولهذا فهو يطلق كلمة (المرض) أو (الجنون) ؛ (الجنون الكبر) أو (الجنون الأعظم) .

فمثلاً : حين يقول الرسول r لأبي ذر : « اكسر قوسك واقطع وتره واضرب سيفك بالحجارة »[1] ، هذا الحديث صحيح من ناحية آليات النقل التي وضعها المسلمون ، ولكنه من الناحية الفكرية الإسلامية والبشرية عامة جنون ، وجنون أكبر أيضاً ، ولهذا كان على الناس أن يحكموا على هذا الحديث بالموت ، وفعلاً حكموا عليه بالموت ، ظناً منهم أنه لا يليق برسول أن يقول مثل هذا القول .

أنا هنا أتحدث عن آلية التقبل لأحاديث الرسول r ، وشروط قبولها عند المحدثين ، ولا أتحدث عن آلية الأمانة ، وعن آلية الرفض الموجهة إلى الذي لا يعجبنا ، إن هذه الآلية صعبة وخفية صعبة الكشف والإحاطة والتتبع ، والثقافة تقوم بأدوار عجيبة في السماح أو المنع ، في القبول أو الرفض للأحاديث والأفكار والمفاهيم ، وتتحكم الثقافة حتى في معاني القرآن .

ثانياً : حديثه عن الغيرية التي تخرج عن متناول العقل والعلم . ما معنى الغيرية التي يتحدث عنها فوكو هنا ، ويقول : إنها خارجة عن متناول العقل والعلم ، ما هو العقل ، وما هو العلم ؟ ما هي الغيرية وما هو الإنسان ؟ ما هو المرض ، ما هو مرض القلب ، وما هو الشيء الذي يكون خارجاً عن العقل والعلم ؟

شغلتني هذه الأسئلة كثيراً ، ومن اجلها كتبت كتاب (اقرأ) ، وفيه قلت : إن العقل والعلم الشائعَيْن عند المسلمين وعند الغربيين ، ليسا العقل والعلم اللذَيْن في القرآن ، وكان هاجسي أن أضع تعريفين جديدين لكل من العقل والعلم .

وحين فهمت التاريخ ، وأدركت سُنَنَه ، عرفت أنه هو الذي يفرز النافع عن الضار ، ويذهب بالزبد جفاءً ، ويُمكث في الأرض ما ينفع الناس .

هذا الأسلوب في الحكم على أحداث التاريخ عبر إحصاء العواقب ، سهل التجاهل ، وطالما تجاهله الناس ، ولا يزالون يتجاهلونه :

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) [الشعراء : 26/72-73] .

النتائج المعجلة والنتائج المؤجلة

إن ظهور نظرية التعزيز في علم النفس كان تطبيقاً لنظرية العواقب ، والعواقب المعززة ، ولكن العواقب الفورية تختلف عن العواقب المؤجلة والتعزيزات المعجلة ليست مثل التعزيزات المؤجلة وكلما كان التأجيل طويلاً ؛ كان الانتباه صعباً ، ولهذا فإن المستعجلين لا يصبرون على العمل للوصول إلى العواقب المؤجلة التي تحتاج إلى مدى زمني بعيد ، وحب العاجلة أمر مسيطر على البشر ، والصبر على النتائج البعيدة المؤجلة يحتاج إلى نوع من الوعي يختلف عن الوعي النوعي الذي لم ينتبه إليه الذين لا يراقبون الأحداث إلا قليلاً ، وقد انتبه إلى هذا ابن المقفع ، وجعل من أمارة صحة العقل درك الأمور بعواقبها ، والناس يتساوون في حب ما يوافقهم ويعززهم إيجابياً ، وكراهية ما يضرهم ويعززهم سلبياً ، ولنهم يتفاوتون في الصبر على النتائج المؤجلة ، وهذا هو الفرق بين العجز والكَيس .

فوكو والتاريخ

وفوكو يتجه اتجاهاً براغماتياً باستيحاء ، حث إنه متأكداً من الموضوع تماماً ، ولكنه بدأ يضعه في الحسبان ، وقد قال عنه الذين كتبوا كتاب مسيرة فلسفية أنه : « إلى حد كبير ، يمكننا أن نعتبر أن عدمية فوكو معتدلة دوماً ... إن فوكو كفرد عادي ليس أكثر

---

[1] رواه الترمذي في الفتن ، باب رقم (33) رقم الحديث (2205) وأبو داود في الفتن ، باب النهي عن السعي في الفتنة ، رقم (4259) وهو حديث صحيح .

ولا أقل عدمية من أي شخص آخر في ثقافتنا » [فوكو ، تورطه في التاريخ ، وبإعلانه الطابع البراغماتي لمشروعه ، يتنصل فوكو مما كان يشكل بالنسبة إليه جزءاً من المشكلة ، أي التاريخ التقليدي » [فوكو ، مسيرة فلسفية / 110] ، ثم يقولون : « هكذا إذ يستعيد فوكو كل الطرائق الأخرى ، يستخدم الطريقة الوحيدة التي لا يزال بوسعه اللجوء إليها ، التفسير التاريخي المتجه نحو التحليل البراغماتي » [فوكو ، مسيرة فلسفية / 111] ، وكذلك يقولون عنه : « لا يمكن أن يصدر التفسير إلا عن شخص يشارك الفاعل ممارسته ، لكنه في الوقت نفسه يبتعد عنها ، وعلى هذا الشخص أن يقوم بعمل تاريخي صعب ، يشتمل على تشخيص التاريخ وتحليله ، وعلى تنظيم ممارسات عصره الثقافية ، ويفضي هذا العمل ، بفضل توجه براغماتي ، إلى تفسير لترابط الممارسات الاجتماعية » [فوكو ، مسيرة فلسفية / 114] ، ثم يقولن عنه : « ... لكن فوكو بتحويله العلم الفيبري (نسبة إلى فيبر) إلى تحليلية نسابية ، يطور طريقة تحليل دقيقة تولي قدراً من الأهمية للدراسة البراغماتية .. ويؤكد فوكو أن الممارسات التاريخية الخلفية التي تجعل العلم الاجتماعي الموضوعي ممكناً ، لا يمكن أن تشكل مادة نظرية موضوعية تكون متحررة من كل سياق ومن كل قيمة » [فوكو ، مسيرة فلسفية / 150] .

لقد قالوا عن فوكو بأنه عدمي معتدل ، لأنه انخرط في نسابية نيتشة الذي نقلنا عنه سابقاً أن التاريخ : « ليس إلا وقائع عداوات دنيئة وتفسيرات مفروضة بالإكراه ، تستتر وراءها أحقر الغايات ، وان الله نفسه (الحقيقة) هي كذبتنا الأقدم » .

حين يقرأ الدارسون الذين لا قدرة لهم على التعامل مع الواقع إلا من خلال ترداد ما قاله الباحثون ، ولا يستطيعون أن يقوموا ببحث مستقل ، عن أمثال هؤلاء حين يقرؤون أن التاريخ عبارة عن أكاذيب ، وانه ليس علماً ، وان العالم لا هدف له ولا توجد حقيقة ، والوجود كله وهم في وهم ، وخاصة حين تكون الأكثرية من هذا الطراز ، هؤلاء لا يملكون قدرة على تمييز الخطأ من الصواب ، ولا النافع من الضار ، وحتى الكلمات التي نقلناها عن فوكو لا توحي بأهمية التاريخ ، ولا تفيد بأنه المرجع الوحيد للحكم على الحقيقة أو الاقتراب منها ، بل إنه بكل الخوف يقول : ربما يكون الاتجاه اتجاهاً تاريخياً براغماتياً ، وإن كلمة براغماتي كلمة مثقلة بالإدانة سلفاً ، لأنها توحي بالانتهازية النفعية ، في الحقيقة يمكن أن يُفهم هذا الفهم ، لأن التاريخ كانت تسيره الدوافع القريبة ، أو المنافع العاجلة ، وقلَّ من كان يستطيع أن يفكر ويكشف المنافع الآجلة ، والنفعية مدانة لأن الأخلاق والمقدس ينبغي أن لا يكون نفعياً ، والتاريخ المقدس ما ينبغي أن تحكمه النفعية ، والإخلاص لله ينبغي أن يكون خالياً من النفعية ، لا أن يكون النافع والنفع هو الذي يبقى ، وحتى التصور الأنفع عن الله هو الذي سيبقى ، لأن تصورك الذي تجده في ذهنك عن الله هو الذي سيؤدي بك إلى حصاد النتائج والعواقب : (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ) [فصلت : 23/41] ، (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [آل عمران : 154/3] .

الله الكتاب ، النبي ، الدين الحضارة ، الثقافة ، كل هذه الأمور مبنية على مقدار النفع الذي ينتج عنها .

قانون الخير والأبقى :

انظر كيف يختلط المقدس بالدنس ، وكيف ننظر إلى النفعية على أنها دنس ، ولا نتذكر أن النفع هو الذي سيبقى ، والأقل نفعاً هو الذي سيُنسخ ويذهب جفاءً ، إنه قانون الله ، النفع ينسخ الأقل نفعاً ، هذا القانون يحكم واقع الحياة ، حتى في مستوى القلم الذي أكتب به ، فإنه سيُنسخ إذا جاء ما هو خير منه وانفع ، فإذا كانا متماثلين في النفع والجهد ، فلا ناسخ هنا ، ولا ينسخ أحد المتماثلين الآخر .

القانون العام الحاكم على كل الجهود والآراء والمعتقدات والأديان هو قانون الخير والأبقى ، هو قانون الزبد ، القانون الذي لا يرحم الزبد ويذهبه جفاءً في كل المستويات .

حين بحث محمد إقبال ، في كتابه تجديد التفكير الديني ، في موضوع القانون ، أو الميزان الذي يحكم به على قيمة ثقافة ما أو حضارة أو دين ، أوضح أن الميزان إنما يكون بالنظر إلى نموذج الإنسان الذي تنتجه الحضارة أو الثقافة أو الدين ، ومقدار الخير الذي ينتج عن إنسان الثقافة يحكم عليها .

هذا هو الذي أريد أن أنبه إليه وأكشفه ، وهو ما جاء به الأنبياء ، وهو الذي سيضطر الناس راغمين إلى قبوله خلال التاريخ ، سيضطرون إلى قبول الأنفع (الخير والأبقى) ، وحتى الحكم على موضوع توحيد الله وأهميته ؛ ينبغي أن يكون على أساس النفع الذي ينتج من التوحيد .

إن ما بحثناه حتى الآن هو موضوع التاريخ والعواقب والإحصاء على أساس الأنفع والأبقى ، ولكننا لم نبحث النافع على أساس الامتداد المكاني ، فما بحثناه هو الامتداد الزماني والعواقب المؤجلة ، الدائمة أو الأطول بقاءً .

ينبغي أن ننبه الآن إلى أن النافع الذي نبحثه ليس هو النافع لشخص أو أسرة أو جماعة معينة ، وحين يصير امتداد النافع مقتصر على هذا الأساس ، فإنه بدل أن يكون النافع هو القانون للصلاح ، يكون هذا النافع قانوناً لتفوق بعض الناس ، فهو ينفع بعضهم ويضر أغلب الناس . هذا الفهم للنفع يكون سبباً لفساد العالم والأديان والحضارات والثقافات ، ويكون النفع الذي قام على أساسه الوجود سبباً لفساد الوجود .

العدل والمساواة في القانون

لا بد من تفصيل هذه القواعد والقوانين وتوضيحها ، لا يكون قانوناً وقاعدة إن لم يطبق على الجميع ، وقبول الناس للقانون لا يقوم على أساس مقدار العدل الكائن فيه ، بل على مقدار ما يعم الناس ، فالناس قد يتحملون قسوة القانون ، ولكنهم لا يتحملونه ولا يحترمونه ما دام هناك من هو فوق القانون : « إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » [1] ، هذا هو سبب هلاك الحضارات السابقة ، وهو سبب هلاك الحضارات الموجودة الآن ، والتي ستوجد في المستقبل ، ولن تبكي لهلاكهم الأرض ولا السماء .

إن حق النَّقض (الفيتو) في أكبر مؤسسة عالمية سيكون سبباً لهلاك هذه المؤسسة ، لأنها باعتماده تكون مبنية على شفا جرف ، وما أهلك الحضارات التي حافظت على الامتيازات ، سيهلك الأمم والدول المبنية على الاحتفاظ بالامتيازات ، والتي لا تقيم العدل بين الناس : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) [النساء : 58/4] ، أن تحكموا بالعدل بين الناس جميعاً .

إن الذين يخشون تطبيق العدل بين الناس جميعاً سيسقطون ، وسيسقط بنيانهم من القواعد ، وسيخر عليهم السقف من فوقهم .

إن الكفر والشرك هو عدم المساواة بين الناس ، وكما تنبه فوكو إلى أن : « الطريقة الوحيدة التي لا يزال بوسعه اللجوء إليها هي التفسير التاريخي المتجه نحو التحليل البراغماتي » ؛ فإن بعض الفقهاء المسلمين تنبهوا إلى أن الدولة العادلة تبقى وإن كانوا يلامسون دعوة الأنبياء ، واتجاه التاريخ ، وهدف الوجود ، واستخدام طاقات الإنسان على أفضل وجه في الكفاءة والمردود والعاقبة .

إن البراغماتية كلمة متهمة ، والنفعية كلمة مقتية ومدانة .

كيف يكون الأمر الواحد مصدراً للخير والشر في آن واحد ؟

هذا هو الذي يجعل الأمر ملتبساً ، ولعل كلمة الإنجيل في هذا الموضوع توضح هذا أيضاً حين قال : « الحجر الذي رفضه البناؤون صار حجر الزاوية » .

الخير اللحظي والخير الأدوم

حين يسرق اللص فإنه يبغي لنفسه الخير والأبقى ، ولكن الخير والأبقى الذي يعمل له لا يتجاوز الخير اللحظي والمتعة القريبة ، وهو لا يستطيع أن يحسب النتائج الأبعد والعواقب المؤجلة ، إنه يستبعد من حساباته العواقب البعيدة ويتناساها ، وكل الأفراد

---

[1] رواه البخاري في الحدود ، باب : إقامة الحدود على الشريف والوضيع ، رقم (6415) ومسلم في الحدود ، باب : قطع السارق الشريف وغيره ، رقم (1688) .

والجماعات والحضارات والأديان التي لا تفكر في الخير والأبقى ، ولا تفتش عنه ، ستهلك ، ولا زالت البشرية في تاريخها الذي عاشته وتعيشه ، محكومة بظن النجاة من العواقب ، ولا زال الناس لا يحسبون حساب التاريخ ، أو أن تفكيرهم لا زال على طريقة القائل : ليبق الملك ما بقيت ، وبعدي فليكن الطوفان .

إننا لم نهتم بالتاريخ ، ولم ندرس الكيفية التي يصرع بها الناس ويضع الموازين القسط ليوم العقاب .

ما أسهل ، وما أصعب تأمل التاريخ والاستفادة منه ، والقرآن حين يلح على التاريخ والعواقب ، فإنه يريد أن يبصّر الناس ، ليصبروا على المعززات المؤجلة البعيدة ، والتي ربما لا تكشف خلال عمر الفرد الواحد ، قد تملك المجتمعات ، ولكن القرآن ينظر إلى الأمة التي تعيش القرون كفرد واحد في العقوبة والثواب ، إلا أن الناس لا ينتبهون إلى العقوبات المؤجلة في مستوى الأمة ، ولا يتأملون العواقب التي يحصدها الأبناء من نظرات الآباء والأجداد الخاطئة ، ولهذا فإن التاريخ في ظاهره ، حسب ابن خلدون ، لا يزيد على أخبار عن الأديان والدول ... وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق . بينما التاريخ عند نيتشة أكاذيب دنيئة وقبيحة . ولهذا يقول توينبي عن ابن خلدون وفهمه للتاريخ أنه : « أعظم عمل من نوعه أمكن أن يبتكره عقل من العقول في أي عصر من العصور ، في ناحية من أرجاء الأرض » .

إن الذين يتذوقون التاريخ يسجدون خاشعين على عتبة هذا المعبد الذي هو مرجع القرآن وحجة الأنبياء ووسيلة رفع مستوى الإنسان ، وفي أيامنا هذه ، ومنذ سنة ، حدثت أحداث متعددة في العالم : الانفجار الذي حصل في المركز التجاري في نيويورك ، والانفجار الذي حدث في أوكلاهوما وأفزع العالم وأمريكا ، والغاز السام الذي وضع في أنفاق طوكيو ، والانفجار الذي حصل في مسجد الإمام الرضافي مشهد ، وما حدث في عواصم أخرى من العالم ، وأكثره يحدث في البلاد الإسلامية الآن ، في الجزائر والقاهرة وبيروت والبحرين ، وقد ينتقل إلى عواصم ومدن أخرى ، وليس بعيداً عنا الحدث الذي دُشّن به القرن الخامس عشر الهجري في المسجد الحرام في مكة .

المعرفة التاريخية والتطعيم ضد الفساد

إنني أنظر إلى هذه الأحداث بمنظار مختلف ، فنحن جميعاً نسمع أن الدول المتخلفة أو التي لم تمكن من تحصيل العلم والمعرفة ، أصبحت تطعّم أطفالها ضد شلل الأطفال وأمراض أخرى تسبب موت الأطفال وإعاقتهم ، ويؤدي هذا إلى تراجع الجراثيم والأمراض إلى درجة أن جرثوم الجدري لم يعد موجوداً إلا في المخابر ، حتى أنهم أعلنوا عن جائزة لمن يقدم حالة إصابة واحدة بالجدري ؟، في حين أنه ومنذ زمن غير طويل كان يسجل في البطاقة الشخصية للفرد أه غير مصاب بالجدري ، كعلامة فارقة .

وأنا أقول : إن هؤلاء الذين نفذوا الانفجارات وينفذونها ، سواء أكانوا أمريكيين أو يابانيين أو مسلمين أو من أي جنسية أخرى ، هؤلاء لو كانوا مطعمين بمعرفة تاريخية واضحة متسلسلة معقمة نظيفة ، لما قاموا بهذه الأعمال .

إنني أعتقد أن المعرفة التاريخية هي التي ستقضي على الفساد في الأرض وسفك الدماء ، سواء في ذلك جماعة قورش التي فجرت أوكلاهوما ، وجماعة الحقيقة المطلقة في اليابان الذين فجروا قنابل الغازات السامة في الأنفاق ، والذين اقتحموا المسجد الحرام واحتلوه أياماً في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وكذلك الذين فجروا مزار الرضا في مدينة مشهد ، كل هؤلاء لم يكونوا ليقوموا بهذه الأعمال لو تزودوا بالمعرفة التاريخية . والمعرفة التاريخية لمسيرة الإنسان ستكون المصل الواقي من الفساد والإفساد وسفك الدماء ، لا أقول هذا بالنسبة للشباب الذين يفجرون القنابل والسيارات المفخخة في العواصم العالمية ، بل أقوله عن الرؤساء والزعماء العالميين والمحليين الذين اتخذوا القارات التي أشعلت حروب الخليج وفيتنام والجزائر وكل الحروب الاستعمارية والتحريرية ، فالذي دفع الجميع هو عوزهم في المعرفة التاريخية .

تحدث هربرت ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) عن اللقاء الذي حدث بعد الحرب العالمية الأولى بين زعماء العالم آنذاك ، ووصفهم بالسذاجة والجهل بالتاريخ ، وأن صناديق العلم والتاريخ كانت مقفلة أمامهم .

لست باحثاً متعمقاً في دراسة التاريخ ، ولكن قراءتي لتوينبي وويلز وآخرين أطلعتني على عالم مختلف عن عالم الناس .

حين تقابل غاندي ورومان ، قال أحدهما - ولعله رومان - : إننا مواطنان غريبان في هذا العالم .

وبحسب القرآن فإن العالم لم تظهر فيه بعد مجتمعات واعية ، ولهذا يُكثُر من الحديث عن هلاك الأمم لتي لم تعتبر بأحداث العالم .

يقول إقبال في تجديد التفكير الديني : حين يسوق القرآن عدة أحداث من أحداث القرون الماضية كما في سورة الأعراف والشعراء ، فإنه يصدر حكمهُ : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) [الشعراء : 8/26] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ، ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) [الشعراء : 208/26-209] ، (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ، ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا) [الأعراف : 101/7-103] ، (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الأعراف : 174/7] ، (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ قُبُلاً) [الكهف : 54/18-55] ، (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً) [الكهف : 59/18] .

يعرض عينات تاريخية ، ثم يأتي بالقانون الذي يحكم العينات ، ويحدد مسؤولية الناس في الاعتبار وتكرار الأخطاء ، وصعوبة ربط الأسباب بالنتائج وعدم التدريب على استخلاص العبر .

خفاء العواقب المؤجلة أو إخفاؤها

يسهل على الناس تناسي العواقب المؤجلة ، وحين يتمتع السارق بما سرق ؛ يتعزز عمله ويصعب عليه أن يكشف عواقب عمله عليه وعلى المجتمع ، وكذلك يتعزز من يقوم بغارة ناجحة لاستلاب أموال الناس ، تعزّزه الفوائد والمتع السريعة التي يجنيها من عمله ، ولكن ما يقوم به من ترسيخ قانون السلب والنهب يعود عليه بالهلاك .

صحيح أن المستعمرين الذين يتمتعون بالقدرة على السلب ، حصلوا على منافع أمتعتهم وأغرقهم أيضاً ، ولكن الامتحان الصعب يكون بالتمييز بين المنافع العاجلة التي حصلوا عليها ، وبين الأضرار المؤجلة التي تعيق مجيء عهد الإصلاح ، وتؤخر إزالة الفساد من الأرض أو تقلله .

نقلنا فيما سبق كلمة فوكو التي قال فيها : « كل شيء يجري كما لو أنه أريد محو حتى علامات ظهوره (أي ظهور اللوغوس أو المعرفة) ضمن ألاعيب الفكر واللغة . يوجد في مجتمعنا ، وفي كل المجتمعات الأخرى كما أتصور ، لكن حسب أوجه وتقطيعات مختلفة ، خوف عميق من اللوغوس ، نوع من الخوف الأصم ضد هذه الأحداث » .

ما هذا الخوف الأصم الذي يتعامى عنه الناس ؟

إنهم يريدون أن يكسبوا ، أن ينتفعوا ، أن يجلبوا المتع ، بطريق سهل ومختصر ، ولكن العواقب المؤجلة تخفى عليهم .

هناك خوف أصم وعميق من أن يخسروا المنافع العاجلة ، وهذا الخوف العميق الأصم يخفي عليهم العواقب البعيدة المؤجلة ، ويجعلهم قادرين على تجاهلها .

خوف أصم عميق ضد الأحداث التي ستظهر غباءهم ، وتذهب بالمنافع العاجلة التي سيخسرونها رغم حرصهم الشديد عليها ، ولكنهم في عمىً مطبق عن العواقب البعيدة والسيئة التي تنتج عن تصورهم ، إنهم مثل المثال الرمزي الذي يذكره صاحب كليلة ودمنة ، مثل الذي يعلق العسل الذي يجده على جدار جبّ ، بينما هو معلق بحبل في وسط الجب الذي وقع فيه ، والجرذان في الأعلى تقرض الحبل ، وينتظره تنين في أسفل الجبّ .

إن الذين يقودون العالم الآن ، حريصون جداً على إبعاد اليوم الموعود ، الذي سيسقط فيه حق النقض (الفيتو) ، وتعم المساواة بين الناس ، إنهم يفضلون المنافع الصغيرة التي يجنونها ، ولا يحسبون للهلاك القادم ، ولا يبالون بالفساد الذي يغلي به العالم ، ولا يعرف علاجه المعاقون عن تحصيل المعرفة ، والمعيقون لهم عن تحصيلها أيضاً .

إنهم لا يعملون حساباً للزلازل القادمة التي تبخّر المنافع العاجلة ، وتصب عليهم لعنات الأيام القادمة والأجيال القادمة : (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ (أي في الدنيا) لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ (لمن خاف العذاب المؤجل حتى ولو كان في الدنيا) ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) [هود : 11/98-103] .

انظر كيف صَرَّفَ الله الآيات ، ثم انظر كيف يُصَرِّفُها الناس !!..

هذه آيات من سورة هود التي قال فيها الرسول r : « شَيَّبَتْنِي هود وأخواتها »[1] .

هل نشعر نحن بأن هوداً شيبتنا ؟ هل نُحِسُّ . هل نعقل ؟ هل نربط الأسباب بالنتائج ؟ هل للتاريخ لدينا أي معنى ؟ هل للأحداث من مغزى ؟ هل تحس أيها القارئ منا من أحدٍ ، أو تسمع لنا ركزاً ؟ هل لدينا قدرة على أن نحرك فيك شعرة ؟ هل يمكن لك أن تقرأ شيئاً يجعل جلدك يقشعر أو يُحدث لك ركزاً ؟ كيف ننفخ في الصور ؟ صور المعرفة وطلب المعرفة ، لا صور الحرب والقتال ، صور معرفة سنن التسخير وأنواعه التي ينسخ بعضها بعضاً .

بين الآباء والأبناء

إن شأن التاريخ عجيب ، فالأنبياء يفخرون بأمجاد آبائهم ، وكم نجد من لذة للأعمال المجيدة التي قام بها آباؤنا ، وكم نجد من سعادة ، وكم يصيبنا السُّكر بها ، وكم نبحث في أعمال الآباء عن كل ما يرفع رؤوسنا فنكبره ونعظمه ، ولكن هل يحرص الآباء الآن على أن يفعلوا الأشياء التي تجعل الأبناء يعتزون بها ، أم أنهم يرتكبون الحماقات التي تنكس رؤوس الأبناء ؟ ما فات مات ، ولكن كيف ننقذ ما يمكن إنقاذه ؟ ننقذه بأن نتعلم كيف نستفيد من التاريخ الفائت ، بحيث لا نكرر ما وقع فيه من أخطاء .

إن التاريخ الماضي هو الذي يعلمنا الخوف من التاريخ الآتي الذي سيحكم علينا .

في كتاب كليلة ودمنة ، يقول الفيلسوف بيدبا لتلاميذه الذين خوفوه من بذل النصح للملك دبشليم ، يقول : « لكنني أخشى أن يسجل التاريخ أن الفيلسوف بيدبا كان يعيش في زمن الملك دبشليم فلم يقم بيدبا بواجبه من النصح والإرشاد » .

في ذلك الزمان كان الأمر أمر نصائح ، و لم يكن أمر كشف قوانين وتعليم ، في تلك الأيام كانت الأخلاق مفصولة عن العلم ، و لم تكن إحدى ثمرات العلم ، ومع ذلك كان الحس التاريخي موجوداً « أخشى أن يسجل التاريخ .. » .

ونحن أيضاً نهتم بان يفهم الناس عنا ، ونمتعض حين لا نتمكن من إفهامهم ، تسرنا أنباء الفهم الآني العاجل ، ولكن هل نحس بأهمية ما نقول بالنسبة للأجيال القادمة ؟ هل لدينا حسٌّ تاريخي يدفعنا للقيام بأعمال إبداعية ، بدل أن نقوم بأعمال تخجل منها الأجيال ؟

بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة

تحدثت عن الشباب الذين يفجرون أحداثاً هنا وهناك ، وتحدثت عن الزعماء العالميين الذين يفجرون الحروب ، فبئست هذه النفسية المنطوية على جهل بالعواقب القربة والبعيدة ، تحدثت عن هؤلاء ، ولكنني لم أتحدث عن المثقفين الذين يعيشون خارج التاريخ والجغرافيا ، ماذا يعمل المثقفون ؟ هل يقدمون البديل ؟ هل يرشدون إلى الحل الأنجع ، أم لا يزالون يقدمون قصائد المديح والهجاء ؟

---

[1] رواه الطبراني (287/17) ، وقد روى الترمذي نحوه في التفسير ، باب : ومن سورة الواقعة ، رقم (3293) ، وهو حسن بشواهده .

المديح والهجاء للمنافع الآنية العاجلة ، لا للتاريخ والعلم الذي ينبغي أن يسود في المستقبل . إنهم لا يزالون يزينون حب العاجلة ، وهم عن الآخرة هم غافلون .

متى نفهم : (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ) [القيامة : 75/20-21] .

(إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً) [الإنسان : 76/27] .

إننا لم نتمكن من استحضار مفهوم الآخرة التي في الدنيا ، ولم نتمكن من انتشاله ، وذلك لسيطرة فكرة القيامة علينا ، صحيح أن هناك قيامة للأموات ، ولكن هناك أيضاً آخرة دنيوية للأعمال التي نقوم بها ، وللأفكار التي يتداولها ونغرسها في نفوسنا ، ونحن لم نتمكن من استحضار آخرة الدنيا بعد .

إن المفهوم السائد للآخرة مفهوم غيبي ، سواءٌ أكانت عاجلة أو مؤجلة ، لأننا نحذف من مفهوم الآخرة العواقب المؤجلة التي لا تظهر إلا بعد أجيال ، ولكن التاريخ المديد ، التاريخ على المدى الطويل بدأ يَبرز إلى سطح بعض الاتجاهات الدارسة في مجال التاريخ .

إننا لا نزال نعيش في زمان مُبكّر .

حين بحث مالك بن نبي ظاهرة الاستعمار في كتاب الأفرسيوية ؛ ذكر أن الإدانات التي وجهها بعض الفلاسفة ورجال الكنيسة للممارسات الاستعمارية أمكن تجاهلها وعدم المبالاة بها من قبل أصحاب المصلحة مادام تأثيرها لا يمس مصالحهم العاجلة ، لكن مالكاً توجه إلى أمر آخر مختلف عن الإدانة الدينية والأخلاقية ، فأشار إلى إدانة أخرى وجهها بعض الاقتصاديين ، الذين كانوا يرون أن المنافع التي أمكن الحصول عليها بالسلب والنهب والقرصنة ، يمكن الحصول عليها وعلى أكثر منها بأسلوب آخر أقل كلفة وأكثر إنسانية ، حيث بدأت بعض التحليلات الاقتصادية تظهر أن بإمكان الناس أن يزيدوا من المردود العالمي والمحلي لجميع الأطراف بعلاقات جديدة وإنسانية .

أنا لا أزال من العالم القديم الذي لا تتوافر المعلومات له ، ولكنني أظن أن مثل هذه الدراسات صارت تتكون في أرحام الدراسات كأجنة لا يحس بها إلا من بدأت تتكون في أدمغتهم ، كما تحس الأم بالجنين قبل كل الناس ، إلا أنها ستبدأ بالظهور إلى العلن ، وسيشعر بها الناس وسيعترفون بوجودها .

هذه الدراسات التاريخية التحليلية الإحصائية هي التي ستقلب الموازين الأيديولوجية .

ماذا أقول ؟ وماذا أبحث ، في أي أودية أهيم ؟ لماذا اللّف والدوران ؟ لماذا لا أقول ما أريد في جملة واحدة وكفى ؟

لماذا يكرر القرآن قصة موسى وفرعون ؟ لماذا يكرر القرآن الحديث عن الأمم التي كَذّبت رسلها ؟ لماذا حدث التكذيب ؟ ما هي عوامل التكذيب وشروطه ؟ وما هي عوامل التصديق وشروطه ؟

لماذا يقوله لنا : (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) [الأعراف : 7/101-102] .

ما هذه الكلمات ؟ هل لها معنى ؟ هل هي خلاصة تاريخ طويل وأحداث كثيرة متشابهة ، وآلام تتكرر حتى الآن ؟

ما هي أنباء الحكومات والقيادات والدول ؟ من هم الرسل ؟ وما هي البينات التي جاؤوا بها ؟ ولماذا لم يكن ممكناً الاستفادة من الرسل وبيناتهم ؟ لماذا ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ؟ وما هو التكذيب القبلي ؟ ما هو الطبع الذي يحدثه الله على القلوب ؟ كيف نكشف سنة الله في حدوث الطبع ؟ ما هو الكفر ، وما الإشكاليات والالتباسات التي تحيط بهذه الكلمة ؟ ما هو العهد الذي لم يوجد من يلتزم به ؟ وما الفسق الذي تميل نفوس الناس إليه ؟

لماذا كان الرسول يأتي ولا يكسب أحداً إلى صفه ، ولا يتمكن من إقناع شخص واحد ، ويرجع إلى ربه وحيداً ، ويبعث يوم القيامة وحيداً وليس معه أحد ؟

لماذا قال r في أبي ذر : « رحم الله أبا ذر فإنه يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده »[1] ؟

أبو ذرٍ في التاريخ

كنت وقفت وقفة قصيرة عند بلال ، ولكن ما قصة أبي ذر ؟ لماذا عاش الوحدانية ، ومات عليها ، ويحملها معه إلى يوم القيامة ؟

ما هي قصة أبي ذرٍ في التاريخ ؟ من ذا الذي سيكشف قصة أبي ذرٍ في التاريخ ؟ كيف ضاع أبو ذر في خضم التاريخ والأحداث وضجيجها ؟ كيف ومتى سيظهر التاريخ أبا ذرٍ مرّة أخرى ؟ كيف ستتهاوى كل المواقف وتذهب جفاءً ، ويمكّن في الأرض موقف أبي ذر ؟ كيف سنتعلم أنه كان من أنجب تلامذة معهد النبوة ومعهد التاريخ ، تاريخ النافع الذي سيمكث في الأرض ؟

دع أبا ذرٍ الآن ، وتأمل كيف يخفي التاريخ أبا ذرٍ ، وكيف يكشفه من جديد بعد كل هذه المدة الطويلة !!..

تأمل كيف يغربل التاريخ أحداثه وأشخاصه ، وكيف يعلن نتائج الامتحان ، وأسماء الناجحين والراسبين : (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء : 47/21] .

كيف يعمل التاريخ ؟ كيف تعمل البيئة ؟ كيف يصنع المجتمع بيئته دون شعور منه ؟ ثم كيف يصير المجتمع أسير بيئته ؟ كيف يصعب على الأفراد والمجتمع بأسره أن يتخلصوا مما صنعوه بأيديهم ؟ كيف تفقد الحجة دلالتها ، وكيف يفقد الكتاب جدواه ؟

إن في قصة الشمس دلالة تذكرنا دائماً بشروق الشمس ، الشروق الذي هو المصدر اليومي لطاقة الحياة على الأرض ، والذي كان دليلاً على إمكان الوقوع في الخطأ .

كيف كان هذا الواضح الذي هو سبب الوضوح والضياء غامضاً ؟ وكيف أخطأ العالم جميعاً في فهمه خلال قرون وقرون ، ثم أخيراً ، وأخيراً جداً ، ظهر أن فهم الناس ورؤيتهم كانت خاطئة .

لقد سجل التاريخ أحداث انقلاب الرؤية الكونية بِدَويٍّ كبير ، ومهد هذا الكشف الفلكي لكشوفات جديدة في مجالات أخرى كثيرة .

إن الناس أخطؤوا في فهم الحياة وانبثاقها من الموت ، وأخطؤوا في فهم كيفية انبثاق الفهم والإدراك ، وصار هذا الأمر موضع تساؤل ، و لم يصل الناس فيه إلى قرار .

لقد أعيا الفلاسفة وأولي الألباب من البشر فهم الكيفية التي يحصل بها الفهم والمعرفة ، فكيف تحصل المعرفة ، وكيف يحصل الفهم ، وهل المعرفة والفهم ممكنان ؟ هل نثق بالفهم ؟

إن الحيرة والالتباس والفوضى والشك والارتياب والصراع الذي ينتج عنه كل صراع هو الصراع على الفهم والإفهام ، وكل جهود الفلسفة الآن تتجمع عند عتبة فهم الإنسان وفهم ما ينتج عن الفهم من سلطة .

مشكلة الفهم

سلوك البشر ليس كحركة الشمس أو الإلكترون ، سلوك البشر نتيجة الفهم الواعي أو غير الواعي الكامن في النفس ، ولكن من أين يأتي ما بالنفس ، وكيف يدخل إلى الإنسان ؟ هل رافق الإنسان حين يخرج من بطن أمه ؟

علينا أن ننظر كيف بدأ الخلق ، وعند أي نقطة يبدأ الخلق ؟ (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل : 78/16] .

إن مشكلة المسلمين والعالم هي مشكلة الفهم الذي يُنتج السلوك والسلطة والتسخير ، فما هو الفهم ؟ وما كّم هذا الفهم وكيفه ؟ وما دليل حصوله ؟

---

[1] رواه الحاكم (50/3) وصححه ، وقال الذهبي : فيه إرسال .

المشكلة مشكلة فهم ، لا مشكلة شيء آخر ، قد يشتبه على الناس أحياناً أن المشكلة ليست مشكلة الفهم ، ولكنهم بمجرد أن يتجاوزوا معنى الفهم ، فإنهم يتركون سواء الصراط .

ما هو الفهم ؟ كيف نميز الفهم الصحيح من الفهم الخاطئ ؟ هل يمكن أن يكون الفهم خاطئاً ؟ هل يمكن أن يكون الإيمان خاطئاً ؟

نعم ، نعم الإيمان ليس دليلاً على الصواب وصحة الفهم ، الصواب دليله ليس في النفس ، وليس في العقل ، ليس في داخل الإنسان ، بل هو خارج عنه وعن فهمه ، عن فهمه للشمس والقمر ، عن فهمه لله والرسول ، ليست الحجة في فهمه ، ليست في فهمي ولا في فهمك . إنه خارج عني وعنك ، دليل الفهم في الواقع الخارجي ، في المردود الذي يرجع عليك من فهمك .

لم يكن دليل غاليليو في ذهنه ، كان دليله في السماء والأرض ، لم يكن دليله في ذهنه ، بل إنه تراجع عما في ذهنه .

إن الشمس والقمر والأرض لم تكن تبالي بما في ذهن غاليليو ، ولم تكن تبالي بإيمانه ، ولم تكن يبالي بفكره ، ولم تغير سلوكها من أجل ما في ذهنه من فهم أو علم أو إيمان أو كفر ، ويبقي دليل ما في ذهن غاليليو خارج غاليليو ، وحين مات غاليليو لم تمت الشمس والقمر والأرض ، ولو كان الوجود يتبع ما في أذهان الناس من الفهم لفسد الكون والعالم ، ولكن الكون لم يتغير ولم يفسد ، بل اضطر الناس إلى تغيير فهمهم للشمس والقمر والأرض .

إنني الآن أزعم أن فهم الناس ؛ جميعاً ، فهم خاطئ ، وأن ما جاء به الأنبياء هو الفهم الصحيح ، فقد جاؤوا بفهم جديد للعالم ، ولكن الناس أعرضوا عنه ولم يستطيعوا فهم النبوات ، وما جاءت به النبوات للإنسانية .

أن أزعم أنني أستطيع أن أبدأ تجديد منهج النبوة في العالم .

المشكلة مشكلة فهم ، وكما أن الناس وقعوا في الخطأ الفادح ، حين فهموا الشمس والأرض فهماً معكوساً ، فكانوا يظنون ويعتقدون بداهة أن الشمس تدور حولهم ، فظهر لهم أنهم هم الذين يدورون حول الشمس ، فكما أنهم وقعوا في هذا الخطأ ؛ كذلك نحن نعيش مع النبوات والكتب السماوية والله ، ونفهم فهماً خاطئاً ، وليس الدليل على خطأ فهمنا موجود في الدماغ ، بل هو في الأرض خارج الدماغ ؛ في الواقع ، وفي العواقب .

ما هو الدليل على صحة فهم ما أو خطئه ؟

ليست دعواك ولا دعواي دليلاً على ذلك : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [سبأ : 24/34] ، قد يكون كلانا على ضلال مبين ، وقد يكون أحدنا هو الضال ، إلا أن المواضيع التي نفكر فيها ونكون عنها فهماً لا تتبع ما في أذهاننا ، الشمس لا تتبع ما في أذهاننا ، الله لا يتبع ما في أذهاننا ، وكذلك القرآن والنبي : (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) [المؤمنون : 71/23] .

الدليل الذهني والدليل الواقعي

إن مجرد تغيير مكان الدليل من الذهن إلى الواقع ، من أكبر التغييرات التي حصلت والتي يمكن أن تحصل ، إنه تغيير لما بالأنفس ، تغيير للفهم ، للصور الذهنية ، وليس تغييراً لقوانين الله وسنن الكون والتاريخ ، ليس تغييراً لسُنَّة : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 91/7-10] .

ليس تغييراً للقوانين والسنن ، لأنها لا تتغير ولا تتبدل : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [فاطر : 43/3] . نحن نستطيع أن نسخر السنن حين نفهمها ، والتمكن من التسخير دليل على صحة الفهم . العاقبة النافعة دليل على صحة العلم والعقل والفهم ، وعلى صحة فهمنا لله والرسول والكتاب والكون ، بل إن الصور الذهنية كلها قابلة لأن تكون خاطئة ، وإذا حدث الاشتباه بين اليقين الدوغمائي (التقليدي) وبين اليقين التسخيري ، فهذا ليس عيباً في اليقين ، بل هو عيب في الأسلوب الذي فهمنا به اليقين .

لا يوجد علم ، ولا فهم ، ولا يقين غير قابل للزيادة : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طـه : 114/20] ، والقـرآن يسـتعمل كلمات : اليقين والشك والريب والعلم بأساليب مختلفة ، فالعلم يقابل الظن والهوى ، والكلمات ليست هي التي تدل على معناهـا ، بل المعاني هي التي تدل على الكلمات ، الدليل ليس في الذهن ، الدليل في الواقع ، في الآفاق ، في الأنفس ، وما بالأنفس يختلف عـن النفس اختلاف الشراب عن الكأس .

كيف نصحح العلاقة ؟ كيف نمنع الاشتباه ؟ كيف نصحح حركة الشمس : (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ، تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنصَرُونَ ، قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُـرُونَ ، أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الأَوَّلِينَ ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّـةٌ ، بَـلْ جَـاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ، وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِـذِكْرِهِمْ فَهُـمْ عَـنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ، أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ ، وَإِنَّ الَّـذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ، وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ، وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَـذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ، حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ، وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُـمْ السَّـمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) [المؤمنون : 64-78] .

ينبغي أن نحدد فهم معاني الكلمات ، مثلاً : ما المعنى الأدق للكلمات التالية : اخذ الله بالعذاب ، المترفين ، تجأروا ؟

كانت هناك علاقات يمكن تأملها ، ولكن كنا ننكص على أعقابنا ، وكنا نتكبر عن إعادة النظر ، والذي يحدث لنا هـو مـا حدث لآباءنا الأولين ، ونحن نسير على ما ساروا عليه .

إننا لن نعرف الرسول و لم نفهمه ، وأنكرنا أن يكون الحل ما جاء به ، وهذا لا يعني أننا لم نعد نتحدث عنه ، ونزعم أننا أتباعه ، ونعظمه ، ولكننا نحس في أعماقنا أننا لا نتبعه ولا نعقل ما أمرنا به .

إنني أشك في صحة فهمنا ، ولو كشفنا ما بأنفسنا من الظن والوهم ، لغرفنا أننا أضعنا ما جاء به رسـولنا ، ولعرفنـا أن مـا بأنفسنا من الظن ليس هو ما جاء به رسولنا .

فهمنا الخاطئ للرسول

لقد فهمنا الرسول على صورة صنعناها في أذهاننا ، وشعرنا أننا لم نتبعه ، بل كنا جبناء حين تركنا ما جاء به .

إنني أشعر بوجود خطأ في الفهم ، وحتى لو حققنا ما نظن أنه التعاليم التي جاء بها الرسول ، فإنه لن يتغير شيء ، وإذا كنا نظن أن الفساد يأتي من غيرنا ، فهذا خطا أيضاً ، إذا طالما غير المسلمون أناساً كانوا يظنونهم سبب الفساد ، ولكن الفساد لم يتغير .

ليست المشكلة في التعاليم التي نظن أن الرسول جاء بها وتركناها ، ولكن المشكلة هي ما جاء به الرسول و لم نعرف أنه جاء بـه ، ونظن أنه يستحيل على الرسول أن يأتي به أو بمثله ، وإذا اعترفنا بأنه جاء به الرسول ، فإننا نقول أنه ذهب أوانه ، و لم يعد صـالحاً لحياتنا الحالية .

ما معنى قوله تعالى : (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) [المؤمنون : 69/23] ؟ .

نحن نعرفه ولا نعرفه ، ننكره ولا ننكره ، نعرفه ولكن معرفتنا به خاطئة ولا نشعر أنها خاطئة ، ولا نعرفه لأن ما جاء به مما يجب أن نعرفه لم نعرفه ، ونبذناه ، وأنكرناه ، وأنكرنا أن يكون الرسول جاء به .

من الذي سيكشف الالتباس ؟ من الذي سيهدي إلى الصواب ؟

إن عصا التاريخ ، والعذاب الذي يأتي به هو المعلم الذي سيعلم الناس ويصحح مفاهيمهم : (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ) [المؤمنون : 64/23] ، (أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ .. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) [الفيل : 3/105-5] ، (

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ .. وَثَمُودَ .. وَفِرْعَوْنَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) [الفجر : 89/6-14] .

دلالات العذاب ونتائجه

خطأ الفهم هو سبب الأخذ بالعذاب ، والعذاب هو دليل الفهم الخاطئ ، العذاب ، الألم ، الضرر ، كل هذا دليل خطأ الفهم ، العذاب ، الحيرة ، الخسارة ، الآلام ، أدلة على الفهم السقيم . هذا هو ميزان صحة فهم التاريخ ، الميزان هو عواقب التاريخ ، الآلام ، العذابات المؤلمة المهينة ، والإهانة هي عذاب فوق العذاب .

إن العذاب والألم سبب للاستيقاظ ، سبب لإعادة النظر في الأفكار ، في المفاهيم التي نقدسها ، سبب لتزلزل أنواع من اليقينات ، سبب لسقوط أصنام وأهواء وصور ذهنية ما أنزل بها من سلطان ، وإن كنا أعطيناها أعظم سلطان .

إن صعوبة الرؤية والفهم والسمع يذللها ويسهل التخلص منها تلك العذابات والإهانات ، التي تزيل الأوهام المسيطرة والمسببة لحصول العذاب والألم والهوان ، إنها أوهام مهما حاولنا تغيير اسمها ، ومهما أشهدنا الله ورسوله وعلماء الأمة عليها ، ستتزلزل هذه الخرافات وتزول بفعل سياط العذاب والألم ولن تبكي عليها الأرض والسماء ، ولن يزول بزوالها الله والرسول ، بل ستزول عن الله ورسوله ظنون الجاهلية ومفاهيمها ، وسنعود إلى الله ورسوله بسعادة ووضوح وهدى وأمن وبشرى . وإن كان ما نالنا هو إنذارات الرسل لا بشائرهم .

لقد جاء الرسل مبشرين ومنذرين ، وها قد اكتوينا بما أنذروا به ، فهل تكفي النذر ؟ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) [القمر : 54/16] ، هل يتيسر لنا الاهتداء بما بشر به الرسل ؟

النقد الذاتي والمراجعة

علينا أن نكون مرنين في فهمنا ، وفي أفكارنا ، لأن التاريخ أثبت لنا أن المفاهيم كانت تقلب في أذهان الناس ، وكانوا يفهمونها فهماً مختلفاً عن الواقع : (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 25/45] ، ينبغي أن تكون لدينا القدرة على مراجعة مفاهيمنا ، وأن لا نعطي لفهمنا أي قداسة ، ينبغي أن نستفيد من تجارب التاريخ ، ها قد أخطأنا في تفسير أوضح شيء في الوجود ، أخطأنا في فهم الشمس ، فهل هناك شيء أكثر وضوحاً من الشمس حتى نظن أنه يستحيل الوقوع في الخطأ في فهمه ؟ أليس هذا دليلاً يجعلنا نراجع أنفسنا ، لا سيما حين تختلف العواقب ؟

إذا وصف لنا أحد ما طريقاً ، ثم لم يوصلنا الطريق إلى الهدف ، ألا ينبغي علينا أن نراجع أنفسنا لنرى أين وقع الخلل ؟

نحن نشعر ، ولاشك ، أننا لم نصل إلى الهدف ، ونشعر أن خطأ ما حدث ، ولكن ، ومع ذلك ، قد نخطئ في تفسير المشكلة ، وفي تحديد الخطأ . هناك خطأ ما ، كيف سنبحثه ؟ كيف سنحدده ؟ هل نيأس من البحث فيه ؟ لا بل سنظل نلتمس أسبابه ، ونتحدث عنه ، وسنظل نسأل : ما هو الشيء الأساسي الذي أخطأنا في تفسيره ؟ هل بالإمكان الاهتداء إليه ؟؟!!

ينبغي أن نضيف إلى التفسيرات السابقة تفسيراً آخر ، تفسيراً جديداً ، وهذا ما أسعى لتحقيقه .

إننا أخطأنا في تفسير الشمس ، وأخطأنا في فهم ابن آدم القديم ، وهو قابل لأن نقع في الخطأ في فهمه .

لقد أخطأنا في فهم ابن آدم ، وصرنا على مذهب المخطئ ، وزين عمله في قلوبنا ، ونبذنا مذهب الذي تقبل الله منه قربانه واعتبرناه مجنوناً . هل يمكن أن نقلب المفاهيم ؟ إننا بحاجة إلى قلب للمفاهيم ، وما معنى خطأ الفهم ؟ وما معنى ابني آدم ؟ هل في نبئهما هدى ، وهل لقصتهما معنى قابلٌ للفهم والتأويل ؟ لماذا اخترتُ مذهب ابن آدم منذ ثلاثين عاماً ليكون عنواناً لنوع من العلاج للمشكلة الإسلامية والإنسانية ؟ وما هو السِّر الذي في قصتهما ؟ هل يمكن أن نفهم من قصتهما إمكان الخروج من تهمة الفساد وسفك الدماء ؟ هل في هذه القصة المحزنة معنى هادٍ ؟ هل يمكن أن يكون في نبئهما حل للمشكلات ، وما هي العقبات التي تحول دون الفهم ؟ ما معنى الخطأ في الفهم ؟ وما معنى : (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 25/45] ؟

الشمس دليل على إمكان الخطأ في الفهم ، ودليل على إمكان المراجعة ، وقد حدث معي شخصياً ما يشبه هذا ، كنت مع رجل يحتل منصب القضاء في بلد إسلامي لا تنقصه دراسة الفقه والحديث والقرآن ، وكنت آنس إليه ويأنس إلي ، فقال لي ذات يوم ، ونحن وحدنا في المسجد : « يا شيخ ! كيف يقول هؤلاء إن الأرض تدور ، ألا يرون أن الشمس هي التي تدور » .

في الواقع حاولت أن أتجاهل المفاجأة ، وقلت له : نعم إنهم لا يفهمون ، ولم أحاول أن أبين له ، ولا أن أبوح له بما في ذهني ، ولا أدري ما الذي جعلني أتخذ هذا الموقف ، وما هي الحسابات التي جرت في نفسي لهذا الوقف ، لعل أشياء كثيرة تداخلت في الموضوع حتى وقفتُ منه هذا الموقف ، ولكن هناك أرضيات ننطلق منها في الفهم ، فحين نفقد هذه المنطلقات ينقطع الحوار ، وعندها لا بد من العودة إلى المبادئ الأولية للسير في الموضوع ، لابد من لغة مفاهيمية للحوار ، كما لابد من لغة لسانية صوتية لإمكان الحوار ، وإنني أشعر أمام مشكلة فهم نبأ ابني آدم بالوضع المحير نفسه ، وإلا فلماذا ألفّ وأدور وأبدئ وأُعيد ، ولماذا لا أقول مع القائلين : إن قصة ابني آدم لا عبرة فيها ، ولا جدوى منها ، وهي شرع من قبلنا ، إن كانت في الأصل شرعاً ؟؟!!

تغييب معاني قصة ابن آدم

إن الأهواء ، والمفاهيم الهوائية المسيطرة علينا ، والنظرة العجلى ، والمرور على سطح الأشياء ، هذه الأمور هي التي تجعلنا نقول : إنه لا مغزى في قصة ابني آدم ، إلا أن يكون التاريخ مأساة تعقبها مأساة ، ولعنة تتبعها لعنة ، وتعبيراً عن أحطّ الدوافع ، هذا ما يقوله مزلزل أفكار القرن التاسع عشر (نيتشه) الذي أعلن أن المجد هو للقوة والعنف ، وان العالم يدور حول العنف ، وبدون عنف لا نكون شيئاً ، العنف كالشمس يا شيخ ، أما ترى الشمس تدور وتطلع وتغيب ؟ لماذا تقول : ذهب أوان العنف ، أما ترى يا شيخنا كيف أن العنف هو الذي يسير العالم ؟ هل نجلس ونقول : علينا ألا ندافع عن أنفسنا ؟

كنت أتحدث مرّة بهذا الموضوع ، فقال طفل حاضر في المجلس ، ولكنه كان قد خرج من الطفولة ، وتشرب عنف الحياة وعنف الكبار ، فقال مستغرباً : والله إنه لحلو أن تدخل بين قوم لا يدافعون عن أنفسهم فتضرب هذا وتقتل هذا ، ولا أحد يدافع عن نفسه .

هذا الموضوع كان خفياً ، ولا يزال خفياً ، فإمكانية رؤية أن الأرض تدور لم تكن سهلة ، لأن الأرض التي نعيش عليها كبيرة وصلبة ولا يُرى طرفها وامتدادها ، فكيف يمكن أن تدور ؟ أما الشمس الصغيرة - في أعيننا - والنجوم المبعثرة فلا حرج أن تدور .

في التسعينات كنت أشرح قصة دوران الأرض للناس في مسجد القرية ، فقال لي أحدهم بكل بساطة : نحن إلى الآن لم نقتنع ، ولا نقول ذلك إلا لأن الناس يقولونه .

الذي قال لي هذا ، كان إنساناً يعيش في التسعينات من القرن العشرين ، ولكن القاضي الذي سألني السؤال السابق كان يعيش في الخمسينات .

كيف يحصل الفهم ، وما شروطه ؟ هل نقول عن الشيء : إنه هكذا لأن الناس يقولون ذلك ؟

هل أطمع أن أثبت أنَّ الأرض تدور ؟ هل أطمع أن أحلل نبأ ابني آدم ؟ هل أطلب المستحيل ؟ لعلي أطيل الطريق ، وأمشي باتجاه معاكس للاتجاه الذي يحل المشكلات في العالم .

لماذا بدأت بكتابة كتاب آخر في مذهب ابن آدم ؟ هل صار لدي حقاً من الأدلة الواضحة والبينة ما يمكّن من إقناع بعض الناس بأن هذا المذهب صحيح وراسخ ؟

كم كلمة ، وكم صفحة ينبغي أن أكتب ؟ وما نوع الأدلة التي ينبغي أن أسوقها ؟ وما هي الأرضيات أو المنطلقات التي ينبغي أن أمهد بها لنتمكن من السير ، ولنشق الطريق ؟

هل في النشاز من الأنغام سعادة ، أم أنه مجرد تشويش وزيادة صيحة إلى الضجيج المختلط ؟ هل يستطيع أحد أن يرفع سدادة الأذن ليستمع كما فعل الشاعر ابن الطفيل ؟ هل علي أن أكتب في هذا الموضوع ؟ كيف ينبغي أن أكتب ؟

يتحدث بعضنا بلغة المعقول ، فيقول : هل يقبل العقل ألا يدافع الإنسان عن نفسه وهو معتدى عليه ؟ وبعضنا يتحدث بلغة الشرع ، ويطالب بالأدلة الشرعية ، ويقول : أين تذهب بمعركة بدر ، وأُحُد ، وحنين ، و ..، وبعضنا ستند إلى إجماع الناس من المؤمنين والملاحدة ، وكل البشر الذين يمارسون العنف والدفاع عن النفس ، نعم ، كل الناس يرون أن الشمس تدور حولنا ، إنه امتحان عسير يحتاج إلى نقلة عالمية ، ومفاهيم مختلفة عن المفاهيم والمسلمات التي يعيشها الناس .

كيف أواجه هذا كله ؟ إنه لأمر مُحبط ، إنه لأمر يدعو إلى الضجر ، حتى إن الرسول r كان يقال له : أما يئست ؟ أما مللت من كثرة ما تعرض علينا دعوتك ونحن نرفض ونستهزئ بالأفكار التي جئتنا بها ؟

البشرية بين الجمود والتغير

هل تحلّ المشكلة بكتابة صفحات كثيرة وكتب كبيرة ؟ ألا تكفي جملة واحدة موجزة وشرح وإيضاح في مقالة معتدلة ، أو محاضرة عابرة ، أو جلسة وجلستان ؟ ما معنى تغيير الاتجاه العالمي الفكري التفسيري الفلسفي الديني الإيماني ؟ كيف يمكن إلغاء الأدلة ؟ كيف يمكن تجاهلها ؟ كيف يصل الإنسان والمجتمع إلى درجة أن يقول الله فيهم وعنهم : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا) [الأعراف : 146/7] ؟

هذه حالة ومرحلة في حياة المجتمعات ، وفي مواضيع معينة ، وليست حالة سرمدية ، إنها حالة أمة معينة ، ومجتمع معين ، وفي قضية معينة ، ويمكن أن يتعرض كل مجتمع ، في كل حين لصعوبة فهم قضايا معينة ، ولكن قد يصير موضوعٌ معينٌ مرفوضاً من الناس كافة في وقت معين ، وهذا موجود في حياة البشر ، إلا أن العالم أصبح مهيئاً لمواجهة الأفكار بمرونة أكثر ، لأن الناس تعودوا في حياتهم على رؤية أشياء وأفكار جديدة تدخل إلى مفاهيمهم ، بينما كان البشر قديماً يعيشون في مجتمعات لا يحدث فيها تغير ، ولا تدخل إليها أفكار وآراء مختلفة ، وكانوا معتادين أن يسمعوا بوجود أديان وآراء مختلفة عنهم ، وكانوا يكتفون بإدانتها والاعتراف بوجود أناس همجيين لا علم لديهم ، وأناس مميزين ، وكانوا معتادين على أن يصنفوا الناس إلى كفار بعيدين عن الله ، وإلى أقرباء مقربين إلى الله .

ألا ما أصعب فهم الوجود ، وما أشد حاجة الناس إلى معرفة كيف بدأ الخلق ، وكيف كان الإنسان يأكل لحم أخيه الإنسان ، لا بد من معرفة تاريخ الإنسان : (سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [العنكبوت : 20/29] ، وكيف سار بدء الخلق ، وماذا حدث للخلق ، وكيف يتقدم الخلق ، وإلى أين يسير ، وما هو مصيره ، وما هي الصيرورة ، وما هي الزيادة في الخلق ، وما هو الخطأ وما هو الصواب ، وكيف نميز الخطأ من الصواب ، هذا السؤال الأبدي الذي كان الموضوع الأهم للفلاسفة ، وإشكاليتهم الكبيرة ، وهو موضوع الفلسفة الإنسانية في هذا العصر ، وليس المراد بالفلاسفة المشهورين الذين نقرأ أسماءهم في الماضي والحاضر ، بل المراد بالفلسفة الإنسانية اتجاه الإنسان كل إنسان ، فهو أياً كان فيلسوف نفسه ، إنه يفكر ويتساءل ، ويقول : لو ولدت في بلد كذا لكنت على دينهم ومذهبهم ، وحينما يخطر في باله هذا ، يكون قد دخل إلى الفلسفة من أوسع أبوابها ، لأنه بعد ذلك يصل أو سيصل إلى السؤال الكبير : كيف أفهم الصواب من الخطأ ؟ فما أعتقد أنه صواب ، يعتقد الآخر انه خطأ ، وما أعتقد أنه خطأ ، يعتقد الآخر أنه صواب ، ولكن الله تعالى يقول لنا : (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ) [فاطر : 19/35-21] .

النسبية في الحياة الإنسانية

ينبغي الانطلاق من أرضية بدهية ، من درجة حرارة مناسبة ، فالماء الدافئ في البلاد الباردة حق عند الجميع ، والماء البارد حق ونافع عند الجميع في البلاد الحارة ، ولا يمكن أن تستمر حياة الناس إلا ضمن درجة معينة من الحرارة ، فهل نستطيع أن نفهم بقية مشكلات الإنسان ضمن درجات معينة ؟

لا يمكن أن يعيش مجتمع بدون قوانين ، ولكن ما هي الدرجة المناسبة للقوانين ؟ وكيف يتم تكيف المجتمع مع درجة حـــرارة أو برودة القوانين ؟

نعم يوجد حق وإن حصل اشتباه في بعض اللحظات ، ولا يستوي الماء البارد تحت (الدش) مع الماء الدافئ ، ومن أنكر هـــذا ينقطع الحديث معه مهما تفلسف ، ولكن المشكلة هي أن الناس لا يتمكنون من إيجاد الماء الدافئ ، والرسول r يقـــول : « اللـــهم اجعل حبك أحب إلى من الماء البارد » [1] ، ولكن الإنسان الذي يعيش في البلاد الباردة يقول : اللهم اجعل ذكرك أحب إليَّ مـــن الماء الساخن ، ولكن لكل منهما حدود ، ودرجة بدء ، ودرجة نهاية ، وعتبة عليا وعتبة دنيا ، لا يمكن العيش خارج هذه الحدود : (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ) [فاطر : 21/35] ، (وَلا تَسْـــتَوِي الْحَسَـــنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ) [فصلت : 34/41] ، ولا النافع ولا الضار ، والناس يتحملون بعض الأضرار والمشقات للحصول على المنافع الكـــثيرة ، والقانون الكوني لصالح الأكثر دواماً في الوجود ، لصالح الخير والأبقى .

لا بد من كشف ذلك في الوجود ، وإلا سيعيش الإنسان العبث والقرف واللامبالاة ، وسيتحول إلى الهدم والانفجار الـــذي لا سيطرة عليه .

انظروا إلى الماضي ، وانتظروا المستقبل ، فالوجود ليس عبثاً ، والعبث لا يدفع إلى الحركة ولا إلى النماء ، والتـــاريخ والوجـــود يسير بذاته ، ولكن تدخل الإنسان يساهم في تعجيله ، ويعمل على عدم تكرار الخطأ السابق .

نعم ، يمكن أن نرى العالم كذباً ودجلاً وغدراً وخيانة ونذالة وحقارة ، ولكن نستطيع أن نشاهد فيه أيضـــاً الصـــدق والوفـــاء والتعالي .

نحو كتابة التاريخ الإنساني

في مؤسسة الأمم المتحدة نجد مجلس المن الذي يتجلى فيه كل الكذب والدجل ، ونجد (اليونسكو) التي يحدث فيهـــا أشـــياء عظيمة من الصدق والصراحة ومحاولات الاقتراب إلى الرشاد ومساعدة الناس على ذلك ، ومثال ذلك أنهم حـــين أنشـــؤوا منظمـــة اليونسكو وضعوا مشروعاً لكتابة كتاب في تاريخ الإنسانية ، وكان ذلك عام (1946) وبدؤوا بتنفيذ المشروع عـــام (1950) وانهوا كتابته في عام (1969) ثم فكروا بإعادة كتابته مرّة أخرى بعد عشرين سنة ، فصدر الجزء الأول منه عام (1994) باللغة الإنكليزية ، وهم في طريقهم لترجمته إلى الفرنسية والإسبانية ، وقد عرضتُ العدد الذي فيه هذا الخبر على الأستاذ محمد عدنان سالم ، المدير العام لدار الفكر ، فاستعاره مني وكان في نيته أن يترجم الكتاب إلى العربية ، فشجعته على ذلك كثيراً .

إنني لم أطلع على الكتاب الأول ، و لم أطلع كذلك على الكتاب الثاني ، ولكنني أرغب جداً أن أطلع عليهما ، وأنظـــر إلى مـــا فيهما ، وإلى ما حدث من تقدم في فهم التاريخ في الكتاب الثاني ، كي أدرك كم مرّة ينبغي أن تعاد كتابة التاريخ !

نعم ينبغي أن تعاد كتابة التاريخ ما دام الإنسان موجوداً والتاريخ موجوداً .

إن (ويلز) صاحب كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) الذي كُتب في النصف الأول من القرن العشرين ، كان يقول فيه : تمنيت أن أطلع على الكتاب الذي سيوضع بعد مئتي عام في الموضوع الذي كتبته ، في معالم تاريخ الإنسانية ، قال : أما إنه لو وقع في يـــدي لتصفحته بسرعة وأنا أنظر إلى الصور المنشورة فيه . يقول ذلك عن الكتاب الذي سيكتب بعده بمئتي عام ، فكيف ستكون نظرة ابـــن خلدون إلى كتاب (دراسة في التاريخ) الذي كتبه (توينبي) ؟! .

متى سيصدر باللغة العربية الكتاب الذي صدر باللغة الإنكليزية عام (1994) ؟ ما مقدار الاهتمام والتنويه الذي سيناله هـــذا الكتاب ، وكم عدد النسخ التي ستباع منه ؟ متى سنبدأ ، نحن المسلمين ، بالمساهمة في كتابة التاريخ بالمستوى المعاصر ؟ وهل يغني عن المسلمين أنهم يطلقون على بعض أبنائهم اسم (خلدون) ليُطلق على أحفادهم لقب (ابن خلدون) ؟؟ .

---

[1] رواه الترمذي في الدعوات ، باب : رقم (74) الحديث رقم (3485) وفي سنده مجهول .

تساؤلات في موضوع الرشد :

أين الرشد ؟ أين الرشاد ؟ أين سبيل الرشاد ؟ ما هو سبيل الرشاد الذي دعا إليه المؤمن الذي قال الله تعالى على لسانه : (يَا قَوْمِ : اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [غافر : 38/40] ؟

هل سبيل الرشاد مظلم وخفي وصعب إلى هذه الدرجة حتى لا نهتدي إليه ولا نعثر عليه ؟

هل الرشد والرشاد نادران إلى درجة أنه لا يوجد منا رجل رشيد (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) [هود : 78/11] .

نعم يا أخي ، إنه صعب وخفي ونادر ، وإلا فلماذا لم يأتنا بَعْدَ الخلفاء الراشدين أي حاكم يستحق أن يسمى راشداً ؟ ثم ألا يمكن للرشد أن يترشد أكثر ؟ ألا نستطيع أن نقترب من الرشد أكثر ؟ أليس ممكناً أن يهدينا ربنا لأقرب من هذا رشداً ؟

كيف فقدنا الرشد ؟ كيف وصلنا إلى حال من يقول الله عنهم : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] ؟؟!!..

أليس هذا الموضوع جديراً بأن نتأمله ونعيد التأمل فيه ؟

هل حقاً تبين الرشد من الغي حين قال الله تعالى : (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 256/2] ؟؟ ما الذي يجعله غير بيّن ومختلط ؟؟ .

ذكرنا فيما سبق أن اله تعالى قال بعد آية الكرسي : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) [البقرة : 256/2] .

لقد كان إشعال النار صعباً وخفياً ، وكذلك كان إمساك الكهرباء ، فهل إمساك الرشد والتعرف عليه وتصنيفه صعب وخفي وخطر مثل إشعال النار وإمساك الكهرباء ؟

كيف السبيل إلى الرشد ؟ ماذا يقول الله عن سبيل الرشد ؟ لنتذكر مرّة أخرى قوله تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف : 146/7] .

بقوله تعالى (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) تبين الرشد من الغي ، إنه سهل يسير وصعب خفي غير قابل للإدراك والفهم .

أما الجن فقد ذكر الله تعالى على لسانها أنها قالت : (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) [الجن : 10/72] ، التبس الأمر عليهم ، ولكنهم حين سمعوا القرآن قالوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) [الجن : 2/72] ، ثم قالوا : (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) [الجن : 14/72] .

هل يمكن لنا أن نبحث عن الرشد ؟ (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) [الكهف : 66/18] ، هل يمكن لنا أن نعيد إلى حياتنا الرشد والراشدين ؟ هل يمكن أن نتبين سبيل الرشد والرشاد ؟ لِمَ نحن يائسون ؟ لماذا يئس الذين من قبلنا من إعادة الرشد ؟ لماذا قبلوا الدخول إلى التنافس في الغي ؟ كيف صار سبيل الرشد غير مقبول لدينا ؟ كيف لم يتبين ، وكيف ضاع ، وهل يمكن أن نطمع في إعادة الرشد إلى حياتنا ؟ هل يمكن أن يدخل الرشد إلى حياتنا ؟ هل يمكن أن نتعلم الرشد ؟ هل يمكن أن نتعلم الترشيد في استهلاك الماء والكهرباء ؟ هل نستطيع أن نرشّد اقتصادنا ؟

أليس الرشد شرطاً قرآنياً يجب توافره في الإنسان كي يتولى تدبير اقتصاده بنفسه ؟ (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) [النساء : 6/4] .

كيف نتعلم الرشد في التربية ؟ كيف نتعلم الرشد في التحويل الاجتماعي ؟ كيف يمكن أن نتبين الرشد من الغي؟! من هم الذين يصرفهم الله عن آياته ؟ (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ

الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف : 146/7] .

هل الفهم ممكن ؟ هل الرشد ممكن ؟ هل المشكلات قابلة للحل ؟ هل الكون قابل للتسخير ؟ لماذا لا يتسخر لنا ؟ لماذا لا تُحلُّ المشكلات ؟ كيف يصير الإنسان غير قادر على الفهم ، وغير قادر على أن يرى سبيل الرشاد ، وغير قادر على الدخول إلى سبيل الرشاد ؟ ما هي الأمور التي تعيق الفهم وتمنعه ؟

هل بالإمكان تحليل الإنسان وكشف ما يحدث داخله ؟ هل بالإمكان هداية الإنسان ؟ هل الهداية من الله ولا يستطيع الإنسان أن يتدخل فيها ؟

هل عدت إلى موضوع قراءتي القرآن من غير شعور مني ؟ القراءة التي ترى أن تغيير أحوال الناس من الله ، والقراءة التي ترى أن تغيير أحوال الناس من الناس .

ما الذي على الناس أن يغيّروه ؟ كيف يحدث تغيير ما بالأنفس ؟ هل ما نزال في مرحلة طرح الأسئلة فقط ؟ هل بإمكاننا محاولة الإجابة عنها ؟

الطفل وطرح الأسئلة :

إن الأطفال ، في جميع أنحاء العالم ، يمّرون بمرحلة طرح الأسئلة ، أسئلة وراء أسئلة ، بدون كلل أو ملل ، يريدون المعرفة ، يريدون الاستعانة بمن سبقهم ، يبدؤون بالأسئلة بعد أن يتعلموا اللغة ، وبعد أن يعرفوا كيفية توجيه السؤال ، ويستمرون في ذلك نحو سنتين ،ثم يبدؤون بالتقليل من الأسئلة ، ثم يكفّون عنها ، ولعل ذلك يعود إلى أنهم يكتشفون أن الذين يجيبونهم عن الأسئلة هم أنفسهم لا يعرفون الإجابة ، وكأنهم يسلّمون بأن العالم غامض ، وغير قابل للتفسير والفهم والتسخير وحل مشكلاته .

إنها عملية إبداعية ، تتجدد مع كل مولود ، من غير أن يحدث لها تحول أو تبدّل ، وربما لو أن آلاف المراقبين سجلوا بوعي أسئلة الأطفال لأمكن الخروج بالأشياء المتشابهة والمواضيع المتكررة في أسئلتهم .

الخلق الجسدي والخلق الفكري

إن الأطفال يختزلون تراث البشرية خلال سنتي الأسئلة ، قبل أن يكفوا عن الاستعانة بالآخرين ، ولعل أصعب الأسئلة التي يوجهونها سؤالهم : من أين جئنا ، لعلهم يقصدون من أين جئنا جسدياً ، أما من أين جئنا فكرياً ، من أين جاءت أفكارنا فهذا أصعب سؤال يوجهه المجتمع الوليد الناشئ .

ربما يجيب الآباء الأبناء بان الله خلقنا ، ولكن الطفل يريد أن يعرف كيف خَلَقَهُ الله ، وما هي جهود البشر في خلقه ، وما هي جهود والديه في ذلك . كذلك هل يكفي حين يبدأ المجتمع الوليد يتساءل : من أين جاءت أفكاره أن نقول له : من الله ؟ إنه يريد أن يعرف جهود البشر ومساهماتهم في توليد الأفكار وصناعتها .

حين عرف الناس قوانين الولادة الجسدية ؛ ساهموا كثيراً في حماية المواليد من الأمراض الجسدية ، فهل يمكن لنا أن نعرف قوانين الولادة الفكرية لنتفادى الأمراض الفكرية ؟ هل يكفي حين نرى الذين يموتون من عسر الولادة أو من سوء التغذية أن نقول : إن الأمر متروك إلى الله ، وأن جهودنا لا قيمة لها ؟؟!!..

ألا ما أصعب تبين الرشد من الغي ، والهدى من الضلال !! أظنه صعباً جداً ، ولكن من الممكن أن يصير سهلاً جداً أيضاً .

خلال التاريخ كله كان الناس يتنقلون باستخدام أرجلهم أو الدواب ، ولكنهم منذ قليل صاروا يتنقلون بوسائل جديدة ، و لم يكن اكتشاف هذه الوسائل صعباً بالنسبة للسابقين فحسب ؛ بل كان مستحيلاً ، وذلك بحسب المعلومات التي كانت متوافرة للناس آنذاك ، فكيف تولدت المعلومات لدى الناس ، وتجمعت إلى أن هجروا الوسائل القديمة ؟ أليس من الممكن لنا أن نكتشف ونطور الوسائل التي بواسطتها نتبين الرشد من الغي ، لنترك ونهجر الوسائل القديمة التي لم تسعفنا في تبين الرشد من الغي ؟؟

ألم تروا كيف كان العالم يعيش انتقال الحكم من شخص إلى آخر بالموت أو القتل أو الوراثة أو الاغتصاب ، وكيف أن بعض الناس استطاعوا أن يخرجوا من هذا الأسلوب العتيق إلى أسلوب آخر ، وكيف أن هذا الأسلوب الجديد صار سهلاً سائغاً عند بعض الناس ، وصعباً ومستحيلاً عند بعضهم الآخر ؟! تأمل هذا جيداً !! .

نعم ، لقد كان الانتقال باستخدام الوسائل الجديدة مستحيلاً ، فصار ممكناً شيئاً فشيئاً ، في مجالات محددة ، وعند بعض الناس .

التكبر والانصراف عن آيات الله

تُرى هل استطعت ، بهذه الجعجعة من الكلمات ، أن أنبّه إلى شيء جديد ، ولو للحظات قليلة ؟ هل استطعت أن أنبه إلى إمكان إزالة الالتباس ، وإلى وجود أسباب تجعلنا قادرين على سلوك سبيل الرشد والرشاد ؟

سأكتب كلمات الآية على ضوء هذه المحاولة ، لنتبين كيف يكون سلوك سبيل الرشد صعباً أو مستحيلاً : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف : 146/7] .

ما هو الحاجز الأكبر الذي يحول بين الإنسان وبين الاستفادة من آيات الله ؟

كان الله تعالى يقول لنا هنا : إن الحاجز الأكبر الذي يحجز الناس عن الرؤية هو التكبر في الأرض بغير الحق .

ما هو التكبر ؟ هل التكبر حالة قابلة للفهم ؟

كأن هذه الآية تعلق كل أنواع الضلالات على قدم قبول الإنسان الأدلة وإن رآها ، وعدم سلوك سبيل الرشد وإن رآه ، وسلوكه سبيل الغي إذا رآهُ .

إن الآية تذكر مشكلة كبيرة هي مشكلة التكبر ، فهل بالإمكان تحليل التكبر ؟ لمعرفة الكيفية التي يولد فيها ، والكيفية التي يعيش فيها ، وكيفية تصرفه .

إننا نقارب الإمساك بالأفكار ثم تفلت منا ، إنها تقترب من الوضوح في بعض اللحظات ، لكنها سرعان ما تغيب في ظلمات الضباب والدخان .

كيف نتعلق بلحظة الوضوح ؟ كيف نمسك بالضياء ؟ كيف نجعل الشمس لا تغيب ؟

يقال إن أينشتاين كان يحلم بأن يركب الضوء ، ويتخيل ماذا سيحدث لو ركب الضوء وانتقل بسرعة الضوء ، فهل يمكن لنا أن نحلم بأن نمسك بطرف الخيط لنقبض على شيء ما ؟

هل يمكن لنا أن نتبين الرشد من الغي ؟

لقد كانت وسيلة الانتقال من حكم شخص إلى شخص آخر ، في العالم كله ، هي الوراثة أو الاغتصاب بالقوة ، وهي الآن وسيلة انتقال السلطة في البلاد الإسلامية ، لكن الناس في العالم أوجدوا أساليب ووسائل وسبلاً لنقل السلطة غير الوراثة ، وغير الاغتصاب بالقوة ، لقد أوجدوا أسلوباً جديداً لا تراق معه الدماء ولا تُزهق الأنفس ، فكيف صار هذا الأسلوب ممكناً ؟ هل نزل عليهم من السماء ، أم أنه نبت في الأرض ؟ هل أحدث الله هذا الأسلوب ، أم أن البشر هم الذين أحدثوه ، أم أن لكل من الله والبشر ما يعود إليه في إحداث هذا الأسلوب ؟ ما الذي يرجع منه إلى الله ، وما الذي يرجع إلى البشر ؟

هل هذه النقطة مضاءة ، بحيث يمكن التأمل فيها والانطلاق منها ؟ أهي نقطة شديدة الالتباس أم أنها قليلة الالتباس ؟

هل هذا الأسلوب في انتقال السلطة ، والذي ولد في العالم حديثاً ، أقرب إلى الرشد ؟ هل مرّت رياح هذا الأسلوب في العالم الإسلامي ، في يوم من الأيام ؟ هل في ذاكرة المسلمين شيء من هذا الأسلوب ؟ بحيث يمكن الرجوع إليه على أنه ليس بدعة ، وليس هرطقة ، وليس كفراً بواحاً ، وأنه كان بينهم ، وأحسوا به سابقاً ، ودخل إلى حدٍ ما إلى ديارهم ، ثم غادرها مأسوفاً عليه ، مودّعاً بالدموع والدماء ، وغاب عنهم غيبة طويلة ، واختفى في سرداب طويل جداً .

لكأنني ، ومن غير أن أشعر ، أدخل في السِّرداب المظلم !! مع أنني أريد الضياء ، أريد الفهم ، أريد أن أوجّه سؤالاً إلى الأرض الحزينة لا إلى السماء ، أريد أن أنزل بالسؤال من الاشتغال بما يحدث في السماء إلى الاشتغال بما يحدث في الأرض التي هي تحت أقدامنا وأمام أعيننا ، أريد أن أفتح الأجفان ، أريد أن أسلط الضياء على ما هو واقع أمامنا ، هل بإمكاني ذلك ؟ هل أحرث في البحر ؟ هل أستقي من السراب ؟ هل أداعب الجنون ؟ هل أنا خارج عن الإجماع المقدس ؟ ماذا أصابني ؟ هل أصابني المسُّ والجنون إذ أطمع في كشف شيء جديد غائب مُضيّع منذ زمن بعيد ؟ هل لي الحق في أن أبحث في الأرض عن المفاتيح التي ضاعت في الظلمات ؟ من أنت يا جودت سعيد حتى تطمع في هذا ؟؟!!..

تغيير الحكومات وتغيير الأفكار

إنني لا أطمع بما يطمع به المسلمون من تغيير الحكومات ، ولا أريد ذلك ، كلاّ ولا أفرح إذا تغيرت الحكومات بهذه الوسائل التي لا نرى غيرها أداة للتغيير ، نعم لا أطمع بذلك ولا أفرح لحدوثه ، إذ طالما حدث و لم يتغير من أوضاعنا شيء .

لقد صار طمعي متجهاً إلى مكان آخر ، إلى مكان بعيد بعيد ، ومن جنوني صرت أراه قريباً قريباً ، ولا زلت منذ أربعين عاماً أصرح بأن التغيير ممكن ، ولكن ليس بالسبل التي يريد المسلمون إحداث التغيير بواسطتها ، ليس بالقتل والاغتصاب ولكن بالحب والإقناع ، بالعلم والسلم ، لا ليس بالإكراه ، فالإسلام نسخ الإكراه حين قال : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 256/2] ، وصار بإمكاني أن أرى سبيل الرشد وأتخذه سبيلاً ، وصار بإمكاني أن أرى سبيل الغي ، وأن أهجره وأتبرأ منه ولا أتخذه سبيلاً .

هل لي الحق في أن أزعم أنه لا يوجد في العالم الإسلامي من يمكنه أن يعلن أنه لن يستخدم وسائل الإكراه والاغتصاب ، وأن هذه الوسائل منافية لطريق الإسلام ؟

إنني لم أر إلى الآن من يعلن ذلك ، فهل يمكن أن يحلَّ هذا النوع من الفهم في ديار الإسلام ؟ هل يمكن أن يفهموا أن التغيير الذي يحدث بالإكراه ليس تغييراً شرعياً ، وأن يعلنوا أنهم تخلصوا من السعي إلى التغيير بواسطة الإكراه والقتل والاغتصاب ، وأنهم سوف لا يفرحون بالذي يسعى لتغيير الأوضاع بهذا الأسلوب ، فضلاً عن أن يمارسوه بأنفسهم ؟ هل يمكنهم أن يعتبروا بالتاريخ ، وبما جَرّبه المسلمون خلال تاريخهم من استخدام هذا الأسلوب ، وعدم جدواه في تغيير أوضاعهم ؟ هل سيقتنعون بأنه لن يغير من أوضاعهم شيئاً ؟ ألا تكفي تجربة أربعة عشر قرناً ليعرفوا ويفهموا أن هذا السبيل ليس هو سبيل الرشاد ، وليس هو سبيل الاقتصاد في التغيير ؟

لماذا لا يستطيع المسلم ، ولا يستطيع بشر آخرون غير مسلمين أن يروا سبيل الرشد ، وإن رأوه لا يستطيعون أن يسلكوه ؟ وأنه لأمر معقد حقاً .

لماذا وجد بشر آخرون غير مسلمين يفهمون هذه الأمور ويبحثون عن السبيل القرب إلى الرشد ؟ إنهم بشر ، وينطبق عليهم قانون الله الذي يقول فيه : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الأنفال : 53/8] ، وهذا القانون السَّماوي لا يميز بعض البشر عن بعض ، إنه ينطبق على كل البشر ، على كل بني آدم ، على المؤمنين والكافرين ، على العادلين والظالمين ، على اليهود والنصارى ، على البوذيين والمسلمين ، على المذاهب والطرق ، على السُّنَّة والشِّيعة ، على كل البشر ، لا يستثني أحداً ، وتغيير ما بالأنفس ليس وظيفة معهودة إلى المسلمين أو اليهود أو النصارى أو سكان آسية أو أُوربة أو إفريقية ، بل هو قانون إنساني بشري : (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) [المائدة : 18/5] .

الكبر والتغيير

أظن أن الكبر هو الذي يمنع الإنسان من أن يجعل نفسه من عداد البشر ، الكبر ليس صفة إسلامية أو دينية أو وطنية ، الكبر صفة إنسانية بشرية .

أظن أن الإنسان الذي يصاب بالكبر يرفض أن يكون مثل بقية البشر ، ويرفض أن يطبّق عليه ما يطبّق على غيره من البشر .

ما هذا الجدار الذي وصلت إليه ؟ هل أستطيع أن أتسلقه ؟ هل يمكن أن أخترقه ؟ هل أستطيع أن أرى ما وراءه ؟ هل يمكن أن أعرف من أي المواد بني هذا الجدار ؟ هل هو مبني بالحجارة ، بالنار ، بالحديد ؟ من أي شيء بنى ذو القرنين سدّه ؟ ما هذا الجدار الذي أتلمسه ؟ ما هذا الكبر الذي إذا مسَّ الإنسان شيء منه جعله غير قادر على أن يسمع أو يبصر أو يفهم أو يعيد النظر ؟ ما هذا الشيء الذي يجعله يستقيل من الحياة ؟ ما هذا الكبر الذي يخلّف هذه الآثار الكثيرة ؟ ما هذا الكبر الذي قال الله فيه : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) [الأعراف : 146/7] ؟

قلت : أظن أن الكبر هو الذي يمنع الإنسان من أن يقبل بأن يكون كسائر البشر ...

لديَّ ظنٌّ أو وهْمٌ بأنني إذا ما فهمت شيئاً ما ، فإنني أستطيع أن أُفهمه لآخرين ، أو لبعض الناس إن لم يكن كلهم ، وصلت إلى هذا الظن بعد تجارب ومعاناة وممارسات ، وإن كان الكثيرون يبخعونني ويفشلونني ويصدمونني ، ولكن وعلى الرغم من هذا كثيراً ما أجد ما يعيد إليَّ الثقة والطمأنينة والتفاؤل ، وعلى الأقل أجد ما يبقي في نفسي أملاً يمنعني من التوقف عن التفكير ، للاهتداء إلى فهم أوضح ، وأسلوب أقرب للفهم وأمثلة أيسر للهضم ، وقد صرت أتهم نفسي بالعجز عن امتلاك الفهم المتمكن الذي يستطيع صاحبه أن يتلاعب بالأدلة القريبة الواضحة ، والغامضة المدهشة ، التي تلوي الأعناق لصالحها ، ولا زلت أتذكر نصيحة ذاك الرجل المسنّ الأمي ، الذي كنت أعيش معه في القرية ، كان يقول لي هذه الحكمة : « إذا كنت تجلس على رقبة الفاهم فإنه لن يسقطك » .

إنني أشعر أن الفاهم المتدرب يستطيع أن يلعب بالأفكار كما يلعب لاعب الجمباز ، وأن الكسيح فكرياً لا يستطيع أن يريك أي حركة رشيقة ولا يمكن له أن يضرب لك مثلاً مقرّباً ومضيئاً .

إن الناس يرتكبون أخطاء لا يحسّون بها ولا يشعرون ، وإذا فعلها آخرون فإن هؤلاء يشعرون بها شعوراً حساساً ودقيقاً ، إنهم يرون أخطاء الآخرين بمنظار مكبّر ، مضروبة بأرقام خيالية ، ويرون الأخطاء نفسها إذا ارتكبوها هم صغيرة تافهة محجّمة .

إذا ارتكب الآخر العنف فهذا فعل قبيح ، وجريمة منكرة ، أما إذا قام هو نفسه باستخدام أسلوب العنف فإنه يكون قائماً بفعل حسن ، خارج عن وصف القبح والإجرام .

إنهم يرون الحسنة سيئة ، والسيئة حسنة ، هذا ما نمارسه يومياً ولحظياً ، وهو ما نعيش فيه غرقى وسكارى منتشين إلى درجة لا قدرة لنا معها على كشف هذا المرض الذي هو خبزنا اليومي ، وهذا لا يعود إلى أنه غير قابل للكشف ، ولكن تذكّر قليلاً كيف تغفر للذين تحبهم ، وكيف تسخط على الذين تكرههم ، تذكر إن كنت لا تذكر كيف يكون المحب متسامحاً معطاءً باذلاً حريصاً على محبوبه ، يشتعل قلبه تذكراً ، ويشتعل فكره للعثور على الكلمات التي سيقولها لمن يحب ، وليبحث عن الهدايا التي يريد أن ينال بها إعجاب من يحب .

تذكر أيها الإنسان المسكين كيف تتلاعب بك الأهواء في الحب والبغض ، كيف تتقاذفك في الأودية السحيقة .

لا تقل أنا فوق سنن الله في الوجود ، لا تقل إن سنن الله لا تحكمني ولا تنطبق علي ، لا تتكبر ، إنك من لحم ودم وعظم ، إننا نخطئ في الليل والنهار ، إننا نخطئ في الغضب والرضا ، إننا نخطئ أخطاء فاحشة .

لعلي أرتكب ، وأنا أكتب الآن ، أخطاء سأخجل منها في المستقبل ، وذلك على الرغم من أنني أحاول أن أكون موضوعياً ، ولكننا لا نرى أعناقنا ملوية .

ما معنى الندم ؟ ما معنى التواضع ؟ ما معنى الكبر ؟ كيف نصير متكبرين ؟ كيف أزعم أنني كشفت ما لم يره أحد ؟ هل أستطيع أن أبين هذا ؟ من ذا الذي يستطيع أن يحلل نفسه ؟ من ذا الذي يستطيع أن ينقد نفسه ؟ ما الذي يكب الناس على وجوههم في النار ؟ أليست حصائد ألسنتهم ؟

تحسين أسلوب الخطاب

كيف نهذب لغتنا ؟ كيف نلطف عباراتنا ؟ كيف نغير ما بأنفسنا وقلوبنا ؟ كيف نستعير من الطب لغته مع المـــريض ؟ كيـــف يمكن أن نكشف أسلوباً يجعلنا لا نستهزئ بالمريض ولا نحتقره ؟ كيف نخاطب المريض بغير لغة السّبّ والاحتقار والغمز واللّمز والهمز ؟ ألا ما اشد الامتحان !!..

إن كنت متمكناً من فن العلاج ، فإن تمكنك سيجعلك تبدع أساليب رائعة في العلاج . العلم يحتاج إلى وضوح ولا يحتـــاج إلى إكراه ، ولكن في الناس من يلجأ إلى الإكراه بدل الوضوح .

لعلي أتمكن من الاعتراف بان أسلوبنا الذي نتعامل به مع من نسعى إلى هدايتهم والأخذ بأيديهم ومعافاتهم أسلوب مريض ، إننا نلجأ إلى الإكراه ، وإلى الأشياء المكروهة ، والإيذاء الجسدي والتعذيب والقتل والكلمات المؤذية والألقاب المغيظة .

يمكن أن يكون أسلوبنا برداً وسلاماً ، ويمكن أن يقدم الرحمة والهدوء والصبر والأناة . العلم ليس مكروهاً عند الناس ، ولكـــن أساليبنا في عرضه هي التي تكون مكروهة أحياناً ، فلنبذل جهودنا لعرض العلم عرضاً مبسطاً وسهلاً وميسراً ، بدل أن نصب الغضب والغيظ واللم والعلو والاستعلاء والاستكبار على الجاهلين .

كيف يمكن أن نسوق العلم بأسلوب مبسط وسهل ؟ كيف نمهد طريق العلم ؟ كيف نيسر المعرفة ؟

تحمّل يا أخي مواعظي وغلاظتي وغضبي ، وقلة بضاعتي وسوء عرضي ، وإكثاري مـــن الكلمـــات والشـــكاوى والـــتحيرات والملامات التي أكتبها في هذه الصفحات ، وقد كان عليّ أن آتيك بالأمثلة الواضحة الجلية التي يعرفها كل الناس ويعيشونها في المنـــزل والطريق والسهرة والصحوة .

كم هي الأمثلة التي نعيشها ونمارسها دون أن يكون لنا قدرة على إبصارها ؟!! متى سنضع إشارات المرور على دروب أفكارنـــا وكلماتنا ؟ متى سنمهد السبيل حتى لا يخطئ أحد منا الطريق إلى هدفه ؟

إنني أعترف بالجهل والقصور وقلة البضاعة ، وبأن الشيء القليل من العلم الذي حصلته جعلني أكشف العوالم التي تغيب عني ، فاعذرني إذ أكتب بهذه الطريقة ، لأنني لا اهدف من كتابتي إلا إلى أن أشعرك بأن في إمكانك أن تكشف ما جهلتُهُ ، وتوضّـــح مـــا قصَّرتُ فيه وعجزتُ عن توضيحه ، وتسوق الأمثلة الكثيرة القريبة والمفهومة لتجعلها تتألق وتضيء .

إن هذا ممكن ، هذا ما وصلت إليه ، وهذا ما ينبغي أن أبلغه لك وأبثه إليك أيها القارئ العنيد ، أيها القارئ الذي لم يفقد بعـــد السعي إلى المزيد من الفهم . إنك لا تزال تسأل ، لم تفقد ميزة الطفولة ، والذي يسأل ينتظر أن يسمع جواباً على بلابل قلبه ولواعج فؤاده وما يقلق صدره .

الأنبياء وتسريع عملية التغيير

أراك ، أيها القارئ ، تسخط مني وتقول : لم التطويل ؟ لم اللّف والدوران ؟ لم لا تقول ما تريد أن تقوله بسهولة ؟

ليس السبب ، يا عزيزي ، هو أنني أحب التطويل واللف والدوران ، ولكنني لم أتعلم بعد كيف أختزل زمن التربيـــة ، إننـــا لا نزال نعتمد على أسلوب (ألف ليلة وليلة) .

إن التغيير لا زال يحدث تلقائياً ، وفق أسلوب الطبيعة ، وإلى الآن لم يتدخل البشر في تسريع التاريخ أو اختزاله أو الاعتبار به .

أحياناً أسمع أن الفيزيائيين يشعرون بالحاجة إلى تسريع الجزيئات الذرية ليكشفوا قوانينها ، ويبنوا أبنية وآلات خياليـــة يســـموها المسرعات ، أنا لا أفهم هذه الأمور ، ولا أعرف إن كان تسريع التاريخ مرتبطاً بذلك أيضاً ، ولكن الذي أعلمه وأزعمه هو أن مهـــج الأنبياء في تسريع التاريخ لم ينتبه إليه أحد بعد ، بل أن الناس نسخوه حتى صار صعب الكشف ، وصار الفلاسفة يخجلون من طرحـــه أو الحديث عنه .

الفصل الخامس

الإنسان والتاريخ

فوكو ونتيشه ومرجعية التاريخ

لعلك تذكر ما قلته عن فوكو سابقاً حين قال متحدثاً عن قدرات علماء النفس : « إن قدرة المحلل النفسي على فهم المرض العقلي محدودة ، فالتحليل النفسي يستطيع أن يفك عقدة بعض أشكال الجنون ، لكنه يظل غريباً عن عمل الجنون الأعظم ... ثم يشير إلى شكل أساسي من الغيرية يخرج عن متناول العقل والعلم ، ثم يلمح إلى أشخاص نجوا بطريقة ما من هذا السجن المعنوي الهائل ، واستشفّوا تلك التجربة الأصلية للغباوة التي تستجوبنا أبعد من حدود المجتمع ، ثم يتساءل عما إذا كانت هذه الغيرية بداية معارضة جذرية للثقافة الغربية ... محاولة فلسفية مميزة لأكثر أشكال الفكر الحديث تقدماً لكنها محكوم عليها بالفشل » ، ويقول الذين كتبوا عن فوكو : « إن فوكو ينضم إلى تلك القلة من المفكرين النادرين الذين استشفّوا عمل الجنون الأعظم ... » .

كيف نحلل هذه الكلمات ؟

بإمكاننا أن نقول : كما يتساءل الطفل عن أصله الجسدي ، فإن فوكو يتساءل عن أصله الفكري ، وقد صارت له قدرة على توجيه الأسئلة إلى ثقافته ، وصار قادراً على الحفر حول جذور ثقافته ، إنه بدأ بتوجيه الأسئلة !!..

إن الإعلان عن موت الله - الله بمفهومه الكلاسيكي - من قبل نيتشه ، والإعلان عن موت الإنسان من قبل فوكو ، يعبر عن نوع من التغير ، إنهم بتساؤلاتهم تجاوزوا الله والإنسان ، تجاوزوا كونهما مرجعين للمعرفة ، ولكن نيتشه وفوكو لم يهتديا إلى المرجعية التي يضعها الله في التاريخ ، و لم يكشفا أن بإمكان الإنسان أن يتأمل القانون الذي يحكم الوجود الإنساني ، فيبدأ بعد ذلك يلمح الفرجة التي يمكنه أن يبدأ منها بالتدخل في صنع التاريخ والثقافة ، ويبدأ بفهم الجدل الكائن بين الإنسان والثقافة ، حيث كان الإنسان يصنع الثقافة تلقائياً ، ثم بدأ بالمساهمة في صناعة الثقافة بشكل واع ، وبأدوات أرضية .

الإنسان والتغيير

لقد بدأ الإنسان بالتعرف إلى الشق الذي انفتح أمامه لمعرفة الكيفية التي خلق بها ما بنفسه ، كي يصبح قادراً على تغيير ما بنفسه .

إن التحول من الرؤية القائلة بأن التاريخ من صنع الله فقط إلى الرؤية القائلة بأن التاريخ من صنع الله والإنسان ، وأن الأولوية في صنع التاريخ للإنسان ، وأن عمل الله في صنع التاريخ تابع ومتأخر عن عمل الإنسان : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الأنفال : 53/8] ، إن هذا الفهم جديد وحديث في التاريخ البشري .

إن البشر يصنعون الثقافة ، وإن الثقافة تصنع البشر ، لكن في هذه الدائرة فرجة يوقف لتاريخ عدم التنبه لها ، وهي أن الناس ، مهما قل عددهم ، قادرون على إضافة شيء جديد ، مهما كان هذا الشيء الجديد ضئيلاً ، ولكن بتراكمه خلال المدد الطويلة يصبح التغيير كبيراً ، وبهذا تكون مساحة سلطان الإنسان واسعة ، هذه الفرجة هي التي يمكن إهمالها وتجاوزها كما فعل سكينر بقوله : « حين يَصل ما يملكه الإنسان من حرية إلى درجة الصفر ، فإن أشد دعاة الحرية يصبحون دعاة إلى الرفض والإغلاق » . ولهذا فإن سكينر نزل بالإنسان إلى درجة الآلة ، وقد نقل قول بعضهم : « إننا كنا نظن الإنسان ملائكة أو فوق الملائكة ، وقد تبين لنا أن الإنسان كلب أو مثل الكلب أو هو أدنى منه » .

نعم يمكن لنا أن ننظر إلى الإنسان من زاويتين ؛ حين يتراجع عن قدراته يكون كالأنعام بل هو أضل ، قد يكون في أسفل سافلين ، ويمكن أن يكون في أحسن تقويم بحيث يستحق أن تسجد له الملائكة ...

إن مشكلة وعي الإنسان وهدايته مشكلة تاريخية فلسفية ، ولكن وعي الإنسان يتقدم بنفسه ، مهما كان التقدم بطيئاً ومضنياً ومخيباً للآمال وباعثاً على اليأس ، وإذا لم يتحقق علم الله كله ؛ إلا أنه بدأ بالظهور ، وبدأ يلمحه بعض المؤمنين وبعض الكافرين ، والذين يلمحونه بعلم ووعي قلائل جداً من الطرفين ، وهذا هو ما يفسر العداء الشديد الذي يواجهه هذا الاتجاه ، ولو كان في الناس من يؤمن به بقوة لأمكنه أن يأخذ بأيدي الآخرين ، وكما قال عبد القادر الجيلاني ، فإن الحلاج وإن عثر ، فإنه لم يكن في زمانه من

يأخذ بيده ، وأنا آخذ بيد كل من عثر . وبسبب هذا المفهوم الذي صار عند عبد القادر الجيلاني خرج اليهود والنصارى في جنازته حين توفي .

الإعدام الجسدي والإعدام الفكري والجنون

حينما يظهر العلم ، فإنه يزيل العداوات ، ويحوّل الأعداء إلى أولياء حميمين ، وحين يظهر شيء من ذلك للصوفية يصابون بالشطح ، وتخذلهم عباراتهم ، فيحكم عليهم بالإعدام الجسدي .

ربما لم يعد العالَم يصدر حكم الإعدام على أجساد المفكرين ، إلا أن حكم الإعدام الفكري لا زال يصدر عليهم ، إلى درجة أن ميشيل فوكو حين ينكشف له شيء من قوانين التغيير في الإنسان ، ويسميها غيرية أو براغماتية أو يذكر مصطلح الأنطولوجيا ، فإنه خجول وحائر ، ويشعر أنه ينبغي له أن يبذل جهداً أكبر في تسير فهم ما بدأ يلمحه ، وتسهيل قبوله وجعله ميسور المنال من قبل الجميع ، ولهذا نجده يقول : « إن هذه الغيرية لم يفطن إليها إلا بعض الأسماء اللامعة في تاريخ البشر » ، وهو متردد في الكيفية التي يعرض بها هذا الموضوع ، فيسميه في بعض الأحيان : تراجعاً وعودة إلى الأصل . حيث يرى في جذور الحفريات بعض عروق الجنون ، أي بعض الأفكار المهمة ، وإن كانت تخرج عن متناول العقل والعلم .

مشكلة اللغة

في الواقع إن المشكلة مشكلة لغوية ، ولهذا اضطرت الفلسفات الإنسانية إلى العودة إلى مشكلة اللغة ، ويمكننا أن نقول : إنها مشكلة السمع والبصر ، والإنسان لا يكون شيئاً بدون السمع والبصر والفؤاد ، لأن المعلومات التي في ذهن إنسان ما لا تنتقل إلى ذهن إنسان آخر دون رموز الصوت والضوء ، ودون الأذن والعين : (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ ، وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) [فاطر : 19/35-26] .

(إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) [فاطر : 22/35] .

(إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ) ؛ هذه جملة لغوية تقول : إن الله يسمع من يشاء هو ، ولكن كيف نتذكر أن نقرأ هذه الآية على أساس القراءتين ؟ كيف يغير الله سمع الناس ؟ ما الذي على الناس أن يغيروه حتى يغير الله سمعهم ؟

إن إمكانية السمع نعمة من نعم الله ، والله لا يغير نعمة إمكانية السمع حتى يغير الناس ما بأنفسهم ، والأخذ بالعذاب هو الوسيلة الأخيرة لتغيير ما بالأنفس .

حين تعجز الرموز اللغوية التي تقول للإنسان : يا أيها الإنسان لا تضع يدك في النار ، لأنك ستندم حسن يمسّك العذاب ، فإن كنت إنساناً لا يؤثر فيك فلا حرج عليك ، هل أنت من جنس البشر الذين يحترقون بالنار ؟ إن كنت منهم فلا يغرنك لمعانها وضياؤها ، ولا تلق بنفسك فيها ، وإذا ظننت أنك لست مثل الآخرين ، وأنك شيء آخر أرقى وأكبر من سائر البشر ؛ فجرب النار كي تتعلم أنك مثل البشر !!..

يا أيها الإنسان لا تتناول المخدرات ، لأنك ستندم حين يمسك العذاب !!..

يا أيها الإنسان لا تنقض العهد ، وإن رأيت أن النقض نافع لك على المدى القصير ، لأنك ستندم حين تكتوي بنار عذاب المجتمع الذي لا حرمة فيه للعهود والمواثيق !!..

إذا كنت لا تَقْدر على سماع هذه المواعظ فَلَكَ الحق أن تنبذها وراءك ظهرياً ، ولكن التاريخ علمنا أن الذين ينبذون العهد والميثاق ، ولا يبالون بالعدل ؛ يؤخذون بالعذاب ، فإن لم تصدقوا هذا وكذبتم بذلك ؛ فقد كذب الذين من قبلكم (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ ، وَبِالزُّبُرِ ، وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) [فاطر : 25/35-26] ، (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً) [فاطر : 43/35] .

اللغة والعواقب

لا معنى لأي شيء دون العواقب ، كل واحد يستطيع أن يفسر الأشياء كما يريد ، وأن يعطي للكلمات ما يريد من معنىً ، ولكن الواقع لا يخضع للمعاني التي نعطيها للكلمات ، فكلمة الله ، الرسول ، الكتاب ، اليوم الآخر ، الكافر ، الفاسق ، هذه الكلمات والأسماء ليست هي حقائق الأشياء ، إن السلطان ليس في الكلمات والأسماء : (إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) [النجم : 23/53] .

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بيناتٍ أبناؤها أدعياء

والبينات هي العواقب : « من ثمارهم تعرفونهم » ، والعواقب لا تحابي أحداً ، (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء : 47/21] ، وقد قال الغزالي : « من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك ، وكان كمن يستدبر الغرب وهو يطلبه ، ولكن من حرر المعاني أولاً ثم أتبع المعاني الألفاظ فقد اهتدى » . ولكن كيف يكون تحرير المعاني ؟؟

سنضطر في النهاية للتحاكم إلى العواقب ، إلى قانون الزبد الذي لا يرحم صورنا الذهنية ، ومعانينا التي نزخرفها : (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ) [الرعد : 17/13] ، إن لم تصدقوا هذا ؛ فانظروا إلى الماضي ، وإن لم يكف ما في الماضي من المثلات ؛ فانتظروا المستقبل ، ولن يُخْلِفَ الله وعده رسله ، ولن يغير سننه ، ولن تبكي الأرض والسماء على الذين يجهلون قانون الله ..

لقد قالوا : مات الله ؟

لأن الله الذي في أذهانهم مات حقاً .

ولماذا قالوا : مات الإنسان ؟

لأن الإنسان الذي في أذهانهم مات حقاً ، وظهر خطأ الصور والمعاني التي كانت في أذهانهم ، والتي ظهر زيفها وخطؤها .

ستموت الصور الذهنية الموجودة في أذهانهم عن قدرة الإنسان على فهم الله والإنسان فهماً منفصلاً عن العواقب ، لأنه ليس غير العواقب شيء يثبت المعاني .

لقد أعطينا العصمة والقداسة لصورنا الذهنية ، مهما كانت العواقب مخيبة للآمال في بشاعتها : (ذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ) [فصلت : 23/41] ، (يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [آل عمران : 154/3] .

الإنسان ومشكلة اللغة

ما هي المشكلة اللغوية ؟ ما هي المشكلة الإنسانية ؟

الإنسان هو الكائن التاريخي ، ومعنى الكائن التاريخي أنه ذاك الذي يغير ما بنفسه خلال التاريخ ، فيزيد علمه ومعرفته بقوانين الوجود خلال الزمن ، وتزيد خبرته المتراكمة في التعامل مع الوجود ، ولا يمكن نقل هذه العلوم والمعارف والمنافع والتسخيرات المتراكمة ، والتي حصّلها الإنسان الفرد بتعامله مع الوجود ، إلى الآخرين ؛ إلاّ بواسطة اللغة ، ولكن اللغة ليست هي الحقيقة ، بل هي رمز ومجاز للحقيقة ، والذين قالوا بوجود الحقيقة في اللغة ؛ كان قولهم هذا مجازاً أيضاً ، بل إن الوجود كله مجاز وعلامة على مغزى الوجود ، والحقيقة الوحيدة التي ليست مجازاً هي الله الذي يُعَدُّ كَوْنُهُ رمزاً عليه .

إن الذين يقولون بوجود كلمات حقيقية ومجازية ، إنما يتحدثون عن حقائق نسبية ومجازات نسبية ، ولعل هذا ما جعل الإمام الغزالي يقول : « من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك » ، ومن طلب المعاني من الأذهان ضاع وهلك أيضاً ، ولكن المعاني تكمن

في العواقب النافعة والعواقب الضارة ، والعواقب هي المرجعية التي أثبتها القرآن ، وبما أن هذه المرجعية لم توضح و لم تحرر بعد ، فالعالم لا يزال في نزاع ، وكل يغنّي على حقيقته التي هي صوره الذهنية .

إن العواقب ليست بحاجة إلى غناء ، والذين يعرفون العواقب يعملون بدون ضجيج ، وبدون حقد أو غضب .

« اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون !!.. » .

الحق والباطل والعواقب

المشكلة ليست مشكلة لغوية ، وليست أحداثاً تاريخية ، بل هي عواقب صارمة تفصل بين الحق والباطل ، وبين النافع والزبد ، والحقائق ليست دعاوى أو أُمنيات ، ولكن اثت بما هو أنفع ولسوف يذهب الزبد جفاءً ، اثت بالحق ولسوف يزهق الباطل : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) [الإسراء : 81/17] .

من هنا نعلم قلة جدوى الكلمات المفصولة عن التجارب والعواقب ، وخاصة حين نسمي الباطل حقاً ، والحق باطلاً .

إننا نعيش أموراً ملتبسة ، ولا نعيش الحالة الواقعية : (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [سبأ : 49/34] ، نحن نعيش حالة : جاء الباطل وما يبدئُ الحق وما يعيد ، من أدنى المستويات الثقافية في القرى إلى أعلى المستويات في الأمم المتحدة ، وذلك مثل من لم يرفع بما بعث الله رسوله به رأساً .

إنني أرى عالماً مختلفاً عن العالم الذي نتصوره ، مختلفاً من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ، عالماً مقلوباً ، عالماً معكوساً ، ودليلي على ذلك ظاهرة الشمس : (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان : 45/25] .

يظن الناس أنه قد ذهب عهد الجهل والجنون والخرافات والأساطير ، وأننا نعيش في نور الإسلام ونور الحضارة ، أو نور القرآن ونور الحديث كما قال أمير الشعراء شوقي :

بأيديهم نورانِ ذِكْرٌ وسُنَّة فما بالهم في حالِك الظلماتِ

أين نور الإسلام ؟ أين نور الحضارة ؟ أين عصر الأنوار ؟

يظن الناس أنه لم يبق شيء يمكن اكتشافه ، وليس هناك شيء قابل للاكتشاف ، وإن كان هناك ما يمكن اكتشافه ؛ فلا يمكن أن يكون شيئاً يقلب المفاهيم والأفكار !!..

المجتمعات والتمركز حول الذات

كيف كشفنا حقيقة حركة الأرض ؟ كم كان صعباً الوصول إلى معرفة طرف الأرض ؟ كم كان صعباً أن نفهم أنها تدور ؟

لقد صرت ألمح وأبصر إمكان كشف مشكلة الإنسان ، ورؤية الأخطاء التي نرتكبها في فهمنا حين نَسْعى لحلِّ مشكلته ، إنها أخطاء توازي وتشبه في مقدار خطئها الأخطاء التي وقعنا فيها حين كنا نظن أن الشمس تدور حولنا ، وأننا مركز الكون .

هل نستطيع أن نكشف في المشكلة الإنسانية أن كل مجتمع يظن أنه مركز الكون ؟ وأن الناس جميعاً ينبغي أن يدوروا حوله ، وأنه إذا تمكن فسيفرض ذلك بالقوة والإكراه : (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) [العلق : 96/6-7] .

إن من يظن أنه فوق العالم بانتمائه العرقي أو المذهبي الفكري . فوق العالم بذاته لا بما يقدم من خدمات ونفع لهم .. إن من يظن ذلك هو كمن يظن أن الشمس تدور من حوله .

إن حق النقض (الفيتو) مثل رائع وصارخ ، فاقئ وفاقع ، ويمكن فهمه بسهولة ، ولو لم يكن موجوداً كسيف مسلط أمام أعيننا لتعبنا في كشف معنى مركزية الأرض ومركزية المجتمع القوي .. أنا الأقوى ، إذن أنا مركز الكون ، وأنا الحق ، ومن رفض هذا فليعتبر بما حدث لغاليليو الذي تاب ورجع عما كشفه من عدم مركزية الأرض .

جدلية العلاقة بين الاستكبار والاستضعاف

إن هذا القوي ليقول : انظروا ماذا حلّ بمن أنكر سلطاني !!.. ما قيمة نمرود الذي قال : أنا أحيي وأميت ، إن سلطانه لم يكن يمتد إلا إلى رقعة محدودة من العالم ، أما أنا فمن هم الذين يمكنهم أن ينكروا امتيازاتي ، وإذا وجد منهم فليجرب حظه معي ، العالم جميعاً في قبضتي ، وفرعون الذي كان عظيماً هو اليوم ذو حجم صغير جداً أمام من يقول في عصرنا هذا : (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) [البقرة : 258/2] ، ولكن الناس من حوله ، والعالم جميعاً ، ينظرون إليه بعين الحسد ، لا ليزول عن العالم هذا النظام ، ولا ليزول الفكر الإنساني الذي أنتج هذا النظام ، ولكن ليتحول الأمر منه إليهم ، ويصير مقام الامتياز خاصاً بهم دونه .

كم يشتبه الأمر بين من يعمل لإزالة الجدل القائم بين مستكبر يحتفظ بالامتيازات ومستضعف يتمنى أن يكون هو صاحب الامتيازات ؛ وبين من يسعى إلى التخلص من الامتيازات جميعاً ؟؟!!

ينبغي أن نعمل لإزالة الاستكبار والاستضعاف من العالم ، ولإزالة الامتيازات ، ولدعوة الناس إلى كلمة سواء .

لقد جاء الأنبياء بمبدأ يزيل الآصار والأغلال عن المستكبر والمستضعف معاً ، ولكن هذا المبدأ لا زال بعيداً عن إدراكنا وتصورنا ، ولا زلنا نشعر بالأغلال التي تطوق المستضعِف ، ولا نشعر بالأغلال التي تطوق المستضعف ، وحينما نبدأ بالإحساس بأن المستكبر أيضاً مثقل بالأغلال التي على المستضعف ، عند ذلك نفهم معنى ملّة الكفر أو مجتمع الضلال من حذائه إلى غطاء رأسه .

لا بد من الخروج من لعبة الاستكبار والاستضعاف ، إلى مجتمعٍ لا يشعر فيه الإنسان بالمن إلا بمقدار ما يحافظ على القانون ، وبمقدار ما يسعى إلى أن لا يكون أحد فوق العدل وكلمة السواء ، ويستطيع الإنسان أن يخرج من لعبة الاستكبار بمفرده بقاعدة (لا طاعة في معصية) ، وحين يفهم قانون لعبة الاستكبار التي يتلقفها الناس ؛ يخرج من هذه اللعبة وهذا القانون والنظام ، ويكره العودة إليه كما يكره أن يُقذف في النار ، ويفهم بشكل مختلف قول الرسول r : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يقذف به في النار » [1] ، ولكن هيهات أن يدرك الناس الموضوع على هذا المستوى !!..

كم من الدولارات ، ومن الأونصات الذهبية تساوي هذه المعرفة ؟ كيف يكون شراؤها وتحصيلها ؟ بل كم من أطنان الدماء ينبغي أن نصب في نهر الصراع بين المستكبرين والمستضعفين ؛ حتى نقول : ينبغي أن نخرج من لعبة سفك الدم ونقبل السلام « وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام » [2] .

المسلمون وصناعة السلام

أنا أعلم تماماً أن البدء بالسلام ممجوج ومحتقر ومنبوذ ، وخارج عن العقل والعلم ، وهو الجنون الأعظم ، ولكن هل يمكن لنا أن نفكر ، ولو للحظة ، كيف سيكون وضع العالم الإسلامي لو قبل المسلمون أن يعيشوا بسلام فيما بينهم ، ولو آمنوا بأن خيرهم من يبدأ بالسلام ، وأنهم هم الذين ينبغي أن يصنعوا السلام وليس الله الذي في السماء ؟ لأن الله الذي في السماء لن يصنع السلام بين المسلمين حتى يصنعوا في أنفسهم عوامل السلام .

إذا لم تتمكن من فهم هذا فاقرأ أو أعد قراءة القراءتين مرّة أو مرّتين حتى لا تنسى ، لأن النسيان مشكلة كبرى ، ولذلك كان لا بد من الذكر والتذكر .

لماذا يصرفنا الله عن طريق السلام ؟ لماذا يجعلنا غير قادرين على رؤية طريق السلام فيما بيننا ؟ من هم الذين يصرفهم الله عن رؤية سبيل الرشاد ؟ كيف يجعل الله الناس في حالة الذين : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] .

---

[1] رواه البخاري في الإيمان ، باب : حلاوة الإيمان ، رقم (16) ومسلم في الإيمان ، باب : خصال من اتصف بهن ... رقم (43) .

[2] رواه البخاري في الأدب ، باب : الهجرة ، رقم (5727) ومسلم في البر والصفة ، باب : تحريم الهجر فوق ثلاث ...، رقم (2560) .

ألسنا نخاف من بعضنا أكثر من خوفنا من أشد أعدائنا ؟ هل نرجو من أعدائنا أن ينقذونا من بعضنا ؟ ألا ننسى أشد أعدائنا حين تستيقظ العداوات التي بيننا ؟

لقد خُدعنا من قبل سادتنا وكبرائنا حين كانوا يصمّون آذاننا ، ويلقّنوننا أن عدونا هو الشيطان الأكبر ، هو إسرائيل ، هو أمريكا ، و لم يكونوا يدركون أن هؤلاء لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً بدون قبولنا ومساعدتنا ، وبدون العداوات الموجودة بيننا .

من ذا الذي يستطيع أن يتحدث عن مرضنا ؟ بل من ذا الذي يستطيع أن يتعرف عليه ؟ من ذا الذي يستطيع أن يفتح هذا الملف ؟ ليراجع تاريخ هذا المرض وتطوراته وعلاماته .

كيف نحلل هذا المرض ؟ هل نرى الجرثوم الكامن والمختبئ ؟ عند أي العتبات يبدأ بالنمو ؟ متى يستيقظ كالمارد ليُهْلك الحرث والنسل ؟ كم مرّة استيقظ كالمارد في تاريخنا الماضي والحاضر ؟ كم مرّة أنفقنا ، وكم مرّة سننفق ما عندنا من غال ورخيص لإيقاف هذا المارد ، ونستعين مثل تشرشل بالشيطان الشيوعي والرأسمالي لقتل هتلر ؟

إن الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت مثالين للنزاع بين المستكبرين ، وحربي الخليج الأولى والثانية مثالان على النزاع الإسلامي الإسلامي ، والعربي العربي .

أين باستور الجراثيم التي ترفع درجات الحرارة في مناطق من العالم فيحدث النزيف الذي يهلك الناس بالآلاف المؤلفة ؟

كيف نكشف أن أمريكا تقول : أنا ربكم الأعلى ، أنا أحيي وأميت بواسطة حق النقض (الفيتو) المسلّط على رقابنا ؟

كيف نكشف أن هذا (الفيتو) سيزول كما زالت الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس ؟ كيف نكشف أن أمراضنا أخطر من أمريكا ، وأخطر من إسرائيل ؟ التي أشبهها بمنديل أحمر يحركه الآخر أمامنا فنثور ، كما يفعل مصارع الثيران حين يحرك منديله الأحمر أمام الثور الذي يظن أن المنديل الأحمر هو عدوه فينقض عليه بينما عدوه الحقيقي يغرس سهامه عليه من الخلف !!..

أنا أحاول أن ألفت الأنظار إلى بعض السنن التاريخية المجهولة والمخبأة بشكل محكم ، حيث إننا صنعنا في أذهاننا صوراً للعالم ، ووضعنا أحكاماً خرافية ألبسناها حللاً مثالية من الله ، ورسوله ، والذين خولناهم حق التفسير والنطق باسم الله والمقدسات .

أين الرشد ؟ كيف سنتبين الرشد من الغي ؟ كيف سنجعل سلوك سبيل الرشد ممكناً ؟ كيف سنجعل سلوك سبيل الغي مكروهاً ؟

كيف سنقرأ ، وفق طريقة القراءتين الإلهية والبشرية ، قوله تعالى : (حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ) [الحجرات : 7/49] ؟

الرشد وهدف الوجود :

نحن الذين سنقوم بتزيين الرشد في القلوب ، ونحن الذين سنجعل الكفر والفسوق والعصيان وسلوك سبيل الغي مكروهاً في القلوب ، ومذموماً على الألسنة .

أين أهل البيان ؟ أين محللو النفس ؟ أين جواسيس القلوب - كما يقول بعضهم عن الصوفية - ؟ أين أطباء تغيير ما بالأنفس ؟ أين الشباب الأذكياء الذين يدرسون هذا النوع من طب القلوب ؟ كيف سنزين الرشد في نفوسهم ؟ في أي جامعة وأي كلية يمكن أن يُتعلم هذا العلم ويعثر على هذا الفهم ؟

إنه موجود ، إنه هدف العالم ، وهدف الوجود ، وهو مكان امتحان واختبار ذكاء الإنسان . إنه ممكن ، اصدق في طلبه ، وسيصدقك الله في العثور عليه ، وتذكر قوله r : « أما هذا فقد صدق الله فصدقه الله » [1] .

---

[1] رواه النسائي في الجنائز ، باب : الصلاة على الشهداء (4/60-61) بإسناد صحيح .

هل في قدرتي أن أكشف هذا المخبّأ ؟ هل يمكن أن أعيد اكتشاف سبيل الرشد ؟ يقولون : إن الشعراء لديهم قدرة على تزيين الأمور ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، وفي كل واد يهيمون ، ولكن لماذا حُرم شعراؤنا من أن يقولوا ما لا يفعلون ؟ لماذا حُرّم عليهم القول وتزيين الأشياء التي لا يفهمونها ؟ لِمَ صُرف شعراؤنا عن قول الرشد ، وإن كانوا لا يسلكون سبيله ؟

حين كنا صغاراً في القرية ، كانت بعض الدواب تضل سبيل العودة إلى منازل أصحابها في المساء ، وكان أصحابها يخشون عليها من الذئاب المفترسة ، وكان في القرية أناس يعقدون تعويذة لربط أفواه الذئاب كي لا تأكل الدابة الضالة ، ولهذه التعويذة أقوال وأفعال مختلفة : آيات قرآنية ، أبيات شعرية ، كلمات حكيمة ، دعوات خالصة ، ربط سكاكين أو ملاقط النار أو المكانس . المهم أن يقال شيء ، ويفعل شيء ، ويوحي بشيء ، كل هذه الأشياء يقصدون منها أن تربط أفواه الذئاب ، و لم يكونوا ينسون أن يفكوا التعويذة حين يعثرون على ضالتهم ، حتى لا تبقى الوحوش أو الذئاب مربوطة الأفواه فتهلك جوعاً .

كان هذا بالنسبة لأفواه الذئاب ، ولكن من الذي ربط أفواه شعرائنا ؟ ومن الذي ربط أذهانهم وعقولهم حتى عن التفكير في سبيل الرشاد ، وعن تبيين الرشد من الغي ؟

لا يُشترط في الشاعر أن يكون مفكراً ، كما لا يشترط أن يكون المفكر شاعراً ، ولكن هناك تعويذة نحيكها حول أنفسنا ، حول شعرائنا وكتّابنا ومفكرينا ؛ كي لا تفكر عقولهم ، ولا تبصر أعينهم ، ولا تسمع آذانهم ، فكيف تنطق الألسن وقد ربطت العقول عن الحركة والفكر ؟ ورُبطت بأقوى من الحبال التي ربطت بها النجوم إلى صم الجنادل ، مما جعل ليل امرئ القيس طويلاً وغير قابل للزوال .

كيف حرمنا شعراءنا حتى من الخيال ؟ أين سبيل الرشد ؟ في أي مكان أفلت منا حبل سبيل الرشد والرشاد والراشدين ؟ متى كان ذلك ؟ كيف سقط منا ؟ كيف دخل الرشد إلى حياتنا أول مرّة ، وكيف خرج منها ، وكم من الوقت لبث عندنا ؟ كم وكيف يئسنا منه ؟ هل كان مجيئه بطريق سحري خارق متعالٍ لا يمكن إدراك بدء خلقه ومراحل نموه ؟ هل ولد ومشى على قدميه ورآه الناس وتحدثوا إليه ؟ هل يتذكره المتذكرون ؟

الإنسان وقانون التضاد

قبل الحديث عن الرشد والغي ، ينبغي أن نبحث في الإنسان القابل للتزكية والتدسية ، للرشاد والغواية ، للإيمان والكفر ، للهداية والضلال : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس : 91/7-8] .

إن هذه الطبيعة ، أو هذا الإلهام إلهي علوي ، فاعله هو الله تعالى : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه : 50/20] ، هذا الصنع والإلهام الإلهي مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاتجاه كما يقول المفكر المعاصر المبدع ، الفيلسوف المهتدي إلى شيء لم يهتد إليه أحد من قبل ، حسب علمي ، محمد عنبر [1] الذي اهتدى إلى قانون الحركة في الوجود ، وقانون التضاد في الشيء الواحد ، ولكن باتجاهين اثنين ، فكلمة رشد يكون ضدها في قراءتها إدباراً كما قُرئت إقبالاً ، فتكون (دشر) ، وكثيراً ما يستشهد ببيت امرئ القيس حين وصف فرسه قائلاً :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

إذا قرأت مادة (ر ش د) إقبالاً كان معناها التقيد والهداية والإشراط ، وإذا قرأتها إدباراً تحول معناها إلى ضده (دشر) ، التي تعني الانفلات والضلال والتسيب وعدم الإشراط وعدم التقيد .

وفي فلسفته أن الوجود مزدوج في الحركة بين المد والجزر ، فمن طبيعة حرف الراء في النطق الامتداد والاستطالة ، ومن طبيعة حرف الدال في النطق التوقف والحصر والانجزار ، انطق بالراء والدال ، وستحس بذلك في فمك ورئتيك ، ولهذا فإن المعنى في كشفه

---

[1] انظر : جدلية الحرف العربي ؛ محمد عنبر ، ط 1 ، 1987 م ، دار الفكر ، دمشق .

الفلسفي لا يمكن أن يكون اعتباطياً ، وعلى هذا فإن الوجود كله ، لا اعتباط فيه ، وضِدُّ الرشاد هو الدشار والتسيب في السير ، والضلال في المسعى .

النفس الإنسانية بين الفجور والتقوى

قبل الحديث عن الرشد والغي ينبغي أن نتحدث عن النفس الملهمة وعن الفجور والتقوى ، وهذا هو العمل الإلهي ، وإبداع مبدع الوجود . إن نسبة أحدهما إلى الله تعالى دون الآخر خروج من نظام وسنة وقانون الخلق الإلهي ، ولكن كم من الضلال يحدث في فهم هذا الموضوع ؟ سواء عند بعض الناس العاديين ، أو عند بعض العلماء الكبار المعروفين الذين يسوون ، بسبب هذه الشبهة ، بين الفجور والتقوى ، وبين الكفر والإيمان ، وبين موسى وفرعون ، وبين الحسنة والسيئة .

إن الحسنة والسيئة والفجور والتقوى ، كل هذا من الله ، من حيث الإلهام والخلق ، ولكن جعل هذه النفس الملهمة للفجور والتقوى فاجرة أو متقية ، هو مهمة الإنسان ، هو وظيفة المجتمع والأفراد المبدعين في الفهم والإدراك ، وظيفة المجتمع الذي عليه أن يعمم ويبلّغ الإبداع ولا يكتمه ولا يقمعه ولا يعارضه ، هذه هي علاقة الفرد والمجتمع .

أشعر أننا بحاجة إلى العودة للقراءتين كثيراً كثيراً ، لأننا ، وإن كنا نسلم بوجود القراءتين عند البحث والتدقيق ، فإننا نصاب بالاشتباه والضلال حين نسمع السؤال الدائم المستمر ، الذي يوجهه العوام : هل الهداية والضلال من الله أم من الإنسان ؟

طالما سُئلت هذا السؤال من كل أصناف الناس ، وهذا السؤال موضع حيرة العلماء ، وكثيراً ما يُوصِل الفلاسفة إلى الحيرة والعدمية ، وإن كان يسيراً على من يسّره الله عليه ..

ينبغي أن نكثر من قراءة قوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (هذا هو عمل الله) ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (وهذا هو عمل الإنسان) [الشمس : 91/7-10] .

لتكن هذه الآية أنشودة على كل فم ، وعلى كل لسان ، فلنُعد إليها المعنى الجدي ، ولنُبين كيف يقوم الناس بالتزكية والتدسية ، بوعي وبغير وعي ، ونستطيع أن نكشف الذي يحدث بغير وعي ونجعله تحت تصرف الوعي ، وأن نختزل ما تعبت فيه البشرية قاطبة ، خلال تاريخها الطويل ، في سنوات قليلة من حياة الطفل ، حتى قبل أن يبدأ بالنطق ، فضلاً عن أن يبدأ بالكتابة .

هذا ما نتعب فيه الآن ، لأننا نريد أن نغير أشياء مما بنفس الإنسان من الفساد وسفك الدماء ، أشياء ظن الناس أنهم لا يمكن أن يعيشوا بدونها .

لقد ظنوا أنهم لا يمكن أن يعيشوا دون سفك للدماء ، حتى إن السؤال الذي أواجه به ، والذي يدور على كل لسان هو : أين أنت من بدر وأحد وحنين ؟

إنهم لا يفهمون بدراً وحنيناً إلا كما يفهمون داحس والغبراء وحرب البسوس .

لقد شوّهوا القضية حين ظنوا أن بدراً وحنيناً مثل حربي الخليج الأولى والثانية ، وهم لا يفرقون بين الجرح الذي يفتحه الطبيب لإجراء عملية جراحية ، وبين جرح يفتحه مجرم غبي يسعى للقتل والنَّهب .

إن كنت لا تفهم الموضوع إلا كما يفهمه هؤلاء ؛ فارجع إلى جاهليتك وإلى شريعة الغاب ، واهنأ بالعيش فيها ، وأعد مآسيها حتى تملَّ ، ولن يملَّ الله حتى تملوا وتفرقوا بين المجاهد والخارج .

ما اشد التباس الأمور !!..

هذا ما أسعى لبيانه ، وسأظل أسعى لبيانه وتوضيحه ، وسأبدئ وأعيد ، وإني على يقين من إمكان الوصول إلى الطريق الأقرب رشداً ، وإني لأطمع بأن أزيل الالتباس ، وأبين الرشد من الغي ، وأبين معنى (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 256/2] ، ولا يمكن أن نُبين الرشد من الغي إلا إذا عرفنا كيفية التباسه به .

الأنبياء وحرمة النفس الإنسانية

سَلْ من شئت عن الفرق بين المجاهدين والخوارج ، واسأل من شئت عن شروط الجهاد ، اسأله من هو الذي يجوز لنا أن نقتله ، وما شروط الجواز ، ومن الذي يقوم بالقتل ، وما شروطه أيضاً ...

ما شرط المجاهِد وما شرط المجاهدَ ؟ حتى يكون القتال جهاداً لا قتالاً تحت راية عمية .

عليك صلاة الله وسلامه يا سيدي يا رسول الله يوم قلت : « من قاتل تحت رايةٍ عميَّةٍ فقتلته جاهلية » [1] .

متى نبدأ بإعادة النظر في هذا الموضوع الخطير ؟ متى نتساءل ؟ متى نسأل عن الظروف التي يجوز فيها قتل النفس التي حرم الله ؟ متى تكون النفس محرمة ، ومتى تكون مباحة ، ومن الذي يباح له قتلها ؟؟

لماذا حذرنا رسول الله r ، في حجة الوداع ، من أن نعود بعده كفاراً ضلاّلاً يضرب بعضنا رقاب بعض ؟

إن الغضب ، وظلم بعضنا لبعض ، والأحقاد المتراكمة في نفوسنا ، كل ذلك أعجزنا عن أن نفكر ، فات أوان التفكير لأننا مشغولون بالاشتباكات الساخنة والباردة التي تدور بيننا . ولكن لا بد من التفكير في هذا الموضوع الذي سأظل أبحثه كمنقّب الآثار الذي يزيل الأتربة وأكوام النفايات التي تراكمت على ما جاء به الأنبياء ، لنعيد إليه الحياة .

إن أكثر الناس اليوم يظنون أن عهد الأنبياء قد ولى ، وفات عصر الأسطورة ، أما الذين لا يزالون يؤمنون بالأنبياء ، فإنهم يشعرون باليأس من إمكان إعادة ما جاء من أجله الأنبياء ، وينتظرون الخارق المهدي ، ولا يحاولون إعادة ما جاء به الأنبياء ، بالأسلوب نفسه الذي جاؤوا به .

إنني أتحدث عن الرشد والغي ، وأنهما مجموعان في قوله تعالى : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، فالإكراه هو الغي سواء في الدين أو في السياسة ، واللاإكراه هو الرشد ، ومن يؤمن بالله الذي أمر باللاإكراه وبالرشد ، ويكفر بالطاغوت الذي هو الإكراه والغي ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

إن هدفي من ذلك كله هو أن أعيد القداسة والتقديس والمعنى والاهتمام إلى (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، وأن أزيل عنها بالإبهام والالتباس والغموض ، وأن أخرج من القلوب الإكراه والكراهية التي تولد الغل في القلوب ، وأغرس مكانه الحب والتحبب الذي يزيل الغل : (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر : 10/59] .

إن أمورنا معقدة جداً ، وثقافتنا تحولت إلى الإكراه في السياسة ، ولا قدرة لنا على التخلص منه ، لأننا نسلك طريق الغي ، ولأننا لم نعد نشعر بإمكان سلوك طريق غيره .

بناء الرشد بالرشد :

لقد صار الاهتداء إلى سبيل الرشد مستحيلاً ، ودليل ذلك تجارب ما بعد الراشدين إلى يومنا هذا .

أليس في التاريخ عبرة ؟ أليس عجيباً ألاّ يخرج منا رجل رشيد ، وأن لا يخرج حتى من يبحث عن سبيل الرشد أو من يتساءل : كيف نعيد الرشد ؟ لقد صار الرشد عندنا جنوناً ، لأن الرشد لا يصنع الإكراه ، بل يصنع بتحدي الإكراه باللاإكراه ، بتحدي بلال وابن آدم ، بتحدي (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [البروج : 8/85] .

نحن لا نريد أن نموت بطريق الرشد ، نحن لا نريد أن نقابل الغي بالرشد ؛ ولكن نريد أن نقابل الغي بالغي أو الرشد بالغي ، وهكذا ضيعنا الرشد ، واستمر حالنا على الإيمان بالغي والإصرار على مقابلة الغي بالغي ، واعتبرنا أن مقابلة الغي بالرشد هو طريق الجنون ، والمفارقة الغريبة هي أننا توهمنا أن بالإمكان صناعة الرشد بالغي . لا بل المفارقة الأخفى والأكثر طفولية وضلالاً ، هو أننا ظننا أن غينا هو الرشد ، وأن غي الآخر فقط هو الغي .

---

[1] رواه مسلم في الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن رقم (1848) .

وراية عمية : أي ملتبس الأمر فيها ومشتبه ، وعمي الرَّجُل عَمايةً : لَجَّ في الباطل وغَوَى .

يا من له قدرة على التأمل والتدبر !! تأمل هذه النقطة وتدبرها ، وانظر كيف يتسلل الغي إليك في صورة الرشد ، انظر كيف يزيَّن لك سوء عملك فتراه حسناً ، احذر يا من لا قدرة له على التمييز بين الحسنة والسيئة ، وبين الرشد والغي .

هل يمكن أن يخطر في بالك إلى أي درجة التبس الرشد بالغي ، بينما يقول تعالى : (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) ؟

إنه يؤكد أن الرشد قد تبين ، فهل تبين لنا الرُّشد من الغي ؟ هل لدينا القدرة على سلوك سبيل الرشد ؟ هل أصبنا بعجز مفرط وفظيع ، وببعد شديد عن سلوك سبيل الرشد ؟

إن لدينا شهوة كبيرة ، سواء أمكن تحقيقها أم لم يمكن ، لسلوك طريق الغي واتخاذه سبيلاً ، ارجع إلى قلبك ، وأعد النظر فيه ، ولا تغرنك كثرة سالكي سبيل الغي ، ولا تستخفنك قلة السالكين إليه أو الهاجرين له بتاتاً .

أليس جديراً بنا أن نتوقف طويلاً لنتأمل سبيل الرشد وسبيل الغي ؟ أليس واجباً علينا أن نعيد القول فيه ونكرر ؟

أحياناً أقوم بتجربة ، وهي أنني أعرض طريقاً وسبيلاً نستطيع بها أن نحل مشكلاتنا من غير أن يخسر أحد شيئاً ، ويربح الجميع ، وأؤكد على أنه سبيل لا يخسر فيه ملك أو زعيم أو صاحب مال أو صاحب أرض ، ولا يكون فيه نزاع مسلح على حدود ، وأقول : لا توجد مشكلة تستعصي على الحلّ السلمي ، ولكنني ما عرضت هذا الأسلوب مرّة إلا ورفض ، رُفض الأسلوب السلمي الذي لا يخسر معه أحد من الطرفين شيئاً ، لا مالاً ، ولا شرفاً ، ولا أرضاً ، ولا غير ذلك من الأمور المادية والمعنوية التي يمكن عدّها وإحصاؤها ، رفض الأسلوب الذي يربح معه الجميع ، ويكسبون الإعجاب من المحبين ، والتقدير من غير المحبين .

هل الدعوة إلى هذا الأسلوب دعوة إلى الغي أو إلى الرشد ؟ أليس رفض مثل هذه الدعوة ، وعدم القدرة على تصورها ، رفض للرشد وقبول بالغي ؟

الفصل السادس

في دلالات آية الوحدة الأوربية

ليس غير المثل الواقعي مقرباً لهذا الموضوع إلى الفهم ، وسأضرب المثل الذي أذكره وأكرره وأعيد ، وأرجو من كل الذين يقرؤونه أن يتأملوه جيداً ، وأن يتبينوا ما فيه من رشد ، وإذا كان بإمكانهم أن يأتوا بمثل أفضل من هذا للتوضيح ، فأرجوهم أن يبذلوا جهودهم للإكثار من الأمثلة ، والمساعدة في البيان والإيضاح ، لأن مرضنا الذي يتحدانا هو الغموض والالتباس .

التاريخ يزيل الالتباس

أريد أن أعرض مثلاً ، وإذا قبلناه ، فسنحاول جهدنا في شرحه والتفكير فيه مع الآخرين ، وربما يكون الطريق الذي نريد أن نسلكه صعباً ، كما كان في السابق ، وربما يكون ملتبساً ، وربما تراه غير ممكن ، ولكن التاريخ يقدم لنا أمثلة أدعى للفهم وإزالة الالتباس .

وإنني حين أعظم التاريخ ، وأجعله المرجع والمرجعية العظمى والأخيرة ، فما ذلك إلا لأنه مصدر زوال الالتباس ، ولأنني أشعر أن اللجوء إلى التاريخ هو الذي يحيي أسلوب القرآن في التربية والإفهام وتقديم المثلات والاعتبار بصنع الله في التاريخ وإبداعه في خلقه : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه : 50/20] ، فهو الذي هدى البشر بالعبر والنظر والتأمل .

ينبغي أن أعيد إلى المقدس قداسته ، إن التاريخ هو مصدر معرفة الزبد الذي يذهب جفاءً ، والنافع الذي يمكث في الأرض ، ومهما تجاهله المتجاهلون ، فإن الذين يتجاهلونه هم الذين يذهبون جفاءً ويُنسخون رغماً عنهم ، وسيجبرون على القبول به صاغرين ، وميزة الذي يقبله هو أنه يختصر الزمن ويقلل الخسارة عن طريق قبول الأنفع وترك ونبذ الزبد والضرر .

والمثل الذي سأضربه لك ، وإن كنت تسمع به كثيراً ، لكن احداً لم يقل لك إن فيه عبرة وتاريخاً ونفعاً وتجنباً لطريق الغي واهتداءً لطريق الرشد ، وإنني - وإن لم أقل - : إنه الرشد ولا مزيد عليه ، إنه غير قابل للزيادة في الرشد ، فإنني أقول : إنه بلا شك

أقرب للرشد والنفع ، بل إنني سأقول أكثر من هذا ، سأقول ما لم تسمعه من قبل : إن هذا المثل الذي أسوقه مثل الأمثلة التي يقول الله عنها : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف : 105/12] .

التأمل في الآيات التاريخية

أريد أن اقف عند هذه الآية التاريخية ، لا أريد أن أعرض عنها ، سأقف عندها وأرفض الذين يتجاوزونها ، والذين لا يقدرونها ، وأنا على علم بأن هذا الحدث غريب وجديد في تاريخ العالم كله ، فكيف لا أقف عنده ، وكيف لا أهتم به ؟!! وأنا الذي تفحصت عِبَر التاريخ وأحداثه فلم أر فيه حدثاً مثل هذا الحدث حدثاً راسخ الأصل ، واضح المنطلقات ، يقوم به أصحابه عن وعي وإدراك وأرضية عظيمة من الخبرات والعبر التاريخية والأثمان الباهظة التي دفعوها حتى وصلوا إليه .

وإذا كنت أيها القارئ ، لا تعطي قيمة لهذا الحدث ، ولم تر أحداً أعطاه قيمة ، فلا تظنن أنه لا قيمة له ، فعدم تقديرك لهذا الحدث دليل على أنك قليل المعرفة بأحداث التاريخ ، وقليل الخبرة بالنافع والضار ، وغائب عن العالم وأحداثه ، ولا تميز البضاعة الجيدة من البضاعة الرديئة ، ولا تميز الرشد من الغي ، ولا قدرة لك على رؤية الرشد والغي ، ولم يتبين لك الرشد من الغي .

تقبّل الحسنات ورفض السيئات :

إن هذا المثل التاريخي البشري ، الذي لم يحدث مثله منذ أن ولد البشر ، هو السوق الأوربية المشتركة ، أو ما يعرف بهذا الاسم ، وما صار يعرف بالاتحاد الأوربي .

قد تسخر مني حين أفاجئك بهذا التقدير والإعجاب والتفخيم ، لا حرج في ذلك ، اسخر مني وزد في سخريتك واحتقارك لي ، اعتبرني أسيراً للحضارة الغربية وللغزو الثقافي الكافر .

لو كنت لا أعلم وضعك ، أيها الخ الساخر مني ، مقدار علمك ومبلغ فهمك والمقدار الذي ينبغي أن أعوله عليك في فهم الخطأ والصواب ، لو كنت لا أعلم هذا لما استطعت أن أواجهك ، ولكنتُ مثل الآخرين الصامتين الذين لا يعرفون ما يحدث في العالم ، وإذا علموا لا يستطيعون أن يواجهوا الذين لا يفرقون بين الخطأ والصواب .

إنني أميز الذين يتعاملون مع الأمور على أساس الحب والكره ، لقد جربناهم طويلاً فلم نجد منهم طائلاً .

إن الذي يقبل الأمر أو يرفضه على أساس الحب والكره لا يمكن له أن يميز النافع من الضار ، ولهذا نجد أن الذين يقبلون على أساس الحب يقبلون كل شيء من لمحبوب ، هذا في الظاهر ، ولكنهم في الواقع لا يقبلون إلا الضار ، إنهم لا يستطيعون أن يقبلوا النافع ، ويقبلون بالضار ، وكذلك الذين يرفضون الآخر على أساس الكراهية ، إنهم يرفضونه ويردونه دنساً حقيراً ، ولا يتمكنون من رؤية النافع والضار ، وحتى إن رأوا نافعاً لا يستطيعون أن يأخذوه منه ، ولكنهم يتوقون إلى الضار ويأخذونه منه .

إن موقف الاختيار صعب ، الرفض الكلي سهل ، وكذلك القبول الكلي ، أما التمييز والقدرة على الأخذ والرد من كلا الطرفين فهذا صعب جداً ، صعب جداً أن تقدر على أن تتقبل أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم .

الغفلة والعذاب الأليم

إن غياب المميزين ، وكثرة الهالكين ، جعلنا حيارى يائسين ، ولكن التاريخ يعلمنا ويؤدبنا بالمطالبة بالفواتير الباهظة جزاء غفلتنا ، وما حرب الخليج عنا ببعيد !! صحيح أن السياسي والأخلاقي يقفان منها موقف الإدانة والأسى ، ولكن عالم الاجتماع والتاريخ يكون له نظر آخر ، ربما يبصر في الفساد والخراب فيرى في أعماقه ما يساعده على التخلص منه .

كيف يأخذ إنسانٌ السِّلعة مجاناً ؟ إنه لا يقدر تلك السلعة ، ولا يستطيع أن يأخذها بحق إلا من دفعه ثمنها ، ولكن التاريخ ليس مثل التاجر ، إنه يقدم العبرة مجاناً إذا أردت أن تستفيد منه ، أما إذا رفضت أن تأخذها مجاناً بالاعتبار ، فستُرغم على شرائها ودفع ثمنها الغالي .

خذها مجاناً ، فإنه يكفي أن تدفع ثمنها مرّة واحدة ، لا تشتر السلعة مرتين ، والمؤمن لا يشتري السلعة مرتين : « لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين » [1] .

إن حرباً خليجية واحدة ، تمكننا من رؤية جميع الحروب الخليجية ، القديمة والحديثة ، إنها تتراكم لنأخذ منها العبرة .

لقد جددت المآسي الحديثة المآسي القديمة ، ولكن المأساة الحديثة كانت مؤلمة جداً ، فالطعنة دخلت إلى الأعماق ، ووصلت إلى الأعصاب ، وهشمت الجمجمة ، وطحنت الدماغ ، وزلزلت الجلود ، والناس في حرب الخليج تركوا أعمالهم ، وانصرفوا عن الأشياء المسلية ، صغاراً وكباراً ، نساءً ورجالاً ، قادة ومقودين ، وجلسوا يسمعون الأخبار وينظرون إلى الأحداث ، وليست آثار هذه الحرب هي ما تحدث به الجانبان .

لقد حطمت عالمنا القديم الساكن ، وجعلت الناس قادرين على المراجعة أكثر من ذي قبل ، وتهاوت مقدساتٌ كثيرة كنا نلفّ بها أقذارنا ، وشعرنا بأننا جميعاً ملوثون ، لم يبق لعالم على جاهل ، لقد استوى الجميع في الحيرة والاندهاش .

إن العاصفة الماطرة تأتي وتقتلع أشياء كثيرة ، ولكن الماء يأخذ سبيله في مسالكه ، وينبع بعد ذلك ماءً يبعث الحياة من الموات .

إنني لا أتفاءل كثيراً ، ولا أنكر حجم تلك المأساة المروعة ، ولكنني متأكد من أننا تقدمنا ، وأن الأساس الذي نقف عليه للبناء صار أمتن ، وأحداث التاريخ ، وإن كانت تشتمل على المآسي ، لكنها تشتمل على المبشرات أيضاً .

التراث الأوربي والسوق المشتركة

لقد عبروا عنها بالسوق ، بالتجارة ، بالربح والخسارة ، لأن وراءهم تجارب حروب المئة عام ، وحروب الثلاثين عاماً ، وراءهم الحروب الدينية والمذهبية ، وإذا كان وراءنا حربان خليجيان ؛ فإن وراء التعاون الأوربي حربين عالميتين ، ومئات الملايين من الضحايا .

لم تأت السوق الأوربية لقمة سائغة من السماء ، بل نبتت من بين الخراب والدمار .

ينبغي أن نكتب عنها الكتب ، وأن يتنافس في تحليلها وتصويرها وتأملها المتنافسون ، كي نعرف بدايتها ووضعها الحالي ، والمآل الذي يعملون لتحقيقه في المستقبل ، والذي لا يمكن التكهن بنهايته .

سابقاً أرادوا أن يصنعوا الوحدة بالإكراه ، بالغي ، بالقوة ، وظهر فيهم طواغيت من أمثال نابليون وهتلر الذين كانوا مثل عاد وثمود وفرعون ونمرود ، فأهلكوا الحرث والنسل ، ولم يصلوا إلى بغيتهم ، الأول مات منفياً في الجزر النائية ، والثاني مات منتحراً ، وأحرق نفسه بيده ، قبل أن يمسك به أعداؤه ، ولسان حاله يعيد قول الزباء : « بيدي لا بيد عمرو » . بقي هذان المثالان عبرة لمن يعتبر : (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) [الشعراء : 227/26] .

أين المتوسمون ؟ أين المتفرسون ؟ أين المتدبرون ؟ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) [ق : 37/50] .

لقد تعب الأوربيون ، ودفعوا الثمن غالياً ، وكم سلكوا طريق الإكراه ، وسبيل الغي ؟!! وكم خضعوا للطاغوت ؟!! ولكنهم من الإكراه تبينوا كيف يكون اللاإكراه ، ومن سلوك سبيل الغي تبينوا كيف يسلكون سبيل الرشد والرشاد ، ومن الدمار الذي يجلبه الطواغيت تعلموا كيف يرجعون إلى كلمة السواء ، وكيف لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً .

ما قصة كلمة السواء ؟ ما قصة أن يكون الناس أتباعاً للطاغوت ، يستخفهم فيطيعونه ؟!

إن لكلمة السواء قصة في تاريخنا ، مسجلة في الرسائل التي أرسلها خاتم الرسل إلى زعماء العالم آنذاك : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ؛ أَلا نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) [آل عمران : 64/3] .

---

[1] رواه البخاري في الأدب ، باب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، رقم (5782) ومسلم في الزهد والرقائق ، باب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، رقم (2998) .

سنعود إلى قصة كلمة السواء ، ولكننا الآن سنتابع الحديث عن السوق الأوربية المشتركة ، ولا تَنْسَ أنني قلت لك أنك ستأخذ من هذا المثل طيقاً لإمكان رؤية جديدة ، لإيجاد حلٍّ للمشكلات دون إكراه ، وبدون غيٍّ ، ودون بغي ، حلٍ لا يخسر معه أحد ويربح الجميع ، ولا يحتاج أحد لأن يخسر شيئاً ، لا مالاً ولا ملكاً ولا مكانة ، ويُزاد ملكهم جميعاً ، وترتقي مكانتهم في الداخل والخارج ، عند الأنا وعند الآخر ...

هذا الحدث لا يحدث في الآخرة ، ولا في الميتافيزيقيا ، ولا في السماء ، هذا الحدث يحدث في الأرض تحت أسماعنا وأبصارنا ، ولكن هل نسيت ما قُلته لك سابقاً ؟

السعي الدؤوب لتحقيق الهدف

لعلك لم تأخذ كلامي مأخذ الجد ، ربما ظننت أنني أستخف بك ، أو أنني أريد أن أسليك وأداعب خيالك ، لا ليس هذا مقصدي ، مقصدي شيء كبير ، إنني أريد أن أبني عالماً جديداً ، وأريد أن أقول لك : إن أدوات البناء كلها صارت جاهزة ، ولم يبق إلا أن تلقي السمع وأنت شهيد .

ولكن ، كيف نعيد للأسماع والأبصار قدرتها على السماع والرؤية ؟ هذه هي المشكلة التي نبهنا القرآن إليها ، حين أخبر أن الإنسان قد يصل إلى حالة لا قدرة له معها على الإبصار والإدراك والفهم .

لا تيأس ، هذا حق وواقع ، لكن هذه الحالة ليست دائمة ، ولا أبدية ، كما أن حدوثها ليس حتمياً ، قد أعجز أنا ، وقد يعجز الآخر عن تقديم ما يكفي من المكافآت والعذابات ، من البينات والمثلات ، ولكن الله غالب على أمره ، ونحن سنبذل الجهد ، ونمهد الطريق لإعادة الحياة إلى العيون ، وإزالة الصمم من الآذان ، هو واقع ، ولكنه قابل للزوال : ما أنزل الله من داء إلا وانزل له دواء عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، وشفاء العي السؤال ، ودواء الجهل العلم ، فلا تحقرن من جهدك شيئاً .

إنني أكتب هذه الكلمات وأنا انظر من النافذة إلى السماء الزرقاء ، أنا الآن وحدي ، أخاطبك وأنا غائب عنك ، وأجالسك وأنا بعيد عنك ، ولكننا سنتعاون للاقتراب من فهم أفضل ، وسأبثك ما أحمل في نفسي من قلق ، لا أريد لمشاعري أن تُدفن معي ، أريدها أن تبقى بعدي ...

كم تعب الناس ممن كان قبلك لترتاح ؟! كم علينا أن نتعب كي يرتاح مَنْ بعدنا ؟!

علينا أن نشتاق إلى الذين سيأتون بعدنا ، وعلينا أن نعيش معهم أيضاً ، علينا أن نحمل هم العالم على ظهرنا ، وأن نفعل ذلك ونحن نشعر بالقبول والرضا والسرور بالجهود الصغيرة ، البالغة الصغر ، التي نبذلها فيما بيننا ، مع أهلنا في البيت ، ومع جيراننا في الحي ، ومع كل الذين نستطيع أن نسمعهم صوتنا ، والذين يمكن لهم أن يقرؤوا كتاباتنا .

ينبغي أن نبذل جميعاً جهوداً لتضاف إلى الجهود التي بذلت من قبل ، والجهود التي يبذلها الآن أناس لا نعرفهم ، ولا نعلم عنهم شيئاً ، ولا يعلمون شيئاً عنا ، ولكن جهودنا ستلتقي ، ستلتقي هناك ، وستصنع عالماً جديداً .

كان جلال الدين الرومي شاعراً ، وكان صاحب رؤية للنفس الإنسانية وللعالم ، كان يريد من كتاباته تأدية أمانة يراها ، فكتب المثنوي ، كتبه وهو يريد أن يقلب به رؤية العالم كله ، كتبه شعراً وقصة وتحليلاً ونكتة وخواطر وتيهاً ولفاً ودوراناً ، كان يكثر من الاستطراد ، لكنه كان ليناً وخفيفاً وماهراً في اللمس ، اقرأه ، وستعلم أن أناساً كثيرين عاشوا قبلنا ، وعملوا كثيراً ، لا تظنن أن الرّومي لا يؤثر فيك ، لأنك لم تقرأه ولو تعش معه ، ولم تسمع به ، إنك تعيش محمولاً على المركب الذي ساهموا في بنائه ، أنت يا أُخيّ ويا بُني محمول : (عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ، جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ) [القمر : 54/13-14] .

أنت لا تعلم مقدار التأثير الذي أحدثه محمد إقبال في هذا العالم الذي نعيش فيه ، ومقدار التأثير الذي سيحدثه في المستقبل .

إنك لا تعلم مقدار الجهد الذي بذله حتى شق أنينه عنان السماء .

أنا ألف وأدور ، أزمزم وأدمدم ، وحالي أشبه ما يكون بحال ذاك الأعرابي الذي قال : « أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ » ، وكنني مع ذلك سألف وأدور ، سأدندن وأُأذِّن حولك ، سأزعجك وأوقظ ليلك بأذاني ، مهما كان صوتي منفراً ونشازاً .

الفجر الجديد وكلمة السواء

أريد أن أوقظ نفسي ، وأطمع أيضاً في أن ألفت انتباه بعض من حولي ، إلى حقيقة أن العالم يتقدم نحو فجر جديد قريب ، فلنستيقظ ولنتجهز له قبل أن يباغتنا .

العالم الغربي يستعد لهذا الفجر بواسطة الدعوة إلى كلمة السواء بعد أن جرب كلمة البغي ، وطالما كان البغي والغي قائدين له إلى الهلاك بترك سبيل الرشد بعد أن لاحت له ورآها : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] ، (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) [الشورى : 14/42] .

ما هو البغي ؟ ما هو الغي ؟ ما هو الكبر ؟

سأحفر حول هذه الكلمات ، لا ليس حول هذه الكلمات ، بل حول معاني هذه الكلمات : البغي ، الغي ، الكبر .

الصوفية هم الذين كانوا يفكرون في الأحوال النفسية ، والذين لا يدخلون إلى الأحوال النفسية ؛ يقفون عند الرسوم ، عند الصور ، والله لا ينظر إلى صورنا ، بل ينظر إلى ما في الصدور ، إلى المحركات الأولى ، إلى الطاقات والدوافع الكامنة ، إلى الأضغان وما بالأنفس .

هل لديك شوق إلى رحلة في أحوال النفس الإنسانية ؟

يذكر جلال الدين الرومي أن رومياً وفارسياً وعربياً وتركياً اجتمعوا ، وكانوا جميعاً مصابين بفقد البصر ، تصدق عليهم محسن بدينار ، فاشتهوا العنب ، ولكن اسم العنب مختلف في لغة كلٍ منهم ، فتنازعوا نزاعاً شديداً ، وكان كل واحد منهم يقول إنه يريد أن يشتري العنب بلغته ، فيظن الآخرون أنه يريد أن يشتري شيئاً آخر ، فأحدهم يقول : أريد رستافيل ، والآخر يقول : لا ، أنا أريد أزوم ، وهكذا ، فمر بهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً ، فقال لهم : أنا سآتي لكل واحد منكم بما يريد ، فذهب واتى بالعنب ، ووضع في يد كل واحد منهم عنباً ، ففرح الجميع ، وشعروا أنهم وصلوا إلى ما يريدون .

يقول الرومي : في هذه القصة حصة ، في هذا الحدث معنى ، وكل النكات المضحكة تحوي مغزىً عميقاً ، وكشفاً لجهل الإنسان بطريق لطيف خفيف ، بحيث لا يشعر بالغضب حين يكشف جهله ، بل يضحك ويُسَرُّ .

في كل القصص المضحكة حكمة قريبة وبعيدة ، وحتى الضحك ليس كلمة ، وإن كانت الكلمة تحدث ضحكاً ، والكلمة في ذاتها ليست هي التي تضحك ، بل الأنفس هي التي تضحك ، وكل نفس تضحك بحسب مستواها ، فنفس تضحك حتى تنقلب على قفاها ، من شيء قد لا يحرك من إنسانٍ آخر ساكناً .

ما هي الكوميديا ؟ وما فلسفتها ؟

هذا الفن يستخدم للتسلية والترويح عن النفوس فقط ، مع أنه قابل لأن يستخدم لتغيير النفوس بالسرور والطرب والفرح .

هل سمعت أن الإنسان يبكي من شدة الفرح ، من الضحك ؟ نعم الإنسان يبكي من الفرح ، والناس يقولون : دموع الفرح باردة ، ودموع الحزن ساخنة ، ودموع الآلام مأساوية ، وأعتقد أن بإمكانك أن تأخذ من قصة الرومي حصة من الحكمة العميقة ، ولكن من شدة قربها صارت مضحكة ، وانقلبت إلى ضدها ، وما ضحكنا منها إلا لوضوحها ، و لم نستفد منها لغموضها أيضاً ، و لم نستطع أن نجعل حياتنا كلها سروراً ، أو على الأقل لم نستطع ألا نجعل حياتنا كلها آلاماً مستمرة ولدغاً متتالياً من الجحور نفسها .

لا حرج أن تحدث بعض اللدغات ، لنعلم فضل الذين سبقونا ، فلا نسخر منهم ، لأننا على حسابهم حصلنا على سرور يزيد عن سرورهم ، وآلام أقل من آلامهم ، ولولاهم لظل بعضنا يأكل لحم بعض .

توجيه الطاقات واستثمارها

خذ من القصة ومن الخبر عبرة ، واعلم أن الله حين يجعل التاريخ وأخبار الأولين موضع اعتبار واختبار ، فهو إنما يريد منا أن نسلك سبيل الرحمة والرشاد ، وألا نسلك سبيل الألم والغي ، أو على الأقل ألا نكرر الآلام التي فات أوانها ، تكفي الآلام التي أمامنا ، والتي تتحدانا .

علينا ألا نضيف إلى الأثقال أثقالاً ، أمامنا مهمات ثقيلة أخرى ، فلنتخفف من الآلام التي صار مكناً الاستغناء عنها :

أَلْقى الصَّحيفةَ كَيْ يُخَفِّفُ رَحْلَهُ والزّاد حَتّى نَعْلَهُ أَلْقاها

في علم النفس يقولون : كثيراً ما نستهلك قوانا وطاقاتنا بحمل أشياء لو تخففنا وتحررنا منها لكان بإمكاننا أن نواجه مشاكل أخرى بفاعلية أكثر ، والأنبياء إنما جاؤوا ليضعوا عنا إصرنا ، وأثقالنا وأغلالنا ، لنواجه الحياة بنشاط أكثر ، ونكون غير مرهقين .

ما الذي يجعل سلوك سبيل الرشاد غير ممكن ؟

ما الذي يجعل سلوك سبيل الغي مقبولاً ؟

ما الذي يصرفنا عن هذا ، ويلقي بنا في ذاك ؟ هذا ما ينبغي أن نتأمله : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف : 146/7] .

الإنسان بين التزكية والتدسية

كيف يصير الإنسان في حالة لا يعتبر معها ولا يستفيد مما يراه أمامه ؟ كيف يصير أعمى عنها ؟

إنها مشكلة الإنسان الذي يملك وجهين وإمكانيتين ، يملك أن يكون في أسفل سافلين ، وأن يتحول إلى كائن شبيه بالأنعام : (أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) [الأعراف : 179/7] ، ويملك أن يكون في أحسن تقويم : (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون : 14/23] ، وأن يرتقي إلى أن يسجد لهذا المخلوق الواعي كل شيء ، ومن لم يقبل فليخرج من دار الكرامة إلى دار الخزي والعار .

كيف نجعل هذا الإنسان في أحسن تقويم ؟ كيف نحول فجور نفسه إلى تقوى ؟ كيف نحول النفوس التي مرّغتها أوحال وأقذار الفجور والطغيان ، فنجعلها في أحسن تقويم ، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر ؟

هذه هي الوظيفة التي تركها لنا الأنبياء : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 10-9/91] .

نعم إنها وظيفتنا أنا وأنت أيها القارئ ، فلنفهم أولاً أن هذا يرجع إلينا ، وأن بإمكاننا أن ننقذ أنفسنا ومن حولنا . لا تيأس ، وليكن لك في بلال أسوة وقدوة ، فقد ضرب لك المثل حتى لا تحقر نفسك ، وعلّمنا كيف نزكي أنفسنا ، وإن كانت لكبيرة ، وكبيرة جداً ، لكنها سهلة وميسرة على الخاشعين ، والخشوع ضد الكبر ، وضد البغي .

كيف ننزع الكبر والبغي من أنفسنا ؟ كيف صرنا مرضى بالكبر والبغي ؟ كيف نصل إلى الخشوع دون أن نُستعبد ؟ كيف نتخلص من الكبر من غير أن نذل ونخزى ؟

لا تظنّن أيها القارئ أنها هبة إلهية ، إنها بمقدار ما هي هبة إلهية ، فإنها صناعة إنسانية ، نحن الذين نغير ما بأنفسنا ، والله هو الذي أعطانا كل الأدوات وكل الوسائل ، وضرب لنا الأمثال ، وقدم لنا النماذج ، وأرسل الرسل ، فقاموا بالتغيير ونجحت التجربة ، ما علينا إلا أن نعيد الكرّة ، فالعالم مُهيأ ، والسبل مُيسّرة ، ولم يبق إلا أن يأتي ورثة الأنبياء ، ليُعيدوا التجربة ، ويكشفوا آليات النفوس كما هي تتدفق فتيَّة لا ترى فيها جدعاء ولا شوهاء ، سوية جديدة كل الجدة ، طازجة تتدفق يومياً من الأرحام ، لم يبق إلا أن يفهم وارث النبوة التركيبة الأولى فتعود سوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

لقد بلغت بالفكر والنظر حد اليقين ، إلى أن نجحت التجربة ، وصار بالإمكان إعادتها ، وإذا لم نبلغ في البيان والوضوح درجة البلاغ المبين ، و لم نبلغ في العمل والممارسة عين اليقين ؛ فإننا نطمح أن ننجح في البيان والتطبيق إلى درجة أقرب إلى الرشد ، فنمهد الطريق لمن يأتي بعدنا ليصير عليهم أسهل وأيسر .

السوق الأوربية والرشد

أريد أن أبحث مثال السّوق الأوربية المشتركة :

ما علاقة السوق الأوربية بالتصوف والكبر والبغي والخشوع والإخبات وقبول كلمة السواء ؟؟

إن سبيل الرشد سبيل لحلِّ المشكلات من غير أن يخسر أحد شيئاً ، لا ملكاً ولا مكانة ..

دعني أسوق لك حديثاً من أحاديث الرسول ، لتأخذ منه حصّة وحكمة وإرشاداً إلى مشكلة المشكلات ، للوقوف عندها وحلها ، قال r : « ما ذئبان جائعان أرسلا على غنم في حظيرة بأفسد لها من حب المرء لدينه ؛ المال والشرف » [1] .

المال والشرف ، ما هما ؟ وما شأنهما ؟ هل هما شران محضان ؟ أم أنهما قابلان لأن يكونا نعمتين : « نِعْمَ المال الصالح للمرء الصالح » [1] . ونعم الشرف حين يكون حافزاً لحب معالي الأُمور والابتعاد عن سفاسفها ، وقابلان لأن يكونا نقمتين : فبئس المال الذي يأتي عن طريق السرقة والاغتصاب والانتهاب الذي يوغر الصدور ويثقلها بالغل والحقد ، وبئس الشرف الذي يفرض بالكراهية والإكراه ، بالقتل والتعذيب .

نِعمَ المال الذي يأتي إلى الناس بالرشد والرشاد الذي هو قوام الأمة ، نِعمَ المال الذي لا يوضع في أيدي السفهاء والمبذرين الذين ينفقونه في أهوائهم : (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) [النساء : 5/4] .

إن المال هو الذي يقيم الأمة ، والمال ليس سوى ساعات من الجهد الذي بذله كل الناس ، بتعاون ودون مخاتلة وغي وانتهاب .

نِعْمَ الشرف شرف التنافس في الخدمة العامة ، إن الشرف والإمامة في الناس لا تكون بقهرهم ، بل بامتلاكٍ قلوبهم حباً ورضاً وإيثاراً .

ما اشد خطأنا إذ نحب الغنى والشرف حباً غبياً ، بغياً وإكراهاً واغتصاباً وانتهاباً ، ومع ذلك نستطيع أن نبدأ بالتغيير ، من غير أن نأخذ من صاحب مالٍ ماله ، والأنبياء جميعاً - لم يتخلف منهم أحد من نوح إلى محمد - كانوا يقولون بلسان واحد : (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) ؛ (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِي ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء : 105/26-109] .

فإن كنت في ريب من هذا ، وكنت تظن أن الأنبياء إنما جاؤوا ليأخذوا من الناس أموالهم ، فأعد قراءة (سورة الشعراء) مرّة أخرى ، هناك ينقل الله تعالى عن الأنبياء كافة قول كلٍ لقومه : (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) ، (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) [الطور : 40/52] .

يا أيها الناس ! لا نريد أن نأخذ منكم أموالكم ، إننا لا نأخذ عليكم في أمر المال ، ما نريده شيء آخر غير المال ، ينبغي ألا يتشوه الأمر ، نحن نريد أن تزيد أموالكم حتى تصيروا ترفضونها ، ولا تريدون عليها مزيداً ، ستصلون إلى درجة الإشباع من هذا المتاع .

العلم قبل المال

---

[1] رواه الترمذي في الزهد الحديث رقم (2376) وأحمد (456/3 - 457) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

[1] رواه أحمد (197/4) والبخاري في الأدب المفرد ، رقم (299) .

لم تشتعل حرب الخليج إلا من أجل المال ، فلا تجعلوا حبكم للمال مشرعاً للاغتصاب ، لا تجعلوا انتهابكم شرعياً باسم الأنبياء الذين لم يطلبوا ديناراً ولا درهماً ، كلاّ ولا تركوا حين ماتوا ديناراً ولا درهماً ، وما تركوه هو العلم والمعرفة ، فهل يمكن لنا أن نتنافس على العلم والمعرفة ؟

من أين يأتي المال ؟

إننا لنخطئ حينما نركض وراء سراب المال ، ونترك حفر بئر العلم الذي يزكي صاحبه ، وإذا تزكى ؛ تزكى كل شيء معه ، وإذا تدسى ، تدسى كل شيء يتصل به .

أين ذهبت أموالنا ؟ إلى جيوب مَنْ تَحَوَّلت ؟

أيها المصلحون ! لا تبدؤوا من الأموال ، ابدؤوا من حيث بدأ الله ، من النفوس ، ابذلوا الأموال لإصلاح النفوس ؛ بل أنفقوها لتأليف القلوب ، وتزكية النفوس ، ليعلم الآخر أنك لا تريد ماله ، بل تريده أن يغنى ويتزكى .

أيها الناس ! نريد أنفساً مزكّاة ، لا نريد أن نأخذ من الآخر ملكه ، كلا ولا مكانته ، ورسول الله علمنا أن نرفض الملك حين يظنون أنه مطلبنا .

ما أشد تشويهنا لمنهج النبوة !! ما أشد مسخنا لما جاء به الأنبياء !!

هل من مطمع في الكشف ؟ هل من مطمع في الإصلاح ؟ هل لنا أن نطمع في إصلاح ما أفسدناه وأفسده الناس ؟

نعم ، هذا مطمحنا ، وفي هذا مطمعنا ، نريد أن نتتبع الفساد إلى جذوره حتى نصل إلى لحظة تكوّنه لنقتله .

ما هذا الذي يلوي أعناقنا وأعناق الناس ، ويجعلهم مختلفين ولا يقدر بعضهم على رؤية وجه بعضٍ ؟

ما هو البغي ؟ ما هو الكبر ؟

كأن القرآن يعيدنا إلى الحالة النفسية ، إلى النعمة والنقمة التي في الأنفس : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الأنفال : 53/8] .

إن النّعمة ، وكذلك النقمة ، لا تتغير عن قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

أتمنى لو أضع مجهراً إلكترونياً على الكبر الذي في النفس ، وعلى البغي الذي فيها أيضاً ، لأنهما ، بحسب القرآن ، مصدر كل الشرور ، والرحم التي تنبت كل المصائب .

كيف نتتبع الأدلة ؟ كيف نتقصى العلامات ؟ كيف نتأمل البراهين ؟ كيف عجزنا عن التذكر والاستحضار ؟ كيف نتعامل مع النفوس ؟ كيف نزكيها ، كيف ندسيها ؟ كم عاش الناس دون أن يعرفوا الزراعة ، وكم يعيشون مع أحداث لا يتعلمون الاستفادة منها واستثمارها إلا ببطء شديد ؟

الإنسان والتسخير

كيف سنتعلم الزراعة في الأنفس ؟ إنه حدث نعيشه يومياً ونمارسه ونقطف ثماره ، ولكننا لا نعيه ، ولا نكشفه ، ولا نسخّره ، ولا ننتبه إلى الكيفية التي صنعت بها الثمار .

إننا نعرف كيف نقطع الشجرة ونتلفها ، ولكننا لا نعرف كيف نحافظ عليها ونعتني بها ونزيدها نماءً وإثماراً ، كيف سنكشف التعامل مع الأنفس ؟ كيف سنتعلم زراعة الأنفس ؟ كيف سنتعلم استثمار الكهرباء ؟

لقد كنا نعيش مع الكهرباء ، ولم نكن نعرف عنها إلا الصواعق ، ثم ذللناها ، وجلبناها إلى حياتنا حتى صارت جزءاً لا نستغني عنه ، ولم يعد ممكناً أن نتخلّى عنها .

كيف يتعرف الناس على مصادرها التي لا تنضب ؟ كيف يتعلمون إنتاجها بيسر متزايد ، ويتوسعون في استخدامها بكفاءة وسهولة ؟

يحدث هذا في مستوى أولى الكائنات ، وجزيء الجزيئات ، ولكن كيف يتعلم الناس استثمار الإبداع الكامن في المخلوقات ؟ وإذا كانت الطاقة الكهربائية إلى هذه الدرجة من الأهمية في حياة الإنسان ، فكيف تكون أهمية الطاقة الإنسانية الكامنة في الإنسان إذا كشفناها واستثمرناها ؟؟!!

أنا أعمل في تربية النحل ، والنحل وجد قبل أن يوجد الإنسان ، والإنسان جاء والنحل يعمل ، بعد ذلك تعرف النحل ، وقطف عسله كما قطف ثمار الأشجار ، وخلال التاريخ الطويل كان الإنسان يقتل النحل ليحصل على العسل ولا أزال أذكر جيداً كيف كانوا يقتلون الخلية ليأخذوا العسل ، ثم تعلم الإنسان كيف يأخذ العسل دون قتل النحل ، فتعامل معه واستثمره بغير القتل والتدمير .

متى سنتعلم أن قتل الإنسان ليس أفضل طريق للاستفادة منه ؟

ليس تدمير الإنسان وإرغامه وإكراهه هو الطريق الأمثل للتعامل معه ، وأنا لا ألومك ، لأنني لم أقدم لم النموذج المضيء ، المشع ، الخلاب ، المغري ، المحبي ، ولكنني صرت ألمح شيئاً عجيباً مدهشاً ، يدعو إلى الخشوع والتسبيح ، يدعو إلى التقديس ، إلى تذوق معنى الهداية ، إلى الاهتداء للحل الذي لم يكن ممكناً الاهتداء إليه من قبل .

تأمل الكهرباء ! كم هي مدهشة ؟ كم هي مذللة معطاء ؟ كيف صارت عاملاً مسّرعاً ومسِّهلاً لتزكية النفس ، وتقديم المعلومات ، من غير نسيان ، سبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى !! ..

التاريخ والمستقبل

ما هذا الإنسان المكرم إلى هذه الدرجة العظيمة ؟ ما هذا الكائن الذي أُعطي السلطان على الوجود ؟ ما هذا المخلوق الذي استُخلف في الأرض ، وسُخّر له ما في السماوات والأرض ؟

إن معرفته بماضيه ، والكيفية التي تعلم بها وتقدم ، تفتح أمامه مجالات لا نهائية ، غير أننا لا نعرف كيف تعلم وتزكى ، وكيف تعلم أن يترك الغثاء ويبقي الأنفع .

إن معرفتي القليلة جداً بتاريخه : كيف كان وكيف صار ؛ فتحت أمامي مجالات وإمكانات لا يمكن التكهن بما اختزل في داخله من عوالم مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

إذا علمت كيف كان ؛ فإنَّك ستعلم كيف سيكون الذين (يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً) [آل عمران : 191/3] لاً) [آل عمران : 191/3] ، إن الذين يظنون أن السماوات والأرض خلقوا باطلاً ؛ هم الذين جهلوا ، الذين عُمي عليهم وغُطي عنهم ، ولكن نستطيع أن نزيل عنهم ما أصابهم من الوهم ومن قصر النظر ، كيف نشك في هذا ، ووظيفتنا الأساسية هي تغيير ما بالأنفس ؟؟!!..

اليأس والكفر

لا تيأس ، تذكر فإن الذكرى تنفع ، تذكر فإن الذكرى تريك كيف يتحول المستحيل إلى ممكن ، لا تنس ، لا تغفل ، ولا تفرط ، قف وتثبت في لحظات الإشراق ، تعرف على الظروف والحالات حتى لا تفلت منك فتقعد حسيراً ، تمسك بنور الأمل ، لا تيأس ، لا تنس العلاقة القائمة بين اليأس والكفر .

ما الذي يحصل لليائس ؟

إنه يقعد ، إذن القعود هو الكفر ، تعلم ما هو الكفر ، الخمول هو الكفر ، الكفر هو عقيدة الخامل اليائس ، عقيدة الذي لا يرى ما كان كيف كان ، وما سيكون كيف سيكون .

ما هي التصورات التي جعلتك يائساً ، متشائماً ، لا يخطر في بالك غير الحقد والتدمير ؟ نعم يا أخي ، نعم أيها الإنسان القلق ، الخطير ، العجيب ، إن لك تاريخاً ، ولك مستقبلاً ، ورحمة خالقك سبقت غضبه ، وخالقك رحمن رحيم .

اخرج وأشعل الضياء .. سيتبدد الظلام ، أَظْهِر الحق وسيزول الباطل ، تَعلّم قوانين هذا الكون وسترى أنها تراودك ...

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ) [يس : 30/36] ، إن مهمتهم هي عمارة الأرض لا إفسادها وتدميرها ، خلقوا للبناء لا للخراب والإتلاف والتبذير ، لقد غرس فيك القصد والاقتصاد في الزمن والجهد ، لا تفرط ، لا تغفل ، لا يستخفنك الذين لا يوقنون ، لا يجعلونك تيأس من رؤية التغيير الذي سيحصل للقاعدين الساخرين اليائسين ، أشعل النور ، وإنهم سيهبون جميعاً ، أظهر الحق ، وإنهم سيتألقون ، ستعود الحياة إلى نفوسهم الخاملة ، سيعود البريق إلى عيونهم الذابلة ، وسترى النضارة في وجوههم .

هل نظرت مرة في حياتك إلى إنسان كان مريضاً يتألم ، زائغ البصر كالح الوجه مكتئباً ، وبعد أن تناول الدواء المسكّن أو الدواء المعافي ، كيف تعود النضارة إلى وجهه ، والبسمة إلى أسايره ، كذلك فإن علاج النفوس ودواء القلوب هو الذي يعيد إلى الناس الحياة ، ويزيل عن قلوبهم الجهل والظلام ، وبعدها يتنفس الناس الصعداء بزوال هذا الذي لم يكونوا يظنون أنه يزول ، إنه سيزول وسيستريحون منه ، وسينسون أنه كان ثقيل الوطأة عليهم ، وسيتعجبون من الناس كيف كانوا يعيشونه ولا يرون له مخرجاً .

إن هذا السحر الذي نعيشه لمدهش !! ولكنه غير قابل للكشف والتجاوز ، انظر كيف كان الذي كان ، وستعلم ما سيكون وكيف سيكون .

ما هي نقطة الضلال والانحراف ؟

إن نقطة الضلال تحدث عند لحظة معينة ، إنه يحب الخير حباً شديداً : (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) [العاديات : 100/6-8] .

نقطة الضلال تحدث حين يريد هذا الإنسان أن يختصر طريق الخير ، وبنفس الشدة التي يكون فيها حبه للخير ؛ يكون سعيه للحصول على الخير بسهولة ، وعندها يحصل الضلال في اختيار الطريق الأسهل .

ليس في البحث عن الطريق الأسهل مشكلة ، إنه أمر مشروع ، بل إن جهود البشر وامتحان ذكائهم يكون بابتكار الطرق السهلة واختصار الزمن والجهد للحصول على الخير الأكثر والأعم والأوسع .

تأمل هذا الموضوع ، تأمل هذه النقطة ، تأمل فكرة أن أعظم الخير يكون في معرفة كيفية تحصيل الخير الكامن في الإنسان .

مشكلة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان

كيف ستحصل على الخير الذي تحبه من الإنسان ؟

نقطة البدء تكون من علاقة الإنسان بالإنسان ، لأن علاقة الإنسان بالوجود ، بالكون ، مختلفة عن علاقته بالإنسان ، والأضرار التي تلحقها الطبيعة بنا نتلقاها بأسلوب مُختلف عن أسلوب تلقي الأضرار التي يلحقها بعض البشر ببعض . إحساساتنا تختلف حين نسمع عن كوارث ناتجة عن أعمال البشر ، وحين نسمع عن كوارث ناتجة عن الطبيعة ، حين يصيبني أذى الطبيعة لا أغضب ، قد احزن إذا مات شخص أحبه ، ولكن كيف يكون شعوري إذا قتله إنسان آخر ؟ طبعاً يكون شعوري مختلفاً ، مم يحدث هذا الاختلاف ؟ ما علاقته بحب الخير والسعي للحصول على الخير بأقل الطرق كلفة ؟ ما علاقته بتقليل الجهد وزيادة المردود ؟

هل يكون تحصيل أفضل مردود من الإنسان عن طريق قهره وإكراهه واستلابه ، أم باحترامه وتقديره والعدل معه ؟

الخطأ يحدث عند هذه النقطة . عند هذا الاختيار تختلط المفاتيح ، فيحاول بعضنا الحصول على المردود الأكبر بالقهر والإكراه والتعالي ، ويظن أن اختيار هذا الأسلوب أسهل وأقل كلفة وأكثر مردوداً .

عند اشتباه والتباس وعدم وضوح هذا الأسلوب يختلط الرشد بالغي ، ويجعلك الوقوع في هذا الخطأ متكبراً ، وعندها تعتمد للحصول على المردود الكبر على القوة والغلبة والقهر الذي يمتلكه (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) [فصلت : 15/41] .

إن اعتماد هذا الإنسان على القوة والقهر يكون بسبب إيمانه بأن الحصول على أفضل مردود إنما يكون بالإكراه والقهر ، وهذا هو الضلال البعيد والمبين والعميق ، وهو الخداعُ الأعظم والسحر الأكبر .

هذا هو مصدر عقيدة الاستكبار ، بقوته يريد أن يفرض علوه واستكباره ، وحين تسيطر على الإنسان هذه الفكرة وهذا التوجه يغلق أمامه أبواب الفهم والإدراك .

مرّة أخرى نقترب من فهم قوله تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف : 146/7] .

هل يمكن أن نلمح ، على هذا الضوء الخافت جداً ، مرّة أخرى قوله تعالى : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا) [البقرة : 256/2] .

لقد ظننت ، وكنت مخادعاً لنفسي ، بعد (لَتٍّ وعَجْنٍ) ولف ودوران غير مجدٍ كثيراً ، ظننت أنني أرسلت شيئاً من نور خفيف لإظهار أن القهر والقوة والعنف والعلو والاستكبار والإكراه .. أن من يمارس هذه الأمور ، ويسعى إلى سلوك طريقها ، لا يكون قد تبين الرشد من الغي ، وأنه ما دام معلق القلب بالإكراه فلن يتبين الرشد من الغي .

إنني أطمع أن أتمكن جعل الرشد يتبين من الغي والبغي ، وأن أبين أن الإكراه هو المرض الأكبر ، وتوضيح أن الظنّ بأن الله يأمر بالإكراه والظَنَّ بأن الإكراه يأتي بمردود أفضل ؛ هو ظن سوء بالله والإنسان .

كم هذا الأمر ملتبس ؟ كم هو مشتبه وخادع ومضل ؟ كم هو عدو بادٍ في صورة صديق ؟ كم هو تعب في صورة راحة ؟ كم هو شقاء في صورة سعادة ؟ كم هو خسارة في صورة ربح ؟ كم هو تبذير في صورة توفير ؟

السوق الأوربية وكلمة السواء

ما هو الكبر الذي يحول دون رؤية الرشد والرشاد ، ويجعل صاحبه غير مستطيع لسلوك سبيل الرشد حتى بعد رؤيته ؟

إنه تعالى لم يقل : إنهم لا يرون سبيل الرشد ، لكنه قال : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] .

ما صلة بحث الكبر والبغي ، بما أردت أن ألفت النظر إليه سابقاً من الآيات التي تحدث في الأرض ، والتي لا قدرة لنا على الانتباه إليها ، وإذا انتبهنا إليها نرفض أن نتخذها سبيلاً ؟

مرّة أخرى أعيد قوله تعالى : (وَكَأَيِّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف : 105/12] .

إن السوق الأوربية المشتركة ، من آيات الله في التاريخ البشري ، إذ يصنع الأوربيون هذا الحدث دون إكراه ، بل بكلمة السَّواء والعدل ، دون إكراه ، دون قوة .

لا إكراه في تلك السوق ، لا يدخل أحد إليها وهو مكره ، بل يدخلون إليها باختيارهم ، لا يذهب إليهم بجيش وسلاح ، إن شئت دخلت وإن شئت لم تدخل : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، لا إكراه في السوق الأوربية .

في السابق كانوا يظنون أنهم يستطيعون أن يصنعوا الوحدة بالجند والسلاح ، لكنهم بعد ذلك وصلوا إلى فكرة (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ، لا إكراه في السياسة ، فمن شاء فليدخل ، ومن شاء فليخرج ، وقد طلب المغرب العربي الانضمام إليهم ، ولكنهم رفضوه .

مع أن المغرب العربي وتركيا يطلبان الانضمام إلى السوق الأوربية ، إلا أنهم لا يستطيعون ، ولا يسعون ، ولا يتداعون لسلوك سبيل السوق الأوربية المشتركة ، لماذا يقومون بهذا ؟ لماذا يُصْرَفونَ عن هذا ؟

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ..) [الأعراف : 146/7] .

كيف بدأ خلق الوحدة الأوربية

ماذا حدث في أوربة ؟ لماذا لا نستطيع أن نسلك سبيلهم ؟

قلنا : إن الوحدة الأوربية لم تنزل من السماء ، و لم يصنعها نابليون ولا هتلر ، و لم تصنعها القوة والإكراه ، إنهم يصنعون هذا كله باختيارهم .

إنني معجب ومقدر لأعمالهم هذه ، وأتمنى من كل قلبي أن يتمكن المسلمون من أن يفعلوا مثل فعلهم ، ويفكروا مثل تفكيرهم ، غير أنَّ هذه الأمنيات لا تجدي ، ولذلك ينبغي أن نعرف ماذا حدث في أوربة ؟ ماذا تغير وكيف تغير ؟

أولاً وقبل كل شيء : لقد فكروا في الخير ، وهم شديدو الحب للخير كسائر البشر ، وفكروا كذلك ، وأعادوا النظر في الطرق التي كانوا يسلكونها لتحصيل الخير ، وتوصلوا إلى أنها ليست طرقاً سماوية غيبية علوية ، بل هي طرق أرضية واضحة مرئية ، يمكن حسابها بالأرقام وتحت الضوء .

ليس هناك مؤامرات ، ولا خداعات ، ولا أشياء يخفونها في أنفسهم ، كل شيء واضحٌ ومحسوب ، وقابل لإعادة النظر فيه بدقة وروية ، وقبل كل ذلك تنازلوا عن الكبرياء والتكبر ، تنازلوا عن ادعائهم بأن فرنسا فوق الجميع ، أو أن ألمانيا فوق الجميع ، وفهموا أن هذه الادعاءات لا تبني أوربة بل تدمرها ، وأن الجميع من الجميع .

لقد خرج من أنفسهم وقلوبهم إمكان أن يصنع أحد منهم وحدة أوربية تحت تاجه أو قبعته .

الوحدة الأوربية والتصوف

ما صلة ما يحدث في أوربة بالصوفية ؟ هل تتصوف أُوربة ؟ هل تتدين ؟ هل تعود إلى الإيمان ؟

نعم يا أخي ، إن أوربة تتصوف وتتدين وتعود إلى الإيمان ، بل إنهم قبلوا أقدس شيء في الأديان ، قبلوا ألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

يا لصعوبة هذا الخيار : أن يخرج من قلوبهم أن يكون أحد منهم أو دولة من دولهم رباً لبقية أوربة ، أُوربة قبلت كلمة السواء على الأقل فيما بينها .

أُوربة تخلصت من نابليون ، ومن هتلر ، بل إنها تخلصت من الثقافة التي صنعت نابليون و هتلر ، واجتمعت كلها على التخلص من هتلر ونابليون ، من ثقافتهما .

ونحن أيضاً بدأنا نجتمع على التخلص من هتلر ، بدأنا ودون وعي منا بتطهير أنفسنا من الإكراه ، لا نريد شخصاً يوحدنا بالإكراه ، بدأنا دون وعي نتخلص من الإكراه ، وينبغي أن نتخلص من ثقافة الإكراه ، علينا أن نتبين الرشد من الغي ، علينا أن نفكر بالطاغوت ، بالإكراه ، عندئذ نعثر على الله وعلى الرشد وعلى العروة الوثقى .

لم أعد أخشى قرقعة الكلمات ، لم تعد ترهبني العبارات ، لقد تجاوزت مرحلة التقليد ، ومرحلة الحاجة إلى أن تفسر لي الكلمات ، صرت أرى الوقائع ، صرت أرى كلمات الله الذي : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [يس : 82/36] .

إن إرهاب الكلمات إنما يؤثر على من لم يكفر بالطاغوت ، وهو لا يجدي مع مَن تخلص من عبادة الطاغوت .

التخلص من الإكراه باتجاهيه :

لا تحاول أن ترهبني بالكلمات ، فإنك في رعب من الطاغوت ، من القوة ، والطاغوت ليس شخصاً ، بل هو معنى .

إنَّ مَن يتخلص من عبادة القوة ، من عبادة الإكراه ، يدخل ملكوتاً آخر .

إنك لا تدخل ملكوت الرشد ، ومملكة الرشد ، إذا لم تتخلص من الإكراه باتجاهيه ، ولا تتخلص من الإكراه إن لم يخرج من قلبك حب إكراه أحد ، (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) حد فاصل قاطع ، (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) [الغاشية : 22/88] ، لا سلطان للإكراه على مملكة القلب : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [يونس : 99/10] ، إنك لا تكون تخلصت من عبادة العباد ، وعبادة القوة ، وعبادة الطاغوت ؛ إن لم تتخلص من الإكراه باتجاهيه : أي أن تتخلص من أن تكون مُكرِهاً لأحد ، وعندئذ تتخلص أيضاً من أن يكون أحد مكرهاً لك ، وإذا لم تتخلص من هذين الاتجاهين ؛ فأنت لا تزال في مملكة الإكراه ، أياً كان الاتجاه الذي تمثله .

ينبغي أن أخرج من دائرة الإكراه ، لأدخل في دائرة الرشد ...

ما أشد الالتباس الذي يحصل في الانتقال من أحد الموقعين ، ولا اقصد بهما السيد والعبد ، فليس المهم أن تكون سيداً أو عبداً ، عابداً أو معبوداً ، ليس المهم أن تكون المكرِه أو المكرَه ، سواء أكنت هذا أو ذاك ، فكلاكما في مملكة الإكراه ، مملكة الرعب والخوف ، مملكة شريعة الغاب والغدر ، مملكة الذين يعتقدون أن الإكراه وسيلة وأسلوب لنشر الأفكار ، ولذلك فهم لا يزالون في مملكة الغي والإكراه ، سواء أكانوا ممارساً للإكراه أو قابلاً لأن يمارس الإكراه عليه .

لا تنخدع بالكلمات ، لا تخدعنك التفاسير والشروح ، اعرف الأحوال الصوفية ، اعرف قولهم : « كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس » .

كان الصحابة يقولون لأصحابهم من المشركين في حواراتهم : اخلع عنك هذه الأوثان .

ما هو خلع الأوثان ؟

الخروج من مملكة الإكراه لا يحتاج إلى دولة ، ولا إلى مملكة ، ولا إلى حماية .

لقد خرج بلال من مملكة الإكراه ، وكذلك خرجت سمية ، وإذا كان بعض الناس يشوهون حالة بلال وسمية ، فإن ذلك يعود إلى أنهم لم يذوقوا طعم الرشد ولا حلاوة الرشد ، ولا طمأنينته ، و لم يعرفوا الحالة التي يعيشها من يكفر بالقوة ويتخلص من مملكة القوة ، ولا يُخرج من الخوف إلى الأمن إلاّ الفهم الصحيح : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ، مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) [الأنعام : 81/6-83] .

كيف نخرج من الإكراه ، ونبتعد عنه ؟ كيف نخرج الإكراه من قلوبنا وننبذه بعيداً ؟ كيف نخلع هذا الوثن من القلب ؟ إن قلباً فيه هذا الوثن لا يمكن أن يدخل إليه الأمن ، ولا يمكن أن تحل فيه الهداية ، ولا يمكن أن يستمسك بالعروة الوثقى .

الإكراه والتغيير

ما هذا الشيء القذر ؟ إلى هذه الدرجة تطرد الرشد وتعاديه وتناصبه العداء ؟

تأمل مصيبة الإكراه جيداً ، مصيبة الإكراه أن تكون مكرِهاً أو قابلاً للإكراه أو أن يكون داخلاً إلى قلبك ، ولهذا سأل رسول الله r أحد أصحابه الذين أعلنوا خلاف معتقدهم قائلاً : « كيف تجد قلبك ؟ » قال ؛ مطمئناً بالإيمان ، فقال له : « لا عليك ، وإن عادوا فعد » [1] .

لم يؤمن بأن الإكراه يُحدث تغييراً ، أو أنه يمكن أن يكون طريقاً إلى الإيمان ، لم يؤمن بالطاغوت ، و لم يختلط عليه الرشد بالغي ، لا يزال مؤمناً ، وقلبه مُطمئن بالإيمان بأن الإكراه ليس من الدين ، وأن الإكراه هو الغي ، وهو الجهل المطبق ، والضلال المبين ، وهو السبيل المودي إلى الهلاك ، وأنه ضد الرشد وضد الإيمان بالله : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة : 256/2] .

---

[1] رواه البيهقي (209/8) والحاكم (357/2) .

إن الشيطان يخوف أولياءه ، إنه يزين لهم أنه يجعلهم يقعون في الوهم القاتل فيزين لهم الإكراه والقهر والطاغوت والغي ، ويقطع عليهم الطريق بإيهامهم بأن الإكراه يمكن أن يكون سبيلاً إلى الرشد ، ويُخَيِّل إليهم أن الإكراه يمكن أن يصنع الرشد ، ولا يزال يخدعنا ، بعد أن دخلنا القرن الخامس عشر ، بأن الإكراه يمكن أن يكون طريقاً إلى الرشد .

لا يمكن للإكراه إلا أن يكون طريقاً إلى الغي ، ولن يؤدي إلا إلى الطاغوت ، والإكراه بعد تجربة أكثر من ألف وأربع مئة عام لم يؤد إلى الرشد ، ألا تكفي كل هذه التجارب ؟ أم أنه حق علينا القول بأن الله لن يملَّ ولن يخرق سننه من أجل أهوائنا وغفلتنا ، ولن يجعل من الغي رشداً ، ولا من الطاغوت إيماناً ، ولن يجعل سبيل الرشد إكراهاً ، ولن يحوّل الإكراه إلى رشد .

بين المعاني والألفاظ

لن تتغير سنن الله مهما تلاعبنا بالألفاظ والكلمات ، ومهما غيرنا من معانيها وألبسنا الغي أسماء الرشد والإيمان والإسلام ، لن يتغير الغي إلى رشد من أجل خاطر المسلمين ، كما لن يتحول رشد الأوربيين إلى غيٍّ من أجل زرقة عيونهم .

إنهم حين تركوا الإكراه دخلوا في الرشد والاقتصاد والتوفير ، وخرجوا من التبذير : (من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك ، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه ، ومن قرر المعاني أولاً في عقله ، ثم أتبع المعاني الألفاظ فقد اهتدى » .

هذه المعاني لمعت في ذهن أبي حامد الغزالي ، قبل ألف عام ، قبل سوسير وسيرل وتشومسكي ، وقبل هيدجر ونيتشه ، ولكن كم كان حجمها في ذهن الغزالي ؟؟

سيظل اللغويون واللسانيون ، من عرفت منهم ومن لم أعرف ، هائمين على وجوههم ، ما داموا يظنون أن الكلمات ، مهما صار لها من إشعاع أو خفوت وانطفاء ، ومهما فتحت من أبوابٍ وخيالاتٍ ، أو أغلقت من مجالات ؛ تحمل الحقيقة .

سيظلون بعيدين عن الحقيقة ما داموا يحسبون أن الكلمات تحتوي الحقيقة ، وما لم يصلوا إلى أن الحق في الواقع .

قد تخبر الكلمات عن الواقع ، وقد تخبر عن عكسه ، ولكن الكلمات لا قدرة لها على تغيير الواقع ، بينما الواقع هو الذي يصحح الكلمات ، ويصحح المفاهيم عن الله والقرآن ، وهو الذي يعطي قيمة حقيقية لكلمات الله ، إنه البحث والنظر إلى الوقائع ، وإلى التاريخ والأحداث .

لن يتعلم أحد السباحة من كتاب ، لأن الله جعل تعلم السباحة في الماء .

إنه تعالى أمرنا بالسير في الأرض والنظر في كيف بدأ الخلق ، ولن يستطيع أحدّ أن يعرف كيف بدأ الخلق من كتاب إلا كتاب الخلق .

ثكلتكم أمهاتكم أيها اللغويون واللسانيون والسيميائيون !! أوليس هؤلاء ؛ أهل الكتب السماوية ، بأيديهم الكتب بجميع اللغات ولا ينتفعون مما فيها بشيء .

إننا ، ومهما قال القائلون عن كيفية بدء الخلق ؛ لن نعرف ذلك إلا بشهادة الخلق ذاته ، ولن ينقضَ قول قولاً إلا إذا كان مرجعه من الواقع ، ولن يغير الناس آراءهم وما بأنفسهم إلا بإحصاء العواقب ، وبقانون النافع والأنفع ، وبقانون الزبد .

قانون الزبد هو الذي صنع السوق الأوربية المشتركة ، وهو الذي ذهب ببناء الحياة القائم على الإكراه والغي والطاغوت والبغي جفاءً ، وبه مكث عندهم الأنفع والأبقى .

إنه قانون الأنفع ، قانون الرشد ، قانون الاقتصاد ، قانون عدم إهدار الطاقات ، به يبنون أوربة الحديثة الموحدة تحت ظل أمن وهداية اللاإكراه ، فإنه قد تبين عندهم الرشد من الغي .

إن قوانين الله لا تنظر إلى أسماء الناس ، ولكن مقتضاها أن الذين ينظرون إلى أحداث الكون والتاريخ ؛ يستطيعون أن يروا الأرشد وإن لم يقبلوه ، فإن عجزوا عن قبوله فإن تكاليف عدم قبوله ستعلمهم أن يقبلوا الرشد رغماً عنهم ، طوعاً أو كرهاً .

الاتحاد السوفيتي والإكراه .

من ذا الذي سيكون جاسوساً على القلوب ؟ فيخرج لنا منها العوامل التي تجعل الناس : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] .

لماذا لا قدرة للعالم الإسلامي ، لسائر البشر ، على سلوك سبيل الرشد ؟

لماذا تمزق الاتحاد السوفيتي وتفسخ ، لماذا لا نستطيع أن نقرا الاتحاد السوفيتي ؟

هناك سبب واحد ، هو أن التاريخ المقدس تحول إلى دنس ، وصار نظرنا مثل نظر نيتشه ، واختلط علينا المقدس بالدنس ، وقد نقلت لك سابقاً مفهوم نيتشه عن التاريخ ، ومفهوم ابن خلدون أيضاً .

كيف نفهم لماذا عجز الاتحاد السوفيتي عن حل مشكلته بالرشد ؟ ألم يكن بإمكانهم أن يتحولوا من الغي إلى الرشد ؟ من الإكراه الذي مارسوه سبعين عاماً .

هل كان بإمكانهم أن يتحولوا من الغي إلى الرشد ؟

نعم ، كان بإمكانهم ذلك لو تمكنوا من فهم التاريخ وإفهامه للناس ، ولو استطاعوا أن يروه بأعينهم . لا ، لا يكفي أن يروه ، لأن رؤية العين لا قيمة لها مع سيطرة الوهم ، والشمس دليل على أن الرؤية خادعة ، وبإمكان الإنسان أن يكذب عينه في سبيل سيطرة الإغراء : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ) [الأنعام : 7/6] ، (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ ، وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) [الحجر : 13/15-15] ، (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) [الأعراف : 116/7] .

ما الذي سيطر على المسلمين ؟ ما الذي سيطر على الاتحاد السوفيتي ؟ حين لم يتمكنوا من التحول إلى الرشد .

إن مشكلة سيطرة الأفكار التي طال عليها الأمد ، مشكلةٌ صعبة الزوال في مدة وجيزة ، ولا يكفي أن نقول : سيطرة الأفكار ؛ بل علينا أن ننظر إلى الآليات التي يتصرف الناس على أساسها ، إلى آلية الحب والكره .

إن سيطرة الإكراه على الاتحاد السوفيتي ولّدت عند شعوبه كُرهاً لم تستطع أن تحدَّ منه كل الوسائل المتاحة من عمليات تغيير ما بالأنفس ، إذ كانوا قد فقدوا الثقة ، وسيطرت عليهم الأفكار التي تؤدي بالإنسان إلى الهلاك ، بحيث وصلوا إلى درجة الاستغناء عن الحياة ، فضلاً عن الأموال ، و لم يعودوا ينظرون إلى الربح والخسارة .

إن الإنسان الذي سيطرت عليه الكراهية لم ولن يقدر على التفكير والسيطرة على مسيرته ، إنه يفقد القدرة على التفكير الهادئ ، ويصاب بالرعب والهروب ، يحدث هذا بشكل خاص عند الذين لم يتعودوا على المشاركة في اتخاذ القرار ، وكان القرار يتخذ في غيبتهم .

إن عدم الثقة ، التي تراكمت عليهم عبر السنين لم تمكنهم من اتخاذ قرار الإبقاء على الاتحاد فيما بينهم .

يمكن إجراء اختبار على عينات من الناس لقياس درجة سيطرة الأفكار والاستمرار على الخطأ .

أظن أنه يفيدنا أن نعرف أنّ أحداً منهم لم يكن قادراً على إيقاف انهيار الاتحاد ، وقد حاول بعضهم أن يبقوه بالإكراه ، ولكن الأوان كان قد فات ، وحاول بعضهم أن يبقوه بالرشد ، لكن الثقة كانت قد فقدت وضاعت ، فكان حكم التاريخ هو التمزق .

إن الإمكانيات التغييرية لا تعتبر الأمر مستحيلاً أو سهلاً ، بل تعتبره جهوداً محددة في زمن لا يمكن تجاوزه .

الصينيون بين الإكراه والرشد

لعل الصينيين حاولوا أو يحاولون أن يقوموا بعبور الأزمة ، وربما كانت الثورة الثقافية محاولة لتجاوز الأزمة والانتقال إلى الرشد ، ولكن هل يمكن للصين أن تفعل ذلك ؟ هل تكون الصين قوم يونس ؟ هل يتمكن الصينيون من تفادي العذاب مثل ما تفاداه قوم يونس ؟

لم يذكر القرآن أمة ولا قوماً تمكّنوا من تفادي العذاب والتعلم من التاريخ إلا قوم يونس .

أريد أن أطبق قراءتي للقرآن على وجهين : قراءة إلهية وقراءة بشرية ؛ على قصة قوم يونس ، وعلى القرآن على أساس أن مرجعه هو الواقع .

اقرأ الآيات التي سأسوقها لك على أساس الواقع الأرضي ، لا على أساس الخوارقي الفوقي العلوي ، الذي يفصل العواقب عن الأحداث .

كيف سنعيد إلى الناس إمكان قراءة القرآن على أساس أرضي ؟

كان ابن تيمية يقول في بعض الأحيان : أنا لا أستشهد بالقرآن كي تقبله لأنه قرآن ، بل أسوق أفكار القرآن على أساس المنطق والعقل ، وكمنطق يحاجّ المنطق . ونحن نقول بلغة عصرنا اليوم : إننا نستشهد بالقرآن على أساس وعي تاريخي لا ميتافيزيقي .

القراءتان التاريخية والماورائية للقرآن

القرآن يشير إلى وجود آخرتين : آخرة في الدنيا ، وآخرة بعد هذه الدنيا ، إلا أن الناس لا يعرفون من القرآن إلا آخرة ما بعد الدنيا ، والقرآن يشير إلى الآخرتين حين يقول عن الذين يتلاعبون بالقانون : (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) [البقرة : 85/2] ، هذه الآية تدل على وجود عذابين : عذاب في الحياة الدنيا ، وعذاب في الآخرة ، وعلى وجود مكافأتين : مكافأة في الدنيا ، مكافأة في الآخرة .

وقال تعالى في القرآن عن الذين يمنعون العلم : (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة : 114/2] ، وقال : (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ، وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ، وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [فصلت : 16/41-18] .

وكما أننا نحرص على التمكن من قراءة القرآن بالقراءتين ؛ كذلك لا بد من القراءة الدنيوية ، على أساس عواقب الأفكار والأفعال في الدنيا قبل الآخرة .

إن عدم فهم هذه القراءة ، وعدم ربط النجاة الأخروية بالنجاة الدنيوية ؛ عطّل الاستفادة من القرآن ، الذي يشير بوضوح إلى أن كل عمل له مكافأة عظيمة في الآخرة ، له مكافأة كبيرة في الدنيا أيضاً ، وكلك بالنسبة للعذاب .

فقراءة القرآن قراءة تاريخية أرضية دنيوية ، تعيد إليه حيويته من جديد ، حتى بالنسبة للذين يؤمنون بالآخرة ، ولكن ليس سهلاً تغيير الأفكار التي سيطرت خلال قرون طويلة ، وعلى عدد كبير من الناس ، في لحظات . ولذلك فإن كلماتي هذه ، وإن كنت لا أقول : إنها لا تفيد ، لكنني أقول : إن جدواها قليلة ، قد تؤثر في أفراد قلائل ، وترفع مستواهم قليلاً ، أو تحدث لهم ركزاً ، ومع هذا سأظل أتابع مسيرتي ، لأنبه الناس الذين لم يتعلموا تأويل القرآن بعد .

إن العالم الإسلامي لن يستيقظ دون قرآن ، فالمسلمون متمسكون به تمسكاً شديداً ، ولهم الحق في ذلك ، وتمسكهم غير قابل لأن يزلزل ، ولكن علينا أن نعلمهم تأويل الكتاب على أساس العواقب ، ورسول الله r دعا لابن عمه عبد الله بن عباس قائلاً : « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » [1] ، لا بد من تأويل الكتاب على أساس العواقب ، لأنه لا يوجد الآن ، أو قلّ أن يوجد من أهل الدنيا من يتمكن من فهم القرآن ، أو من يستطيع أن يقرأ منه صفحة واحدة ، لأن الآخرة تبعث في نفوسهم الاشمئزاز : (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) [الزمر : 45/39] ، هل يمكن تقرأ كتاباً تشمئز منه ؟

كذلك قَلَّ أن تجد من أهل الدين من يحسن القراءة الدنيوية ، حتى أنني شعرت بشيء غير عادي حين قرأت قول ابن تيمية في بحوثه في الجدال مع الفلاسفة : أنه لا يستشهد بالقرآن ليقبلوه لأنه قرآن ، بل لأنه منطق وفكر أو نحو ذلك .

---

[1] رواه البخاري في الوضوء ، باب وضع الماء عند الخلاء ، رقم (143) ومسلم في فضائل الصحابة ، باب : فضائل عبد الله بن عباس ، رقم (2477) .

كم نواجه الآن مَن يقول لنا : لا تذكروا لنا آيات من القرآن ؟! وما ذلك إلا لأنهم لا يفهمون القرآن إلا أنه إيمان بالخوارق واللاسُنَنِيَّة .وكذلك الذين يستشهدون بالقرآن قلوبهم مشحونة بالخوارق واللاسُنَنِيَّة .

لا شك أننا سنجد صعوبة كبيرة ، وسيمر وقت طويل حتى نستطيع أن نفهمهم القراءتين ، العواقب الدنيوية والعواقب الأخروية ، خزي الدنيا وخزي الآخرة ، من أجل ذلك أوجه حديثي ، وبشكل كبير ، إلى خزي الدنيا ، مثل خزي حروب الخليج والحروب الأهلية كلها التي تدل على أننا نستحب العمى على الهدى .

نموذج القراءة التاريخية : (قصة قوم يونس)

يبدو أننا ابتعدنا عن مشكلة الصين ؟ هل يمكن للصين أن تتفادى العذاب ، كما تفاداه قوم يونس ؟

فلنقرأ قصة قوم يونس بشيء من القراءة الدنيوية ..

في الواقع إن محمد أركون انتبه إلى شيء مهم جداً ، وقد كرره كثيراً في كتبه ، وهو أن العالم الإسلامي بحاجة إلى تيولوجيا جديدة . طبعاً هو يستخدم المصطلح الغربي : تيولوجيا ، ولكنه يقصد أن المسلمين بحاجة إلى فهم معنى التوحيد ، وإلى تجديد التوحيد ، إنه بحسب ما أفهم ، يتمنى أن يتمكن المسلمون من أن يفهموا القرآن على أساس القراءة البشرية الدنيوية .

لقد تنبه إلى هذا ، ولكنه لم يعلم كيف يمكن تحقيقه ، وصعب عليه أن يفهمه ، وإن شعر بالحاجة إليه ، وقد نقلت عنه سابقاً قوله : « التاريخ بحسب القرآن ليس من صنع البشر ، بل من صنع الله » .

هذه الفكرة المسيطرة تمنع من إمكان قراءة القرآن قراءة بشرية .

أعلم أن كثيراً من الناس يشمئزون من ذكر اسم ابن تيمية أو أركون ، ولكن ما دامت الأسماء هي التي تتصرف بانفعالاتنا ، فسنأخذ وقتاً طويلاً حتى نفهم قانون الزبد ، لأن أسماء الأشخاص لا تحوّل الزبد إلى حلية ، ولا تحوّل الضار إلى نافع ، ولا النافع إلى ضار ، الأفكار النافعة غير مرتبطة بالأشخاص ، الأفكار الصحيحة لا تتأثر بأسماء الأشخاص ، إلا في عالم الذين ألغوا النظر إلى العواقب والتاريخ .

إن في الأفكار التي أقولها أفكاراً سيتأسفون عليها ، وعلى الكيفية التي كنت أقرر فيها مثل هذه الأفكار الخاطئة ، بنفس الطريقة التي نتأسف فيها على خطأ أركون أو ابن تيمية ، ولكن لكل عصر لغته وتأويله لفهم الذرة والمجرّة والتاريخ .

ما شأن أهل الصين ، وما شأن قوم يونس ؟

اقرأ هذه الآيات قراءة أرضية تاريخية بشرية ، لا قراءة سماوية أو أسطورية أو إلهية أو .... : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ ، إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ، فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ، إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ، قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ) [يونس : 10/94-103] .

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) ، إنه يقول لك : لا يجوز لك أن تشك ، أو يحرم عليك أن تشك ، ولا يفرض عليك الأفكار ، ولا يقول لك : أن الله ، لا أقول لك إلا الصدق ، لكنه يدل الإنسان على ما به يعرف أن الله حق : (أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [إبراهيم : 14/10 ي ، انظر إلى السماوات والأرض ، فسِّرها ، هل هذا عَبَث ؟

الغرب والعبثية

ما هي عواقب تفسيرك العبثي ؟ انظر إلى فلاسفة الغرب في عصرنا هذا ، إنهم يرون الكون عبثاً ، ولهذا وصلوا إلى العدمية ، بل إنني رأيت كتاباً بعنوان (الفلسفة للمبتدئين) ، في آخر هذا الكتاب وصل إلى الظواهريين (الفينومينولوجيين) والجينالوجيين والبنيويين والتفكيكيين ، وصور (جاك دريدا) قاعداً عند جدار يريد أن يفجره ، ومكتوب على الجدار : انطح برأسك الجدار .

وحتى (سكينر) ذاك العالم الكبير الذي استفدت منه كثيراً ، يعتبر أن اللاغائية هي السائدة في الوجود ، إنه يعترف باللاهدف واللاغائية ، وينفي الغرادة عن الإنسان ، ويجعل الإنسان وحركته مثل حركة القذيفة ، ويسخر من الذين فسَّروا حركة القذيفة بأنها تنطلق مسرعة لأنه مسرورة وتريد أن تصل إلى غايتها ، وهو يردي ان يثبت ذلك في الإنسان ، إن سير الإنسان مثل سير القذيفة .

لا تظنن أن هذا الفيلسوف الكبير ينطلق من فراغ ، لا ، إنه يقول حقاً كثيراً ، ولكنه يلغي شيئاً صغيراً جداً ، أو لا يعطيه قيمة ، أو يتجاهله لصغره ولطول الزمن الذي يؤثر فيه قليلاً .

إنه يرى أن الإنسان من صنع بيئته المادية والبشرية ، ولكنه لم يلاحظ نمو البيئة ، واعتبر ذلك غير جدير بالبحث الجدّي .

نعم نحن ضمن دائرة ثقافتنا ، مئات الملايين يعيشون - كما يقول سكينر - في مجتمعهم ويتحركون مثل حركة القذيفة ، ولكن خفي عليه أو أمكنه أن يتجاهل أنّ بعض أفراد المجتمع ليسوا كالقذائف ، وأنهم يريدون أن يغيروا سير المجتمع ، ويتمكنون من ذلك .

إن تجاهل هذه الأحداث البطيئة يجعل الكون عبثاً .

لقد بذل سكينر جهوداً كبيرة ، وكل الجهود التي كان يبذلها إلى آخر حياته ، وهو تحت خيمة الأوكسجين ، وكل حياته وسلوكاته ، كانت مبرّرة ، ولا تسويغ لها إلا الغائية القائمة في الوجود ، وهذا العمل الدؤوب دليل على أنه كان يعمل ضد قناعاته الظاهرة ، ولو لم توجد أهداف وغايات لما وَجَدَ لَذَّةً في البحث .

ما معنى اللذة وما أنواع اللذات ؟

سئل سكينر في مقابلة صحفية عن العواقب السارة التي وجدها في بحوثه ، فأجاب قائلاً : إن أعظم تقدير جاءني كان من مدرِّب (سيرك) ، كان يدّرب الحيوانات والوحوش ، قال هذا المدرب لسكينر : بعد جهودك وأبحاثك التي بينت أن التربية والتغيير لا تكون بالعقوبات ، بل بالتعزيز الإيجابي عن طريق المكافآت ؛ جربنا طريقتك في تعزيز السلوك الناجح ، فَتَرَسَّخَ السلوك الذي أعقبه تعزيز ، ولذلك لم نعد ندرِّب الحيوانات بالعقوبات ، بل بالمكافآت ، قال سكينر : هذا أكبر تعزيز جاءني ، وأعظم تقدير حصلت عليه لبحوثي ..

لقد سُرَّ سروراً عظيماً بهذا التقدير والنجاح ، سُرَّ بنجاحه في رفع العذاب حتى عن الحيوانات ، وبيان أن التربية والتقدم الانساني لا يكون بالعقوبات ، سَرّه هذا التقدير ، ولا حرج في أن شبه سكينر سروره بسرور القذيفة أو حجر المقلاع ، فأنا لا آخذ منه النظرة اللاغائية للوجود ، لكنني أقدِّرُ سعيه في بحث القيم ، والنتيجة التي وصل إليها بأنّ تغيير سلوك الإنسان لا يكون بالعقوبة بل بالتعزيز الإيجابي .

بإمكاني أن أوافق سكينر على هذه النتيجة ، وأن أقول : التعزيز السلبي يمكن أن يكون مفيداً في زاوية ضيقة جداً ، مثل فائدة بعض الأدوية لبعض المرضى ، مثل بعض السموم وبعض أنواع الجراحة التي نستخدمها أحياناً ، غير أننا لا نستخدم هذه الأشياء دائماً ، ونظام الحياة ليس قائماً عليها ، بل إننا نستغني عنها كلما كان ذلك ممكناً ، ومتى استطعنا العدول عنها إلى ما هو أفضل منها .

كم من مساكين مرضى السرطان ؟؟!! الذين يتجرعون السموم التي تدمّر المرض والمريض ، لعل هذا السم يقتل المرض دون المريض ، ولكن هذا لا ينفي قانون الزبد ، ولا يناقض غاية الوجود ومسيرته نحو الأفضل .

غائية الوجود

إنه اكتشف شيئاً مهما ، وهو أن مشاعرنا وأحاسيسنا لا قيمة لها ، وإن كانت تسير حياتنا ، وهذا كشف مهم جداً ، ومشاعرنا وأحاسيسنا خداعة وفاسقة ، والدليل على ذلك أننا أخطأنا في تفسير الشمس ، غير أنّ الشمس لم تخطئ سيرها إرضاءً

لأحاسيسنا ومشاعرنا ، وبذلك لم تفسد حركة الكون :« إن يبغ عليك قومك ، فلن يبغي عليك القمر » ، وقد علمنا الله تعالى أن نقول : (إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [سبأ : 24/34] ، والعواقب هي التي تفرز الهدى من الضلال .

ليست مشاعري ، ولا مشاعرك هي المرجع عند الاختلاف يا سكينر ! بل هناك مرجع آخر في الوجود ، هذا المرجع لا يبالي بنا ، إن له هدف آخر ، وإذ انتهينا إلى هدف الوجود ؛ فستقل الجهود ، وسيُختصر الزمن ، وسنحصل على مردود أكبر (خير وأبقى) . هذه هي غاية الوجود ، ومن أراد أن ينكر هذا فله الحق في الإنكار ، واعتقد أن الذي ينكر هو الذي يدفع الثمن .

من أجل هذا أشعر أن الحضارة الغربية تعيق حركة البشر ، وقد كان بالإمكان تقليل الجهود واختصار الزمن والحصول على مردود أكبر من الخير والأبقى ، لكن في مجموعهم يعطلون سير التاريخ لأنهم يفرضون فيه العبثية حتى في مستوى كبار مفكريهم .

ينبغي أن نقدر لبعضهم ما بذلوه من جهود ، وروجيه غارودي إنما جعل فلسفته وكل همه في إعادة المعنى إلى الوجود الإنساني ، لأنه شعر أن العالم مُفرغ من المعنى ، ومن الغائية والهدف ، حتى إن هذا المفهوم سيطر على بعض أكثر شبابنا ذكاءً ، مثل فايز فوق العادة رئيس الجمعية الكونية السورية بدمشق ، وهو ورفقاؤه يذكرون أسماء ونظريات الكم واللايقين ، وبمثل هذه المبادئ والأفكار يفرغون الوجود من المعنى ، وليس غير الانتحار نهاية لمن تسيطر مثل هذه الأفكار عليه كلياً ، ولو كان الذين ينادون باللاهدف منسجمين مع أنفسهم لما جاز لهم أن يبذلوا أي جهد في سبيل أي غاية .

القرآن والشَّك :

ما الذي جعلني أخوض في هذا كله ؟

إنه قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) [يونس : 94/10] . في هذا الكلام نجد جواز الشك ، بل وجوبه ، حتى لا نقع في العدمية ، فنحن نستطيع أن نشك ، بدون عدمية ، للوصول إلى وجود أفضل لا إلى وجود أسوأ .

ماذا نفعل إذا حدث لدينا شك ؟

نسأل الذين يقرؤون ، والذين قرؤوا من قبل وكتبوا وفكروا ، نسأل كتب الأرضيين والسماويين ، ولكن الكتاب السماوي يردنا إلى الوقائع الأرضية ، إلى الذين نقلوا الكتاب ، والكتاب أيضاً وسيلة لحل المشكلات ، فلننظر إلى الذين حلّوا المشكلات ، إلى الذين عجزوا عن حلّها ، ينبغي أن ننظر إلى الكتاب كواسطة مساعدة للانتقال من الذين حلّوا المشكلة إلى الذين لم يحلوها بعد ، ولا يتمكنون من حلها ، لمساعدتهم وإفادتهم من تجارب غيرهم عبر الكتاب ، ليقوموا بعملية التغيير .

إذا كنت في شك ، فينبغي أن تحدد الموضوع الذي تشك فيه :

أولاً : أنا لا أشك في أن العالم يتقدم إلى الأفضل ،فبعد النباتات خلقت الحيوانات ، وآخر الحيوانات هو الإنسان ، وقد بدأ الإنسان بالمساهمة في تسريع الخلق واختصار الزمن . علينا ألا نشك بهذا في عمومه ، وإلا سقطنا في العبث والعدم والسوفسطائية ، ولكن بعد هذا علينا أن نشك كثيراً ، وأن يحملنا الشك على تبين السلوك الراشد من السلوك الخاطئ الغاوي .

ولكن بعد هذا علينا أن نشك كثيراً ، وأن يحملنا الشك على تبين السلوك الراشد من السلوك الخاطئ الغاوي .

علينا أن نتبين الرشد من الغي ، علينا ألاّ نسلك الطريق الذي يأخذ وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً ، ولا يحل المشكلات ، بل يبقينا بعيدين عن الحل ، إذا لم نهجره بالكلية .

علينا أن نسلك الطريق الذي يأخذ منا وقتاً قصيراً وجهداً قليلاً ، وبمجرد أن نبدأ به تتيسر الأمور ،ونبدأ بالاقتراب من الحل ، والحصول على مردودات أثمن .

هذا ما ينبغي أن نشك فيه ، لا أن نبقى متبلدين نبذل أموالنا وأنفسنا في سبيل الخراب والبياب ، فنخجل من أنفسنا ، ومما ارتكبناه ، ولا نعرف كيف نخرج منه .

علينا أن نشك ، وألا نكون من الذين كذبوا بآيات الله ، ألا نكون مثل ثمود الذين استحبوا العمى على الهدى .

نحن لا نشك في الأهداف ، أهداف العرب والمسلمين ، ولكننا نشك كل الشك في الأساليب التي يريدون أن يحلوا المشكلات بها ، بل إنني أقول : ليس عندهم أسلوب لحل المشكلات ، فهم في حيرة وعماء ، وقد ثبت فشل حلولهم القديمة ، ووصل الأمر إلى ظهور أن هذه الحلول القديمة ؛ حلول الإكراه ، حلول المهديين ، حلول الأبطال القوميين ، وصلت إلى طريق مسدود سدّاً محكماً ، بعد أن كنا ننظر إليها ، في يوم من الأيام ، على أنها ممكنة .

نهاية الحلول البطولية

كانت الدولة العثمانية آخر أبطال العصور ، ولكن أساليبها القديمة كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة في معركة (إمبابة) بين نابليون والمماليك ، وكان أول المغامرين ، بعد أن فات أوان تلك البطولات ، محمد علي باشا ، الذي أراد أن يحارب بجيشه الضخم ، ولكن بعد أن فقد كامل الروح .

لقد مضى نحو مئتي عام ، ولا زالت جثة سليمان بيننا ، لم تسقط بعد ، ونحن لا زلنا في العذاب المهين لابثين ، لم نعرف ما الذي حدث في العالم ، ولم ندر ما الذي مات ، وما الذي ولد .

هل يمكن أن تكون حرب الخليج هي دابة الأرض ، التي ستجعلنا نودّع الحلول البطولية الإكراهية ؟

هل سنظل نُخدع بتلك الأشباح والمومياءات ؟ هل سنظل نفرح بالثورات الدموية ، ونعلق عليها آمالنا ، ويظل شبابنا يقدمون أنفسهم قرابين لإله الحرب والعنف والإكراه ؟ هل سيظل شيوخنا سكوتاً ، لا يحسنون إلا السكوت على هذه الأشياء ؟ هل سيظلون يدينون هذه التصرفات إدانة مجانية علنية ، ويحثون الشباب سراً على الاستمرار فيها ، بحيث لا يتحمّلون وزرهم ؟

أما ينبغي علينا أن نرشدهم إلى طريق وحلّ أنظف وأطهر واقدس ، وأن نأخذ بأيديهم ونعلمهم ؟

الشك بين الوسائل والغايات

إن مشكلة التعليم والإرشاد هي التي تُعوِزنا ، فنحن لم نتبين بعد الرشد من الغي ، ولم نعرف سبيل الرشاد من سبيل الغواية ، وليس عندنا رشد ولا رشاد ، فقدناهما من زمن بعيد ، ويئسنا من إمكانية إعادتهما .

ليست المشكلة في الأهداف ، ليس الشك في الغايات ، الشك في الوسائل ، نحن لا نشك في الأهداف ، فإن كنت في شك منها فلا حرج ، ولكن علينا ألا نخلط بين الذي مشكلته في الأهداف ، والذي مشكلته في الوسائل .

إنني أتحدث إلى الذين يشكون في الوسائل ، كيف نحرر فلسطين ، كيف نوحد العرب ، كيف نجعل العرب والمسلمين يثق بعضهم ببعض ...

فإن كنت في شك من الأهداف ، فنحن لا نبحث هذا الآن ، ربما نعود إليه فيما بعد ، نحن لا نحذفه مطلقاً ، بل نضعه الآن جانباً .

علينا أن نبحث في الوسائل ، في السُّبل الموصلة إلى الأهداف ، وقد أبرز الله تعالى أهمية السبيل : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] .

إن الخسارة هي الدليل على الخطأ في السبيل والوسيلة ، فالموضوع موضوع ربح وخسارة ، لا موضوع خبث وطيبة ، إيمان وكفر .

إن التكذيب بطريق الرشد هو الخسارة : (فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ) [يونس : 94/10-95] .

كن معي في معنى الخسارة الدنيوية ، ولا تنس ما ذكرتك به آنفاً !!..

أنا هنا في الدنيا ، وأريد أن افهم معنى الربح والخسارة ، فلا تكن في مرية من أن ربح العرب والمسلمين في أن يتفقوا اتفاقاً مثيلاً لاتفاق الأوروبيين ، من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ، من غير عنف ولا إكراه ، بل بإيمان ويقين ، لو بدأنا بهذا قطر لا قطران ، وظل متمسكاً به ، لوجد من يتعاون معه ، وإذا وجدت جماعتان متعاونتان ، فستنضم إليهما ثالثة ، وهكذا ...

ما أريد هو إلا نكون في مرية من الأهداف ، فالنماذج موجودة ، ولكن كيف ننقلها ، وما هي العقبات الداخلية والخارجية التي تجعل نقلها صعباً ؟

أنا جاهز لأبحث معك مشكلات الطريق ، مشكلات سبيل الرشد وسبيل الغي ، من أجل هذا أكتب ، وسأسجل في وصيتي للشباب أن يكملوا ما بدأت به وأن يتقدموا به .

لماذا نعجز عن سلوك سبيل الاتحاد الأوربي ؟ لماذا عجز الاتحاد السوفيتي عن التحول السلمي فتمزق ؟ ماذا سيكون شأن الصين ؟ كيف سيقبل العرب والمسلمون مثل هذا الاتفاق ؟

سبيل الاتحاد الأُوربي وسبيل الاتحاد السوفيتي

لا تكونن من الممترين ؛ من المكذبين ، من الذين يندفعون في طريق الخسارة والتدمير : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [يونس : 10/96-97] .

نحن نرى إلى الآن أمماً تتمزق كما تمزق الاتحاد السوفيتي ، وأمماً تتوحد كما توحد الأوربيون الغربيون ، وأخرى تنزف ويذيق بعضها بأس بعض ، لأنها ترفض سبيل الرشاد ، ولا تستفيد من الآيات وتكذب بها .

لا تكونن من الذين كذبوا فتكون من الخاسرين : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ..) .

لو أمكننا أن نحول اللغة السماوية إلى لغة أرضية تجارية بحتة ، لأمكن فهمها بشكل أكبر ، ولو أمكننا أن نجعلها لغة تربوية تغييرية ، ووعياً ينبغي نشره في الأمة ، وعياً محسوساً بنوعه وكمه وتكاليفه من الجهود ، وساعات العمل ، أو محسوباً بالدولار كما يفعل بعضهم ، لأجل التوعية ونشر المعرفة بشكل محسوب من الذرة إلى المجرّة ، لو فعلنا ذلك لأمكننا أن نفهم أن الإيمان المحسوب هو اليقظة الواعية ، وهو الذي يدفع العذاب أو يقلل منه .

حين يقول الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ) ، وحين يقول : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الرعد : 13/11] ؛ فهذا يعني أن كلمة ربك هي أنه لا يغير ما بهم من الخسارة والنقمة حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وتغيير ما بالنفس لا يكون إلا بالاطلاع على ما يحدث في العالم ، وبالتأمل في الكيفية التي يحدث بها ، وبالنظر فيما تغير في الآخرين حتى غير الله ما بهم ، وبالكشف عن سبيل الرشد ، والاجتراء على سلوكه ، لأن الدعوة إلى هذا السبيل تحتاج إلى جرأة ، ودليل ذلك أن احداً لا يجرؤ على ذكر هذا الحدث ، حدث الاتحاد الأوربي ، وذلك يعود إلى أن الأوربيين خصوم تقليديون لنا ، وخصومتنا لهم مثل خصومة أبي جهل مع رسول الله r ، فهو خصمه حتى لو علم أنه رسول الله ، وأن ما جاء به هو الحق : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [النمل : 27/14] .

لا بد من التحليل ، لا بد من نتح بئر القلوب وإخراج ما فيها من فساد ووهم وظلم وعلو ، والظلم هو الاحتفاظ بالامتيازات ، وعدم القبول بالسواء بين البشر ، والسعي للارتفاع فوق البشر مع الشعور بأنهم حقراء ، وأنه لا يمكن أن يكون فيهم خير ، والادعاء بأنهم فاسدون وأقذار وأدناس .

أوربة والعذاب الأليم :

كيف نشعر أنه لا زال في الناس خير ؟ كيف نحلل المشكلات التي تحول بيننا وبين قبول الآيات ؟

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [يونس : 10/96-97] .

الملجأ الأخير لفتح العيون هو العذاب الأليم الذي يجره على نفسه ، وعلى المصلح أن يُحذّر حتى يعذر : (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ : اعْبُدُوا اللَّهَ ... قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ ... قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . قَال : أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِين ... فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ ... الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟؟!! وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) [الأعراف : 7/85-94] .

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [يونس : 10/96-97] .

الخسائر لا قيمة لها ، وحتى العذاب الأليم فإنه يحتاج إلى تكرار ، ولا بد لنا من تأمل حال أوربة حتى نعلم أن العذاب لا يكفي ، فكم من الحروب قامت ، وكم كان عند الناس من قابلية للانتحار ، وهذه القابلية ليست طاقة سلبية ، بل هي قابلة للاستخدام المزدوج ، في الخير وفي الشر ، غير أن التحول الثقافي مثل التحول الجيولوجي ، بطيء وراسخ ، وهو مع ذلك قابل للتسريع والاختصار والاختزال ، بمعرفة قوانين وآليات ووسائل تغيير ما بالأنفس ، وعندها فإن ما يحدث تلقائياً ، يمكن أن يصير صناعياً ، ولهذا جاء خرق القانون بشكل سنني لا بشكل مجازي ، فهل نزول العذاب حتم ، وهل لا بد أن تهلك القرى ؟ هل الهلاك مصير كل الحضارات ؟ ألا يمكن تفادي الانتحار ؟ هل الانتحار حتم لا بد من وقوعه ؟

الفصل السابع

مَذْهَبُ الرشد

مذهب ابن آدم والأنبياء

الحضارات وتحدي الهلاك

في آخر كتابه (دراسة التاريخ) تردد توينبي في تقرير هذا الاتجاه أو ذاك ، وواجه الموضوع ، ولكن التاريخ لم يسعفه ، بمن تمكن من الاستجابة الناجحة للتحدي .

لقد قرأت ما كتبه توينبي في هذا الموضوع ، بشغف ويقظة ، وكنت أضع يدي على قلبي ، وأقلّب بصري ونظري ، فالقرآن يكاد يوحي ، لمن لا يدقق النظر ، بأن الهلاك حتمي ، وأن الحضارات زائلة .

وأرنولد توينبي تمنّى للحضارة المسيحيَّة أن تتمكن من الاستجابة للتحدي ، ولكن كلامه كان يُظهر أنه غير متفائل في أمنيته هذه .

وإذا كان ابن خلدون قد كشف قانون الدولة ، وسنّة ولا دقها ونموها ، ثم تراخيها وفنائها ، فإن آرنولد توينبي كشف قانون الحضارات ، في بدئها ونموها واستطالتها ، ثم انهيارها ، ثم تحللها ، ولكنه لم ينتبه إلى حركة أخرى في التاريخ ، هي حركة النبوة التي صحبت البشرية من عهد آدم ، واستمرت وترسخت ، إلى درجة أنها صارت قانوناً يمكن للبشر لأن يتابعوه بوضوح ، وإذا كان توينبي قد تمكن ، وبفضل فاوست ، من كشف قانون التحدي في الحضارات ، فإنني ، وبفضل القرآن ومراقبة التاريخ ، تنبهت إلى دورة غير دورة الدولة ، وغير دورة الحضارة .

الدورة التي تنبهت إليها ، ليست مثل دورة ابن خلدون ، لا تقدر بأربعة أجيال ، أي نحو (120-150) سنة ، وليست مثل دورة الحضارة التي وضعها توينبي ، والتي يمكن أن تعيش آلافاً قليلة من السنين ، أو تتجمد قبل اكتمالها : (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) [الحج : 22/6] ، إلى الفناء ، مثل الحضارة الفرعونية ، حضارة وادي النيل ، وحضارات دجلة والفرات .

الحضارة التي تنبهت إليها ينبغي أن نبتكر لها اسماً جديداً ، قد نقول : إنها كدح الإنسان ، أو السعي الكادح ، فالحضارات السابقة كانت محصورة باسم معين ، حضارة كذا وكذا ، ولكن علينا أن نضع لكدح الإنسان وسعيه المتواصل اسماً ، لا يكون قومياً ،

ولا وطنياً ، اسماً يستوعب الإنسانية ، هذه هي حركة الإنسان الكدحية إلى الله : (يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ) [الانشقاق : 6/84] ، بدأ هذا الكدح من قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة : 30/2] ، ونهايته تكون بتحقق علم الله الذي قال : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) [البقرة : 30/2] ، وكم كرر القرآن مقولة : (وإليه المصير) ، (وإليه ترجعون) ...، وسيتحقق علم الله في هذا الإنسان : (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [يوسف : 21/12] .

الأنبياء وحركة الكدح الإنساني

هذا الكدح الإنساني هو ما أنظر إليه ، وهو ما أراه في ضوء النبوات التي تسلسلت من لدن آدم وابنيه ، إلى نوح وإبراهيم ، حتى محمد r ، سلسلة نبوات دعت جميعها إلى نمط جديد في سعي الإنسان ، صدق بعضهم بعضاً ، وبشر بعضهم ببعض ، إلى أن ختمت النبوات بالقرآن الذي يأمر الإنسان بالنظر إلى التاريخ ، ليكشف قانونه ، وينبهه إلى أنه إن لم يتمكن من فهم القانون ، فسيأتيه من الأنباء ما فيه مزدجر .

هذه الحركة النبوية ، هي التي تتقدم في المستقبل المنظور ، وسيحقق الله وعده ، وسيضطر الناس للدخول إلى هذا الذي جاء به الأنبياء ، وسيتمكن البشر من إيقاف الصد عن سبيل الله من دون صد آخر ، وسيتقدم الناس إلى الأفضل حتى يقبلوا الدعوة إلى كلمة السواء ، فلا يهيمن بعضهم على بعض ، ولا يستبعد بعضهم بعضاً ، ويكفوا عن الطرق الخادعة التي توحي إليهم بإمكان إزالة الإكراه بالإكراه .

تطهير القلب واليد واللسان

أشعر أن الإغراء ، إلى الآن ، لا زال شديداً ، فكان العالم لا يستقيم إلا بالإبقاء على سبب الفساد ، فنحن لم نتمكن من أن ننفي من نفوسنا الإكراه الذي نفاه الله تعالى بقوله : (لا إكراهَ في الدّينِ) ، وأنا أشعر أنه إذا خرج من قلوبنا ، فسيزول عن ظهورنا .

إن الإكراه مرض في القلب ، وما دام هذا المرض في القلب فلن يحل فيه الرشد أبداً ، لأن ما يسلط على ظهرك هو ما في قلبك .

ابحث عن أعماق قلبك ، فتش عن حب الإكراه الكامن فيه ، فتش عن الإكراه الذي تحب أن تمارسه على الآخرين ، ولا تحب أن يمارس عليك .

إن ظنك بأن العالم لن يستقيم حتى تكون أنت المكره للآخرين ؛ هو الجرثوم الحي القابل للانفجار في كل لحظة ، ولن يخرج هذا الجرثوم من قلبك إلا إذا قبلت بأن تكون مثل ابن آدم ، لأن ابن آدم هو الذي أخرج حب الإكراه من قلبه .

من هو الطبيب الذي سيصور القلب ، ليتمكن من كشف هذا المرض الخبيئ الكامن فيه ؟ من هو الذي سيتمكن من تخطيط القلب ، ليقبض على إشعاعات الإكراه فيه ؟

كأنني وصلت إلى نقطة بدء المشكلة ، وانعقادها ، وولادتها !!..

ألا أيها الأخ العزيز ! لن يسلم قلبك ، ولن تكون ذا قلب سليم ، ولن ترجع إلى ربك بقلب سليم ، مثل إبراهيم الذي أتى ربه بقلب سليم ، ما دمت تنكر الإكراه من الآخر ، وتستهجن الإكراه الذي في قلبه ، بينما تريد التغلب عليه ، عن طريق مواجهته بالإكراه نفسه الذي تنكره عليه ، وبذلك تكونان مريضين كلاكما ، ومآل المريضين واحد ، وهو استمرار العذاب .

إذن ، ابدأ بتنقية قلبك ولسانك ويدك ، فإن يدك من لسانك ، ولسانك من قلبك . ابدأ من المنبع ، لتجففه ، ابدأ بالسلام بالقلب السليم ، فرّغ قلبك من الإكراه والغل والمرض لحظة واحدة ، وعندها تذوق لحظة سعادة القلب السليم .

أوّاه ، أوّاه ، ما أكثر ما أوحوا إلينا بأن الحل هو بأن نملأ قلوبنا بالحقد والكراهية .

إن إبراهيم الأواه الحليم كان ذا قلب سليم ، فأين من يشبع فينا سلامة القلب ؟ أين الطريق إلى شراء القلب السليم ؟ من هو الذي سيكرس حياته لفهم معنى سلامة القلب ، وتفهيم سلامة القلب بعلم جديد ؟

هذا ما جاء به الأنبياء ، هذا منهجهم ، هذا هو الحرم الذي لا يمكن أن يدخله عابد أوثان ، لا يمكن أن يدخل إليه إلا بلال وسمية ، لأنهم هم الذين بنو تاريخ الإسلام ، ونحن ، بحالتنا هذه ، نزعنا هذا الأساس ، ونبذناه وراء ظهرياً ، وشعرنا أن من العيب أن نكون مثل ذاك العبد الذي قبل الذل والهوان ، و لم يرد على العدوان ، و لم نعلم أن من لم يمر بمرحلة بلال فإنه ينسخ الإسلام ، وأن الإسلام قد نُسخ لأن مرحلة بلال نُسخت من حياة المسلمين .

إن أحمد بن حنبل كان على رائحة من مسك بلال ، ولو جعلنا موقف ابن حنبل منهجاً لنا ، لأحيينا منهج الأنبياء ، ولكننا لم نلتزم منهج الأنبياء ، ولا منهج بلال ، ولا منهج ابن خلدون ، ولا منهج أبي ذرّ .

أنا لا أبحث عن أهداف ابن حنبل ، ولا عن أهداف ابن أبي داؤد ، ولكنني أبحث عن المنهج الذي اتّبعه أحمد بن حنبل في مواجهة الإكراه ، وإن كان الحنابلة قد فسروا منهجه تفسيراً خاطئاً ، و لم يلتزموا منهجه ، بل تحولوا إلى منهج ابن أبي داؤد ، إلى منهج المعتزلة وأسلوبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعتزلة يشاركون الخوارج في وجوب الخروج على الأئمة الضالين بالسيف .

الزيغ والالتباس

ما أشد ما التبست الأمور ، وهي ليست صعبة ولا سهلة ، ولكن علينا أن نفهم كيف يمكن أن يختلط الدنس بالمقدس ، وكيف تشتبه التزكية بالتدسية ، وكيف يعيش الناس على الالتباس والاشتباه .

إن القلوب المريضة ، والتي فيها زيغ ، هي التي تتبع ما تشابه منه ، وكذلك القلوب التي فيها الإكراه والفتنة .

اكشف العلاقة بين الالتباس والاشتباه ، وبين القلوب التي فيها زيغ ، واقرأ مرّة أخرى ، على نية جديدة وضوء جديد ، على أشعة إكس قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ) [آل عمران : 7/3] .

كيف تشتبه الفتنة بالرشد ؟ هل تبين الرشد من الغي أم التبس التباساً شديداً ؟

حين أقول : منهج الأنبياء ، وحركة النبوة ، وكدح الإنسان ، واتجاه التاريخ ، وحين أقول : إن أوان الدين والنبوة لم يأتِ بعد ، فذلك لن الناس ما يزالون لا يعرفون إلا دفع السيئة بسيئة مثلها أو أسوأ منها ، أما : (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [فصلت : 34/41] ، و (لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) [النمل : 46/27] ، وان هذه هي طريق تحويل العداوة والبغضاء إلى حب وولاية وأخوة حميمة ، فهذه بضاعة لا يوجد عند الناس خبر عنها .

تفكّر في الكيفية التي يؤذي بها بعضنا بعضاً ، والكيفية التي نزيل بها الآخر كله لا موقفه فقط ، فنحن لا نفكر في الكيفية التي نحوّل بها العداوة إلى محبة ، ولكننا نفكر ونحصر تفكيرنا في الكيفية التي نزيل بها العدوَّ بشخصه ووجوده .

فكر ، ولو للحظة واحدة ، كيف أن هذا الموضوع موطن اشتباه وضياع وتيه !!

(إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) [سبأ : 46/34] .

ليس هذا جنوناً ... (فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) [آل عمران : 7/3] ، ما هو الزيغ ؟ ما هو الغي ؟ ما هو البغي ؟ ما هي الكراهية ؟

الله تعالى يقول : (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ) [فصلت : 34/41] ، ولكننا نقول : لا بل تستوي الحسنة والسيئة ، وأكثر من هذا نقول : إن أسلوب السيئة أفضل من أسلوب الحسنة .

أليس هذا زيغاً وضلالاً ؟

إننا نظن أن الإكراه هو الرشد ، والله يقول : الإكراه هو الغي : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ) [البقرة : 256/2] .

حين يلتبس على الإنسان هذا الأمر ؛ يكون قد بدأ بداية خاطئة ، والاتجاه الخاطئ يقود إلى عالم مليء بالأخطاء .

لقد هجرنا الرشد منذ زمن بعيد ، و لم تعد لدينا قدرة على إعادة النظر والتفكير ، هجرنا الرشد ، وقبلنا مقابلة الغي بالغي ، وصرنا غياً يقتل غياً ، والرشد غائب تماماً .

أريد أن أخاطب الناس وأقول لهم : أيها الناس ! فلنُخرج الرشد من غيابه ، ولنتعرف عليه ، ولنبحث عن بعض سماته الأساسية .

الرشد هو الذي يأتي بدون إكراه ، والغي هو الذي يأتي بالإكراه ، وقد بقي هذا واضحاً جلياً ، و لم يضِع خلال التاريخ كله ، ولذلك علينا أن نفكر في الوسائل الكفيلة بإعادة الرشد إلى حياتنا .

سنعود إلى بحث هذا الموضوع مرّة أخرى ، ولكن فلنعد الآن إلى آيات سورة يونس .

الكفر الدنيوي والكفر الأخروي

إن لقوم يونس شأناً في التاريخ البشري ، وقد قلنا : إن تويني لم يكن متفائلاً من إمكان دفع عذاب الله عن الأمم ، ولكنني متفائل من ذلك ، متفائل أولاً من أن علم الله سيتحقق ، وأن نور الله الذي يتألق خلال ظلمات التاريخ لا يمكن إطفاؤه ، مهما كان هناك من يريد أن يطفئ نور الله ، فغن نور الله في التاريخ لن ينطفئ .

إنني أراه في الواقع ، ليس إيماناً بالغيب ، بل إيمانٌ بالشهادة ، لأنه صار شهادة ، والتاريخ شاهد على ذلك مهما كثر الذين يجهلونه ، ومهما زينوا تشاؤمهم . مهما ذكروا السيئات ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وفهم القرآن للتاريخ فهم تفاؤلي ليس تشاؤمياً ، ولا عدمياً ، ولا سوفسطائياً .

إن مرض العدميَّة والتشاؤم هو الذي يولد اليأس والزيغ والكفر ، وكلمة الكفر كلمة مشحونة بالمعاني الغيبية ، ولا حرج أن يكون لكلمة الكفر معنى غيبياً ، ولكن لها معنى أرضياً أيضاً ، فللكفر واقع اجتماعي دنيوي ، فمثل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، هناك كفر الدنيا وكفر الآخرة ، والفلاّح كافر ، لأنه يغطي البذور في الترب ، ويغطي التربة بالزرع ، وكما أن هناك جنات دنيوية وأخروية ، هناك كفرات دنيوية وأخرى أخروية ، أي مزارع ، والكفر هو المزرعة ، وكل الذين يسيرون ويخفون أشياء ، فلا يعود الناس يرونها ، هم الكفار ، والمكان الذي يعملون فيه ذلك هو الكفر والجنة والبستان والمزرعة ...

إن الكفر الدنيوي هو الوقوع في الالتباس ، وينبغي ألا يُحمل على الكفر الديني الذي يعني إنكار الدين والتكذيب به ، ونحن عبر التاريخ شحنا كلمة الكفر بشحنات متفجرة هائلة ، إلى درجة أن الكفر صار في العالم الإسلامي رديفاً للإعدام ، وتحولت كلمة كافر التي تستخدم للضرورة ، إلى كلمة تعني وجوب قتل من تُطلق عليه ، خاصة حين تطلق على مسلم ، عند ذلك فإن كل من يتمكن من قتله يكون بهذا العمل متقرباً إلى الله !!..

متى سيتعلم المسلمون من القرآن أن الكفر ليس سبباً لجواز القتل ، وجواز أو وجوب الجهاد القتالي ؟

متى سنخرج من الحروب الكلامية اللفظية التي تسبب لنا حروباً مثل حرْبَي الخليج ؟ حيث كان كل طرف يتهم الآخر بالكفر ، ودفعاً لهذه التهمة كانوا يرفعون الرايات ، رايات القرآن ، رايات (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، و (الله أكبر) .

متى سنحل هذه المشكلة العويصة ؟! .

الدكتور البوطي وكتاب الجهاد

حين صدر كتاب (الجهاد في الإسلام ؛ كيف نفهمه ؟ وكيف نمارسه ؟) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، هتفتُ وقلت : لن يكون العالم الإسلامي بعد هذا الكتاب كما كان قبله . لم أقل هذا ظناً مني بأن العالم الإسلامي سينقلب بين عشية وضحاها إلى

عالم آخر ، ولكن حين يعيد رجل في وزن الدكتور البوطي إلى ساحة المسلمين ، فكرة أن الكفر ليس سبباً في جواز قتل النفس التي حرم الله ، وان الجهاد لم يشرع لإزالة الكفر ، فإن هذا ، ولا شك ، تقدم ودخول في عملية الإصلاح الإسلامي .

حين أقول : يعيد إلى ساحة المسلمين ، فإنني أقصد أنه لم يأت بشيء جديد ، ولم يبدع أمراً خارقاً ، بل أحيا شيئاً ضيعه المسلمون ، وأبرز أمراً مستبعداً ، وأخرج إلى الوجود سُنَّة منسية ، وأعاد إلى حياة المسلمين منهج النبوة . ومهما كثر القيل والقال ، ودارت مناقشات واعتراضات ، وتداول الناس التأويلات والتفسيرات ، فإن هذا تقدم لا ينكر ، وسعي إلى الإصلاح لا بد أن يشكر .

وأنا لا أشك بأن دراسة هذا الموضوع ، وإعادته إلى ساحة النقاش ، علامة صحة ، وخطوة نحو ترشيد الصحوة ، وإزالة الشبهات والالتباسات ، وأرى أنه ما لم نحرر هذا الموضوع ؛ فلا يمكن إيقاف الحرب بين المسلمين .

إنني على يقين من أن كل من أراد أن يبحث هذه المشكلة في مصادر الإسلام سيتوصل إلى ما أبرزه الدكتور البوطي في كتابه ، وما أظن أن عالماً ، مهما كانت درجة معرفته الإسلامية ، يقول : إن الحكم الذي يأتي بالغلبة والبغي هو حكم مشروع إسلامياً ، والنزاع إنما يدور حول تقدير أي الباغِيَين أفضل ، أو أيهما أقل بغياً .

ولكن العلماء ، ع هذا ، يسكتون عن هذا الأمر الذي لا خلاف فيه ، وهو أنه لا يمكن إعادة الرشد بالغي ، وإعادته لا تكون إلا بالرشد .

لقد تماونوا في هذا الأمر ، ولم يدققوا فيه ، رجاء أ يتحول الحال إلى أفضل على يد بعض البغاة ، وقد فتح كتاب الجهاد البـاب للبحث بمستوى غير عادي ، ونرجو أن يكون بداية لتصحيح مسار الحركة الإسلامية في العالم المعاصر ، والعودة إلى الأصول الإسلامية التي لا يتنازع فيها اثنان ، وإن كانت مهجورة ومؤجلة .

إن هذا الكتاب خروج من التأجيل ، وعودة إلى الأصل المنسي أو المتناسى ، وليس هذا ما في الكتاب فقط ؛ بل فيه شيء كبير آخر ، شيء أخذ القسم الأول من الكتاب ، وهو بحث أهمية الدعوة وإعادة الحياة إلى المبادئ الإسلامية ، وفي هذا القسم بدا يعطي الأولوية للفقه والمعرفة ، وليس للقوة والبطش والغي والبغي ، وهذا الاتجاه تغيير في مسار الحركة الإسلامية ، وإيضاح لحقيقة أن الفقه بالقرآن هو الجهاد الذي بدون لا يتحقق الجهاد الإسلامي القتالي ، كما أنه قرر أن القتل والقتال هو وظيفة المجتمع ، لا وظيفة الأفراد ، وأن الشرطة والقضاء هم الذين يمارسون حفظ حقوق الناس ، وأن المجتمع يتكون بالدعوة والرشد ، وهو الذي يفرز ممثليه وقضاته وشرطته وحاكميه ، وأن ممثلي الشعب لا يفرضون أنفسهم بالإكراه ، بل بالتعليم والدعوة إلى منهج النبوة .

لعلّي أسأت ، بهذا العرض ، إلى الفكرة وصاحبها ، حين تناولت بهذا الأسلوب الذي يفتقر إلى الوضوح والبيان ، ولكن استمرار البحث هو الذي سيعيد الحياة النظيفة النقية التي يتعارف فيها الناس على أساس الصدق وتوخي حل المشكلات ، والبدء بها الآن ، وعدم تأجيلها .

ينبغي أن نعلم أن الأعمال يمكن أن تؤوّل ، والنوايا يمكن أن تتهم ، ولكن التاريخ يشبه يوم الحساب ، لا يضيع عملاً نافعاً مهما كان ضئيلاً أو كبيراً ، فالزبد يذهب جفاءً ، ومهما بدا رابياً في حجمه ، فإنه خفيف في وزنه ، ومرعب في وهمه .

إن مواجهة الناس بالحقائق التي استبعدت طويلاً ، يحدث لديهم نفوراً ، ويخلق سوء تفاهم معهم ، ويثير في عقولهم ونفوسهم شبهات مزعجة غالباً أو أحياناً ، فما العمل إزاء كل هذا ؟

لا بد أن نتقدم ونتعلم دائماً كيف نحصد أعظم المكاسب بأقل الخسائر .

بالإمكان تأويل الكلمات والنوايا ، لكن التاريخ يغربل الأمور كلها ، والناس يراجعون أنفسهم ، ويتبين لهم قدرهم ، ومبلغ علمهم ، ونهاية مسعاهم .

إن التاريخ يعلمنا الزبد من الأفكار ، والنافع منها ، وليس هذا فحسب ، بل يعلمنا السُّنَّة التي على أساسها يذهب الزبد جفاءً ، ويمكث في الأرض ما ينفع الناس ، التاريخ يعلمنا الهدف والوسيلة ، يعلمنا الصبر ويعلمنا المُدَدَ والعُدَدَ التي بواسطتها يتحرك التاريخ (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) [الأحزاب : 62/33] .

قوم يونس وتفادي العذاب

ما هي قصة قوم يونس ؟

في هذه القصة تظهر إمكانية تفادي العذاب الأليم ، عذاب الخزي الدنيوي ، أي أنهم استطاعوا بإيمانهم أن يتفادوا كلمة ربك التي حقت عليهم .

إن مُهّمتنا الآن ، في العالم الإسلامي ، هي أن نقلل من العذاب وأنواع الخزي والعار والخسران ، وكل من يساهم في تقليل العذاب يكون سائراً في اتجاه التاريخ ، الذي يسعى بشكل حثيث إلى تقليل كم ونوع التجارب الخاطئة ، ومن يستطيع أن يتجاوز التجارب الخاطئة بتجربة خاطئة واحدة ، فإنه يكون قد تقدم تقدماً كبيراً ، ومن اعتبر بتجربة غيره و لم يكررها ، فإنه يكون قد حقق تقدماً أكبر ، ولهذا علينا أن نكون يقظين في تقدير ما حدث سابقاً في التاريخ ، وألا نعيد الأخطاء القديمة ، وكذلك علينا أن نكون يقظين في تقدير ما يحدث الآن من تجارب جديدة وفي مستويات جديدة .

حين أعطى التاريخ أهمية كبيرة ، فإنني أسعى إلى أن أكشف قانونه العام ، الذي يشر إلى أن العالم ليس قارّاً ساكناً أو متراجعاً ، لأن فهم الكون على أنه ساكن أو متراجع فهم جاهلي ، وهو نوع من التصور الجاهلي للخالق المبدع الذي (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) [فاطر : 1/35] و (يَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) [النحل : 8/16] ، والدليل الذي يفيد في فهم سنن الله هو خلق الله ، فانظروا إليه هل ترون فيه من فطور ؟! .

إن الله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، والكون يسير في هداية ، ولا ينظر إلى جهلنا ، هذا التصور أمر جوهري ، وإلا فإن الإنسان يكون قد رفض أمانة الفهم والاستقامة ، ومهمة الخلافة في الإبداع والإسراع ، فالوعي الإنساني يُعَجِّلَ التاريخ ، والإنسان عجول : (وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً) [الإسراء : 11/17] ، و (خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ) [الأنبياء : 37/21] ، ومن دوافعه وبواعثه التسريع والاستعجال وقطع المراحل ، وحين يعرف قوانين الله في الوجود ؛ فإن بإمكانه أن يسخرها ويعجل في تحقيق الأنفع ، وفي الإبداع لتحقيق علم الله القديم .

وإذا كنا لا نرى إلا الهالكين ، فهذا لا يعني أنه لا يمكن أن يحدث شيء لم يحدث من قبل ، إن هذا ممكن ، وقوم يونس نموذج على ذلك ، وإذا كان قوم يونس نموذجاً فريداً في الإمكان ؛ فينبغي تحويل هذا النموذج إلى قانون عام ، وعدم إبقائه في إطار النموذج الشاذ ، ينبغي تحويل الإبداع إلى حالة عامة .

هذا ما ينبغي أن نوجده إن لم يكون موجوداً ، وإن وجد فينبغي أن نعممه ونسرعه ، وإذا كان العالم متشائماً فيما يتعلق بمستقبل الإنسان ؛ فإننا متفائلون ومتفائلون جداً ، والتاريخ هو الذي يعلمنا التفاؤل .

إن عالم اليوم في حيرة ، في عدمية ويأس ، في تشاؤم وتبلد ، وهذا يطفئ جذوة الحياة في النفس ، ويثبط الهمم ، وعلينا أن نبتكر كيفية في قراءة التاريخ ، وتسلسل الإبداع وتقاربها ، وتقصير المُدَد بين إبداع وآخر ، وإذا كان الذين سبقونا متشائمين يائسين ، فعلينا أن نتفنن في الخروج من اليأس .

مسيرة التقدم التاريخي

التاريخ هو الذي أنقذني ، إنه إبداع الله ، ونسخه للأساليب الخاسرة في هذر الوقت وتبديد الجهود ، مع قلة المردود ، فالله ينسخ الأساليب المكلفة ، ونظام الوجود يتقدم إلى الأيسر ، إلى اليسر والرحمة ، إلى الاقتصاد في استهلاك المواد والجهود ، مع تكبير المردود : (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيبًا) [المعارج : 6/70-7] ، بل إنه قريب جداً ، فقد جاءت أشراطه .

ينبغي الإسراع في إيقاف النزيف ، نزيف الزمن ، التبذير في الزمن ، والتبذير في المواد ، وفي طاقات الإنسان .

إننا مبذرون ، ولا نزال نؤاخي الشيطان الذي يفرح بالتبذير ، وأنا هنا ، فيما أكتب ، أبذر في الوقت والجهد ، ولا قدرة لي على تقديم الحل بسهولة ويسر وإبداع واختصار ، والفقر الفكري هو الذب يجعلنا نبذل جهوداً كبيرة ، دون الحصول على مردود مكافئ ، بل ربما كان المردود صغيراً جداً أو معدوماً .

إنه لشيء مملٌّ !! .. إننا نبذر ، إننا فقراء ، نبذر في الجهود ، وفقراء في المردود ، ونظام الكون خلاف هذا ، فنحن إذن نسير عكس النظام ، عكس التاريخ ، عكس الرشاد .

هل يمكن أن نعتبر بقوم يونس ؟ من هم الذين يمكن أن نقول عنهم : إنهم قوم يونس في التاريخ المعاصر ؟ من هم الذين اعتبروا بالتاريخ ؟ (فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) [يونس : 98/10] . كان التاريخ تكراراً للأخطاء ، ولم يكن بالإمكان الإمساك به ، كان يسير تلقائياً وببطءٍ شديد ، ولكن الإنسان بدا يشك ويبحث في إمكانية اختزال التاريخ ، فإن كنت في شك ... فاسأل التاريخ ، وتعلم كيف تسأل التاريخ ، وتعلم كيف تسأل التاريخ ، إنه يعلمك الاقتصاد ، يعلمك كيف يكون الاقتصاد والتوفير ، ويعلمك كيف يكون التبذير والتدمير .

إن كنت في شك ... فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، لقد جاء الحق ، جاء الصراط المستقيم ، جاءك الحل الأسهل الأيسر الأقرب ، جاء حلٌّ المشكلة الإنسانية بأيسر الحلول ، بتكاليف قليلة وعطايا كثيرة ، فلا تكونن من الممترين ، فلا تكونن من الذين يكذبون بآيات الله التي وضعها للاستقامة والرشد والهداية والاقتصاد في الجهود ، إن لم تفهم هذا !! .. إن لم تصدق هذا !! .. فستكونن من الخاسرين !! ..

إنه المنهج ، إن كنت في شك مما يقال ؛ فتوجه إلى من كان قبلك لتعرف صدق أو كذب ما تشك فيه ، فإن ما حدث من قبلك فيه زوال للشك ، فيه زوال للشك في صدق أو كذب ما جاءك ، فلا تكونن من الممترين في صرامة قوانين التاريخ فيمن قبلك ، فإن اختلط الأمر عليك ، فإن الخسائر التي ستصاب بها ستعلمك أن الذين لا يقدرون على فهم التاريخ سيكون العذاب الأليم بالنسبة لهم نهاية التكذيب وبداية التصديق وزوال الشك والمرية .

انظر إلى القرى ، منها قائم وحصيد ، وإلى قوم يونس الذين كشف عنهم العذاب ، عذاب الخزي ، حين آمنوا بقوانين وعوامل عذاب الخزي . حين آمنوا بما حدث من قبل ، كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ..

إن مشكلة البشر هي اختلاط جدوى جهد البشر في التاريخ ، والشك فيه ، فإذا كنت تشكون في جدوى جهودكم ، فإن الله كان قادراً على حذف ما أعطاكم من القدرة على الاستفادة من التاريخ ، كان بإمكانه أن يخلقكم جميعاً مؤمنين ، إلا أن هذا ليس هو أسلوب الاستخلاف وحمل الأمانة ، أمانة تقرير المصير ، وأمانة صناعة مستقبلك ، فبوعيك حملت أمانة معرفة الخير من الشر ، ومعرفة النافع من الضار ، بوعيك صرت خلقاً آخر في الوجود ، فلا تتردد ولا تتراجع ، ولا تتقهقر إلى الوراء ، لقد دخلت عالم الرشد ، عالم التمييز ، فلا ترجع إلى عالم القهر ، إلى عالم الإكراه : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [يونس : 99/10] ، إنهم حملوا الأمانة ، أمانة التمييز ، فخرجوا من نظام القسر والإكراه : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ) [يونس : 100/10] ، وما كان لنفس أن تتزكى إلا بما ألهمها من التقوى ، وما كان لنفس أن تتدسى إلا بما ألهمها من القدرة على التخلي عن التزكية والتحول إلى التدسية ، فإن كنت في شك من ذلك ؛ فاسأل عن خبر الذين خلوا من قبلك ، ماذا حدث لهم ؟ كيف واجهوا مشكلة الخيار ، وهداية التاريخ ؟ هل انتبهوا إلى إشارات المرور ، ومنارات الطريق ، في مسيرة التاريخ ؟ هل أغلقوا أبصارهم ؟ هل اعتبروا بالتاريخ ، أم أنهم ظنوا أنه لا يحتوي على إبداع الله ، وإبداع الإنسان ؟

فإن كنت لا تزال في شك من ذلك ؛ فتذكر قراءاتي الكتاب المبين : القراءة التي ترى إبداع الله ، والقراءة التي ترى إبداع الإنسان ، وكيف أن التاريخ يكون من صنع الله ، وأنه يكون من صنع البشر أيضاً .

كنت ظننت أنني قدمت لك بياناً ورشاداً وفرقاناً وبلاغاً ، حتى لا تعود إلى الشك ، فإن كنت في شك ؛ فأعد النظر كرة أخرى ، ثم ارجع البصر ، هل ترى من التباس ؟ وعلى ضوء ذلك اقرأ مرّة أخرى قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟! وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ، قُلْ : انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ) [يونس : 10/99-103] .

الإنسان وأمانة التسخير :

على الإنسان أن يعرف رأس المال الكبير الذي وضع بين يديه حين قيل له : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) [الجاثية : 45/13] .

هذه هي الأمانة والقدرة على التسخير ، وعلى تمييز النافع من الضار ، بها سيبنى العالم ، وعلى الإنسان أن يعرف مكانه ، والأمانة الكبرى التي وضعت بين يديه ، وهي قدرته على التسخير .

عليه ألا يجهل مكانته ، وألا يتخلى عن أمانته : فلا تخونوا أمانتكم ، ولا تتخلوا عن مقاماتكم ، ولا ترجعوا إلى الوراء ، ولا تضيعوا النور ، وإذا لمحتموه مرّة فلا تدعوه يغيب عنكم .

هل يمكن أن ننظر إلى الماضي والحاضر على ضوء هذا المنهج ؟ هل لنا أن نحدد المشكلة ، ثم ننظر إلى مواقف الناس منها خلال التاريخ ، وإلى الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها موقفهم في المستقبل ؟ هل نستطيع أن نحدد من كان موقفه سليماً ، فتمكن من حل المشكلة ، ومن كان موقفه خاطئاً ، ففشل في حلّها ؟ هل كان الجميع فاشلون ؟ هل تقدم بعض الناس في حل المشكلة إلى مدى أبعد من غيرهم ، وهل تراجع بعضهم إلى الوراء ؟ ما حال العالم اليوم ، وما موقع العالم الإسلامي من هذا كله ؟

المشكلة الأولى هي قمة الملائكة : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) [البقرة : 2/30] ، إنها أفعال الفساد ، وقمة الفساد هي سفك الدماء وإخراج الناس من الديار ، فهناك التهجير والقتل ، وإنهما لا زالا مشكلة العالم المعاصر ، 45 مليون مهجر في العالم حسب الإحصاءات .

هذه هي أفعال الفساد ، ولكن ما هي العقائد والأفكار والتفسيرات التي بالأنفس ، والتي تنتج هذه الأفعال ؟

ما العلاقة بين الإيمان والعمل ، بين الفكر والسلوك ؟

ميزان الحق والباطل

هناك علاقة بين الفكر والسلوك ، والأفكار تُصحّح بعواقب السلوك ، والمشكلة كائنة في الالتباس الذي يحصل في فهم العواقب وتصحيح السلوك ، سواء آمنّا بالله أم لم نؤمن .

ينبغي أن نعرف قوانين الوجود ، سواء نسبناها إلى الله ، أم إلى الوجود نفسه . سواء اعترفنا بوجود خالق لهذا النظام أم لم نعترف بوجود خالق له ؛ فعلينا أن نتفهم هذا النظام .

إن المشكلة كامنة في الفساد وسفك الدماء ، وكل أنواع الفساد متجسّدة في سفك الدم الحرام ، ولكن بعض الناس لا يعتبرون الفساد فساداً ، بل يعتبرون سفك الدم حلالاً ، لا بل وتقرباً إلى الله من غير تمييز ، من غير ميزان ، حتى ترجع اللعنة إلى صاحبها .

إذن ، المشكلة قائمة بين تفسيرين للواقع ، هل الفساد وسفك الدماء جيد ، أم أنه غير جيد ؟ كيف نفهم إن كان جيداً أو غير جيد ؟

نعود إلى القاعدة الأولية : (هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) [الرعد : 13/16] .

هل تستوي الحسنة والسيئة ؟

الميزان هو حواسنا وأعصابنا ، ولكن ماذا نفعل إذا كانت أعصاب بعض الناس دائماً في الظل ، وأعصاب بعضهم دائماً في الحرور ؟ كيف نعرف الحق من الباطل ؟

الحق هو الأنفع والأبقى ، وكلما شمل الأنفع عدداً أكبر من الناس ؛ كان أحق من الذي يشمل عدداً أقل ، وقد يختزل الأنفع في شخص واحد ، والأهرامات مثال على ذلك ، فقد صُرفت في بنائه الجهود التي لا تحصى لأجل شخص واحد .

الفساد في الأرض وسفك الدماء !!..

من الذي يفسد ؟ من الذي يقع عليه الفساد ؟ من الذي يسفك الدم ، ودم من يسفك ؟ متى يكون سفك الدم حلالاً ، وبالحق ، ومتى يكون حراماً ، وبالباطل ؟ ثم هل يفيدنا أن نقرأ قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ [القتل والتهجير] ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة : 85/2] ؟؟

القتل والتهجير

إن بإمكاننا أن نقول : إن سفك الدماء ، والإخراج من الديار ، هما منتهى الفساد ، ودون ذلك ذنوب كثيرة صغيرة ، من الهمز واللمز وما شاكلهما .

القتل والتهجير مشكلتان قديمتان وحديثتان : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) [إبراهيم : 13/14] ، (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) [الأعراف : 88/7] .

وورقة بن نوفل قال لرسول الله r : ليتني معك إذ يخرجك قومك ، فقال r : « أو مخرجي هم ؟! » قال : نعم ، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا وعودي [1] .

والعالم الحديث مليء بالمُهَجَّرين من ديارهم ، الملايين أجبروا على هجر ديارهم خوفاً من القتل .

القتل والتهجير مذكوران في القرآن كثيراً ، والجريمتان الكبيرتان المحددتان في القرآن نصاً هما القتل والتهجير .

الذنب الذي لا يغفره الله هو الشرك ، وعقاب الله عليه يكون في الآخرة ، أما القتل والتهجير ، فهما الذنبان اللذان لا يقبل أو لا يجوز قبول مرتكبهما في المجتمع الإسلامي ، فمن وقع في هذا فلا يقبل في المجتمع الإسلامي بحسب القرآن .

ولكي نحدد مشكلة الفساد وسفك الدماء ، علينا أن نحدد متى ومن يجور له ممارسة القتل وسفك الدماء ، بحيث تكون ممارسته جائزة وبالحق ، كما ينبغي علينا أن نحدد متى ومن تكون ممارسته قتلاً محرماً وبغير حق . فكل واحد قد يدعي أنه يمارس القتل وسفك الدماء بالحق ، وهنا يحدث الالتباس ، ولا يكون الرشد قد تبين من الغي ، فيختلط الرشد بالغي ، ويختلط الطاغوت بالإيمان بالله ، وإذا اختلط الرشد بالغي ، والطاغوت بالله ، فإن الإنسان لا يعود ممسكاً بعروة وثقى ، وعندها يدعي كل واحد أنه الحق ، وأن الآخر هو الباطل .

ابن آدم واليد البيضاء

« الحلال بَيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات » [1] إلى درجة أن أمر الحلال والحرام يبدو مرتبطاً بالقوة ، فلا حرام على القوي ، ولا يحل شيء للضعيف ، فليس له أن يفكر ويفهم ، وحتى الكلام محرم عليه .

---

[1] رواه البخاري في بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله r رقم (3) ، ومسلم في الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله حاشية رقم (160) .

[1] رواه البخاري في الإيمان ، باب : من استبرأ لدينه رقم (52) ومسلم في المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، رقم (1599) .

إننا نعيش هذا الخلط ، ومن هنا يختلط الرشد بالغي ، والحق بالباطل ، والحسنة بالسيئة ، وهكذا ترتفع الرايات العمياء ، والناس حيارى ، والعلماء منقسمون بين مؤيد لأحد الطرفين ومعرض له ، والظلام يكون دامساً ، والمأساة تظهر وكأنها لا نهاية لها ، وهذه هي نظرة نيتشه للتاريخ ، إذ قال عنه : إنه باطل الأباطيل . فما المخرج من هذه الأباطيل ؟ لماذا يقع بسطاء الناس في الحيرة ؟

أشعر أنني أضيع في الغموض والظلام ، حين أحاول إضاءة الظلام ، لأن النور الذي نحمله غير مضيء .

لقد كان من آيات موسى اليد البيضاء ، فما هي اليد البيضاء ؟ هل هي لموسى فقط ، أم يمكن أن تكون اليد البيضاء لنا نحن أيضاً ؟

أظن أننا نستطيع أن نرفع يداً بيضاء ، وذلك حين لا تكون أيدينا ملطخة بالدماء ، ولا تكون ألسنتنا ملطخة بالثناء على الأيدي الملطخة بالدماء . وحين تصير قلوبنا سليمة من الدماء ، ومن حب الدماء ، وحين نكره الدماء بقلوبنا ؛ فإن أيدينا ستصير مضيئة .

إن القلب السليم الذي خرج منه القتل سيكون أبيض ، وإن يد ابن آدم يد بيضاء غير ملوثة ، فإذا اشتبهت الأيدي البيضاء بالأيدي الحمراء ، فالأحوط والأفضل أن نخرج من كل هذه الأيدي ، ولا نكون مع أحد الطرفين المتقابِلَين المتقاتِلَين .

حين يخرج من قلوبنا الفرح بالدماء ، وحين نسلم من حب الدماء ؛ تكون أيدينا بيضاء لا حمراء ، فيزول الالتباس ويتبين الرشد من الغي ، وأصحاب الأيدي البيضاء هم الذين لم ينقم منهم الآخرون إلا إيمانهم وعقائدهم وأفكارهم التي في قلوبهم ، وليس الدماء التي في أيديهم .

إن الإسلام والقرآن ، حسب ما أفهم ، لا يبيحان دماء الأيدي البيضاء ، فكل من لم يرفع سلاحاً فهو آمن أياً كان دينه واعتقاده : (فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) [النساء : 90/4] .

إذا أردت أن تدخل في حلف القرآن وأمانه ، فادخل في السلم ، وبذلك تحمي نفسك ومالك ، ودنياك ودينك . ويكون قلبك سليماً ولسانك عفاً ويدك بيضاء .

سبيل الرشد في مذهب ابن آدم

ما هو القتل الحرام ؟ هل نستطيع الآن أن نحدد ، ولو بشكل تقريبي ، معنى النفس التي حرم الله ؟ (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ) [الفرقان : 68/25] .

كيف نجعل أنفسنا من النوع الحرام ، أو المحرّم قتله ؟

انتبه وتأمل ...

إذا رأيت متقاتلين ، قد تحدث لديك شبهة فلا تستطيع تحديد النفس المحرّمة ، ولكن إذا رأيت شخصاً يُقتل ، وكان هذا الشخص مثل ابن آدم يمتنع من بسط يده ، هل تكون هناك ثمة شبهة أو التباس ، أم يكون قد تبين الرشد من الغي ؟

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » [1] ، ومن أجل هذا أدعو إلى مذهب ابن آدم ، الذي أمرنا رسول الله به حين قال : « كن كابن آدم » [2] .

إذن ، فلنبدأ الصراع بوضوح وبيان لا لبس فيه ، ولا يشتبهن عليك مذهب ابن آدم . تأمل . لا تضِع . لا تجعل الأمر ملتبساً عليك . أظهر الرشد من الغي . أوضحه فأنت الذي بيدك الإيضاح . لا تضيع النور . استمسك به ، وتذكر الإشكالية والشبهة ؛ الظلام والحيرة ، الهرج والمرج . المح بصيص المخرج ، انظر سبيل الرشد !!..

هنا بدأت ألمح مذهب ابن آدم ، موقف ابن آدم ، موقف سيد الشهداء ، الموقف الذي لا لبس فيه ، موقف من يقول : يمكنك أن تقتلني ، ولكن لا يمكنك أن تجعل مني قاتلاً !!..

---

[1] رواه الترمذي في صفة القيامة ، باب رقم (61) رقم الحديث (2520) والنَّسائي في الأشربة ، باب الحث على ترك الشبهات (327/8 و 328) وإسناده صحيح .

[2] رواه الترمذي في الفتن ، باب ما جاء أنه تكون فتنة ، رقم (2195) وأبو داود في الفتن ، باب : النهي عن السعي في الفتنة ، رقم (4257) وهو حديث صحيح .

لا تجعل أمرك ملتبساً . الزم النور . لا تدخل في الظلام . الآخر يريد أن يجرك إلى الظلام ، الآخر يريد أن يحرمك النور . لا تطعه واسجد واقترب .

من هنا ينبغي أن تعلم معنى : (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ) [النساء : 77/4] ، ومعنى : (لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) [العلق : 19/96] ، ومعنى : « لا يزال الرجل في فسحة من دينه حتى يسفك دماً حراماً » [1] .

احذر الدم الحرام ! اعرف لماذا قال الرسول r : « كن كابن آدم » ، وإذا كنت في حيرة ؛ فاخرج من الحيرة إلى ما لا حيرة فيه ، اعرف معنى قول الرسول r : « اكسر سيفك » [2] .

إنه عليه السلام لم ينطق عن الهوى ، ولم يكن مجنوناً حين قال ذلك ، فالزم الحلال البين الذي لا شبهة فيه ، إذا لم تكن فقيهاً فالزم ما لا شبهة فيه !!..

هل تبين الرشد من الغي ؟ هل التبس الرشد بالغي ؟ هل انفصل الرشد عن الغي ؟

لماذا أدعو إلى مذهب ابن آدم ؟

أنا مثلك يا أخي ! أنا لست فقيهاً ، أنا لا أشق قلوب الناس ، وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أجعل يدي بيضاء ، أن أجعل لساني ينطق بالحق الذي لا شبهة فيه : (لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) [المائدة : 28/5] .

أنا لست فقيهاً مثلك ، أنا أريد أن أمشي على شاطئ السلامة ، أنا لا أستطيع أن أخوض لجج البحار ، بحار الدماء ، أنا قادر على أن أجد الأرض الحرام التي لن أخرج منها أو عليها .

أنا أستطيع أن أحدد قدماً مربعة من الأرض الحرام ، منها أستطيع أن أنطلق إلى العالم جميعاً .

بهذه الفكرة الواضحة الراشدة ، والأرضية الصلبة أستطيع أن أضيئ ، ليزول الالتباس ، التباس الرشد بالغي .

أنا الذي يملك هذا ، ولست أنت ، إذن أنا الذي أستطيع أن أنطلق من المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها .

يمكنك أن تقتلني ، ولكن لا يمكنك أن تجعل مني قاتلاً ، ليس هذا بيدك ، هذا بيدي أنا .

يمكنك أن تلوث يدك بالدم الحرام ، ولكن لا يمكنك أن تلوث يدي ، فأنا أستطيع أن أحافظ على يدي بيضاء ، ليلها كنهارها ، لا ظلام في ليلها ، كلها نور ، وكلها ضياء .

مذهب ابن آدم والتخلص من الالتباس

إذا دخلت إلى هذا العالم لحظة ، فستشعر بالأمن والهدى والسعادة العظمى ، التاريخ يتجه إلى هذا ، الكون سيصل إلى هذا !!..

لا تضيع الرشد لحظةً ، لا تضيع اللحظة التي يمكنك أن تجعل نفسك فيها النفس التي حرم الله ، استمسك بلحظة الوضوح ، انطلق من النور ، لا من الظلام ، ولا من الغبش ، من النور الذي ليس فيه ليل : ليلها كنهارها ، احذر أن تقتل تحت راية عمية ، اعرف الراية العمياء ، اعرف الفتن التي كظلام الليل ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) [التحريم : 6/66] ، أنقذوا أنفسكم !..

إنها لحظة ابن آدم ، لحظة بلال وسُمَيَّة ، لحظة أبي ذر ، من لم يذق هذه اللحظة ، ومن لم يلتزم بها ، لا يمكن أن يكون جندياً لله .

تذكر ما قلته لك من أنك قد تقع في الاشتباه ، فيشتبه عليك الرشد بالغي ، إذا رأيت رجلين يتقاتلان ، وتذكر ما قيل من أن الحق لو جاء غير ملتبس بشيء من الباطل لما حدثت شبهة ، ولو أن الباطل جاء غير ملتبس بشيء من الحق لما حدثت الشبهة ، ولما

---

[1] رواه البخاري في الديان في مقدمته الحديث رقم (6469) .

[2] رواه الترمذي في الفتن ، باب رقم (33) رقم الحديث (2205) وأبو داود في الفتن باب النهي عن السعي في الفتنة ، رقم (4259) وهو حديث صحيح .

حصل الالتباس والحيرة ، ولكن حين يأتي الباطل ملتبساً بالحق ، والحق ملتبساً بالباطل ، هنا تحدث الحيرة والظلام والالتباس ، وتتعقد المشكلة حتى يصير الحليم حيراناً .

تذكر قول الرسول r : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » [1] .

تشابهت قلوبهما ، تلوثت أيديهما .

المسلمون يتناسون هذا الحديث ، بل لا قدرة لهم على تحليل الموقف ، ويريدون الخروج من الالتباس ، ولكن بالتباس آخر ، يقولون : الله أمر بقتال الباغي : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى ؛ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات : 9/49] .

أرجو أن تتابع ، أيها القارئ الكريم ، الموضوع والإشكالية بيقظة وانتباه ، خشية التلوث ، خشية الدخول في الظلام .

نعم هذه آية تأمر بقتال الباغي ، وليس الراشد ، هنا أريدك أن تستخدم ذكاءك وذاكرتك ..

قلت لك سابقاً ، إذا كنت تذكر ، وإلا فتذكر ، تذكر أنني قلت لك : إن المسلمين قد فقدوا الرشد منذ زمن بعيد ، وكونهم فقدوه من زمن بعيد جداً ، لا يجعل الغي والبغي رشداً وهداية ، فلا يلتبس عليك الأمر ، حتى لا تتلوث ، وحتى لا يستخدمك أهل الأهواء في أهوائهم .

قد يقولون لك : إنهم راشدون ، ولكن تذكر أن الذي يأتي بالعنف والإكراه ليس راشداً ، لا تخذع ، إن الرشد لا يضيع بالغي ، فإذا كان غي يقاتل غياً ، وإذا التقى سيفان ملوثان وقلبان سليمين ؛ فلا يحملنك الحب الأعمى ، أو الكراهية العمياء ، على أن تجعل من غيك رشداً ، ومن بغيك حقاً .

إن طريق صنع الرشد هو الطريق الذي سلكه بلال ، والذي أمر بسلوكه الرسول r ، أما إذا التقى الباغيان و لم يرد أحد منهما أن يسلك طريق الرشد ، وأرادوا منك أن تكون وقوداً وبندقية فاقدة الفهم ، لا تميز الرشد من الغي ، فلا تتحول إلى بندقية ، فأنت لست بندقية .

لا يشتبه عليك الغي بالرشد ، وإلا صرت تحت راية عمياء لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر منكراً .

أنقذ نفسك من البغاة ، فمنذ أن فقد المسلمون الرشد لم يأتهم إلا البغاة . باغ يقاتل باغياً وليس في قلب أحد منهم رشد ، ويتخذونك وقوداً ومطية لبغيهم وتسلطهم .

تذكر وصية الرسول r : « لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض » [1] ، من تمكن من الآخر ضرب عنقه .

المسلمون ومحاولة صنع الرشد بالغي

يا أيها المسلم ! آن لك أن تقف لحظة وتتفكر وتتذكر ، كم كرر القرآن قوله : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ، (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ، (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ) ، (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) ؟؟!!

إن طول المد يجعل القلوب قاسية ، لكن طول عيش الباطل لا يجعله حقاً ، إن فقدان قلبك لتألقه ، وكونك لم تسمع بهذا الذي ألح عليه إلا قليلاً ، أو لم تسمع به مطلقاً ؛ لا يسوِّغ لك ، ألا تأخذه مأخذ الجد ، ولكن تذكر أو تأمل ، إن كان لك قدرة على التأمل ، تجد أن كل المصائب المحيرة ، التي تصيب العالم الإسلامي ، وتتكرر باستمرار ، ناشئة من كوننا نريد أن نصنع الرشد بالغي ،

---

[1] رواه البخاري في الإيمان ، باب ((وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا ..)) الحديث رقم (31) ، ومسلم في الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، رقم (2888) .

[1] رواه البخاري في الإيمان ، باب : الإنصات للعلماء ، الحديث رقم (121) ، ومسلم في الإيمان ، باب : بيان معنى قول النبي r « لا ترجعوا بعدي كفاراً » الحديث رقم (65) .

نريد أن نصنع الرشد بالخروج من الدين ، وإلا لما سُمِّي الخوارج خوارج ، ولما أعطانا الله وصفهم ، وأنهم يمرقون من الدين مع أنهم كثيرو الصلاة والصيام .

هل خطر لك مرّة أننا جميعاً صرنا على مذهب الخوارج في فهم الإسلام ؟ وأننا لم نعد نمانع صنع الرشد بالخروج ، وصنع الحق بالباطل .

طريق الحق طريق ابن آدم والأنبياء

إن طريق الحق الذي لا لبس فيه ، انطلق في الطريق الذي لا لبس فيه ، في طريق ابن آدم الذي لم يلوث يده .

والبناء الذي تبنيه اليد البيضاء هو البناء الصحيح ، ورسول الله r بنى الأمة الإسلامية وأسسها على اليد البيضاء ، من غير أن يقتل شخصاً واحداً خلال أكثر من نصف حياة الرسالة ، ولكن ما أكثر ما ننسى هذا الكفاح المجيد النقي الواضح المتلألئ صفاءً وضياءً !، قلباً وجوانب ، لا ترى فيه خدشاً أو فطوراً ، ارجع البصر كرتين وثلاثاً وأربعاً ، ولن تجد غير اليد البيضاء ، التي ليلها كنهارها ، ليس فيها دم شخص واحد .

أين ذهبت أسوة الرسول r ؟ كيف تلوث الصفاء والنقاء ؟ كيف ضيعنا أقدس شيء في الناموس ؟ كيف صارت رؤية سبيل الرشد صعبة ، فضلاً عن سلوكه ؟

تذكر مرّة أخرى وصف الله تعالى للأقوام حين قال : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : 146/7] .

لا أدري ، ولكن مهما كانت الرؤية واضحة أو ضئيلة أو مغبشة ، فإن بإمكاننا أن نقول : هناك رؤية ما ، ولكن الاتخاذ أصعب من الرؤية ، الالتزام صعب حتى بعد الرؤية الواضحة ، بل قد يراه بعض الناس غير قابل للتحقيق وبعيد المنال : (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ) [البقرة : 45/2] ، والقرآن يقص علينا قصص هؤلاء الخاشعين : (وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) [هود : 120/11] .

إن التواصي بالحق ، الذي جاء في قوله تعالى : (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [العصر : 3/103] ، يكون بتحقيق الرؤية ، ولكن التواصي بالصبر ، هو التواصي بالصبر على اتخاذ وسلوك سبيل الرشد .

إننا بعيدون عن إعادة الرشد ، أو سلوك طريقه ، أو اتخاذ سبيله ، لقد هجرنا هذا الطريق ، ويئسنا منه : (وَقَالَ الرَّسُولُ : يَا رَبِّ ! إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [الفرقان : 30/25] .

سبيل الرشد وسبيل الديمقراطية :

تأمل قوله : (اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) مع قوله : (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) !!..

كما نحن بعيدون عن الرشد الإسلامي ، كذلك بعيدون عن الديمقراطية التي أنتجها اتجاه التاريخ نحو الأفضل ، أنتجها الكفاح البشري كبذرة يمكن أن تلقي ضوءاً ، مهما كان هذا الضوء ساطعاً أو خافتاً ، على طريق التاريخ المتجه إلى الرشد رغماً عن كل الذين يريدون إيقاف التاريخ أو منعه من التقدم إلى الأفضل .

لا بد من تحليل الأمور ، نقطة نقطة ، لا بد من دراسة السبب الذي يجعل المسلمين لا يسلكون سبيل الرشد ، أو سبيل الديمقراطية .

كيف هجرنا الرشد ؟ كيف صرنا غير قادرين على اتخاذ سبيل الديمقراطية سبيلاً ؟

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) ، نحن نرى ، وأمام أعيننا ، عالماً كبيراً يصنع الديمقراطية والرشد ، الذي ابتعدنا عنه حتى لم نعد نحلم به ، أليس فينا رجل رشيد ، يحل مشكلاتنا ، ويضيء الظلام الذي نعيش فيه ؟! هل هذا مستحيل ، أم إننا لم نرشد بعد حتى فكرياً ؟

لقد رأينا واقعاً ، ولكننا لم نر قانوناً وسنة ، لم نر آلية الحدث ، لم نستخلص من الواقع سنته وقانونه .

لماذا نبذل أنفسنا في سبيل الغي ؟ لماذا لا قدرة لنا على اتخاذ سبيل الرشد ، وبدلاً من ذلك نبذلها في سبيل الغي والغي ؟!

لماذا يصعب علينا ، إلى هذه الدرجة ، سلوك سبيل الرشد أو سبيل الديمقراطية ؟ لماذا لا قدرة لنا على سلوكهما ؟ ما هي العوامل التي تلوي أعناقنا ؟ ما هي الجراثيم الفكرية التي تتلف أعصابنا ، وتفقدنا إحساسنا وإدراكنا ، وتسد آفاق الفهم أمامنا ؟

مشكلتنا ذات طبيعة مختلفة ، لماذا كلا الاتجاهين ، السلفي والتقدمي الحداثوي ؛ لا قدرة لهما على إعادة النظر في معنى الرشد بالنسبة للسَّلفي ، وفي معنى الديمقراطية بالنسبة للتقدمي الحداثوي ؟ هل هما مصابان بمرض واحد ، وعقيدة واحد تتحكم فيهما ؟ ما هذا الفكر الذي يحكمهما معاً ، رغم اختلافهما ؟

إنهما مختلفان جداً ، والحوار مقطوع بينهما ، والمنابذة قائمة غير قاعدة ، ولكنهما ، مع ذلك ، متفقان جداً ، في أنهما لا يجدان إلى الرشد سبيلاً ولا إلى الديمقراطية طريقاً .

لا بد أن نكشف ما يتفقان عليه ، وما يختلفان فيه ، حتى ينتفي الالتباس والاشتباه والغموض والحيرة .

موقف ابن آدم موقف لا لبس فيه

هل لي أن أتكلم في هذا ؟ هل لنا أن ننطق بما لم ينطق به أحد قبلنا ؟ هل أستطيع أن أكشف هذا الشيء المخفي خلال القرون والعصور ؟

نعم ، إنه موجود في الأرض ، في الأنفس ، ليس فوق السماء ولا تحت الأرض ، إنه موجود بيننا ، لكن أعيننا لا تبصره ، هل نطمع في أن نبصره ؟ نعم أنا أطمع في إبصاره ، وأجد بصيصاً من الضوء ، لأنني لمست موقفاً صغيراً خارج اللعبة ، رأيت قلباً سليماً ، ويداً بيضاء لاشية فيها ، إنه موقف ابن آدم ، الموقف الذي لا لبس فيه ولا غموض .

لن أبسط يدي ، سأبقيها نظيفة بيضاء ، أما أنت فلوثها إن شئت ، فإن فعلت ، فإنك تبوء بإثمي وإثمك ، إن لوثت يدك فلن ألوث يدي ، وإني لقادر على أن أحرمك راحة النفس بعدم دفاعي عن نفسي ، وسأكشف حقيقتك دون لبس ، وستضطر أن تتراجع ولو بعد قتلي ، سأخرج يدي بيضاء ناصعة من هذه اللعبة ، بدون لبس أو غموض ، لن ألوث قلبي ، ولا يدي ، فقلبي سليم ، ويدي بيضاء .

إن أفكاري أيضاً غير ملوثة ، لا أقف مواقف التهم ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يقفن مواقف التهم .

أريد أن أنظف قلبي ولساني ويدي ، وليس هذا فحسب ، بل إنني أريد أن أجعل الأرض التي أقف عليها نظيفة ، وأريد أن أجعل الجو الذي يحيط بنا نظيفاً ورائعاً ومتألقاً ، إنني أريد النظافة الكاملة ، النظافة التي لا يتسرب إليها أي جرثوم .

قديماً قالوا : الحق أبلج والباطل لجلج ، ونحن نريد أن نكون نوراً على نور .

أريد أن أسأل : متى يلجأ الإنسان إلى العنف والقتل ؟

إنه يلجأ إلى العنف حين لا يجد طريقاً آخر للحل ، والعنف هو الحل الوحيد أمام الفاشل في الطرق الأخرى كلها ، فإن من يجد طريقاً للوصول إلى ما يريد بغير العنف والقتل ، لا يلجأ إلى ذلك : (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) [الأحزاب : 25/33] .

مراتب العمل

إن الذي يلجأ إلى القتل والقتال ، هو الذي لا يجد حلاً سواهما ، وابن آدم الذي يلجأ إلى القتل هو الذي فشل في عمله ، و لم يتقبّل منه قربانه ، ولا يتقبل العمل إلا إذا كان خالصاً وصائباً ، قد يكون خالصاً ، ونابعاً من نية طيبة ، ولكنه خاطئ ، وقد يكون صحيحاً ومفتقداً للإخلاص ، وقد لا يكون صائباً ولا خالصاً ، وهذا أبعدهم عن النجاح .

إذن ، للعمل أربع حالات :

1- عمل خالص صائب ، وهو الناجح المقبول .

2- عمل خالص غير صائب ، وهو عمل فاشل .

3- عمل غير خالص ولكنه صائب ، وهو عمل فاشل أيضاً .

4- عمل غير خالص وغير صائب ، وهو عمل مغرق في الفشل .

لقد ألفت في هذا الموضوع كتاباً كاملاً بعنوان : (العمل قدرة وإرادة) ، وضربت فيه أمثلة تقرب الموضوع من الفهم ، ومن ذلك :

1- الأم التي تكون عادة مخلصة جداً لابنها ، ولكنها بجهلها بوسائل الصحة والتربية قد تشوه الطفل ، إن لم تقضِ عليه كلياً ، وهذا مثال على الحالة الثانية : إخلاص بدون صواب .

2- ومثال الحالة الثالثة : الصواب بدون إخلاص ، الطبيب الذي يعرف دواء المرض ، ولكنه لا يريد شفاء المريض ، فينصحه بغير ما يؤدي إلى الشفاء .

المشكلة الإسلامية والتحدي الفكري

المشكلة الإسلامية بشقيها : السلفي والقومي ؛ هي حسب ما أرى من النوع الثاني ، فنحن لا نتهمهم في إخلاصهم ، ولكننا نشك كل الشك في فهمهم ، وفي الطرائق التي يريدون أن يحلوا بها المشكلات .

أنا لا أتهم أحداً منهم بعدم الإخلاص ، فهم في نظري جميعاً مخلصون لأمتهم ، ويريدون لها النجاح ، ولكنني أتهمهم كل الاتهام في أفكارهم ، وأنكر أساليبهم ، وأعترض على النظر الذي ينظر به بعضهم إلى بعضهم الآخر .

إنهم جميعاً لا يشعرون أنّ بإمكانهم أن ينجحوا في المعركة الفكرية ، فهذا قاسم مشترك وراسخ بينهم ، وما لم نتمكن من فهم هذه النقطة فلا يمكن لنا أن نفهم المشكلة ، ولا أن نحلها ، لا بد من التأكد من ذلك ، وإلا فلماذا لا يقبلون الدخول إلى التحدي الفكري ؟

لا يقبلون التحدي الفكري ؛ لأنهم لا يثقون بأن أفكارهم تنجح في المواجهة الفكرية ، ويشعرون أن الناس سوف لن يقبلوا أفكارهم ، هذه الهزيمة الفكرية هي مرض كلا الطرفين ، فكلاهما لا يثق بأفكاره ، حتى حين يثقون بأفكارهم ؛ فإنهم لا يثقون بالناس ، ويشعرون بأن الناس إن امتلكوا الحرية في اختيار المبدأ والدين ، فإنهم لن يختاروا دينهم ومبدأهم .

لقد فقدوا الثقة ، إما بالأفكار وإما بالناس وإما بهما جميعاً ، وإلا فلماذا يرفض الأطراف جميعاً الدخول في المعركة الفكرية ؟ لماذا يخافون من الساحة الفكرية ، ويلجؤون إلى الساحة الجسدية ؟ لماذا يمارسون الإكراه في الدين ؟

إنهم جميعاً منهزمون فكرياً ، ولا يطمئنون إلى الناس ، ولا يشعرون أنه إذا خلي بين الناس وبين الأفكار فسيختارون أفكارهم .

المشكلة إذن ، هي الهزيمة الفكرية ، وهي القاسم المشترك الأعظم للأطراف جميعاً ، والمهزوم فكرياً يلجأ إلى المعركة الجسدية .

فَلْنُثْبِتْ أولاً أننا واثقون من أفكارنا ، واثقون من نجاحها ، وأن النهاية ستكون لها .

علينا أن نصبر في المعركة الفكرية ، لأن تركها واللجوء إلى المعركة الجسدية دليل على الهزيمة الفكرية ، فلا بد من التطهير النفسي عند هذه النقطة .

إنهم يشبهون الطبيب الذي لا دواء عنده للمرض إلا قتل المريض لا معافاته ، فبئس الطبيب هو !!

إننا نزعم أننا أطباء ماهرون لأمراض المجتمع الفكرية ، ثم إن أسلوبنا في العلاج يكون بقتل المريض واغتياله ، لا بإزالة المرض عنه .

الحق والباطل في القرآن وفي تصوراتنا

يمكننا أن نصوغ العلة الأساسية الأولية في الفكرة التالية : « إن الحق والباطل ، إن أعطيا فرصاً متكافئة ، فسينجح الباطل وينهزم الحق » .

تأمل جيداً هذه الفكرة ، إنها مهمة جداً جداً ، إنها تصوّر الحق ضعيفاً منهزماً ، لا ينجح أمام الباطل مع تكافؤ الفرص ، بل ينهزم ويزهق ويفر من الميدان بحيث لا يبدئ ولا يعيد .

هل علاقة الحق بالباطل على هذه الشاكلة ؟ هل الحق ضعيف أمام الباطل إلى هذه الدرجة ؟ هل تؤيد قوانين التاريخ الأرضي السنني هذه الفكرة ؟ هل هي مؤيدة بكلمات القرآن ؟ هل الحق في القرآن ضعيف ومهمّش إلى هذه الدرجة ؟ هل يمكن أن نقرأ القرآن على هذه الشاكلة : « وقل جاء الباطل وزهق الحق ، إن الحق كان زهوقاً » ؟؟ هل يمكن أن نقرأ أيضاً : « وقل جاء الباطل ، وما يبدئ الحق وما يعيد » ؟؟

الأمر يا صاحبي ليس هكذا ، لكنه : (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) [الأنبياء : 18/21] ، (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [الإسراء : 81/17] ، (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ ، قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [سبأ : 48/34-49] .

لقد وعد القرآن رسله بالنصر فقال : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ) [غافر : 51/40] .

ولكن ما قصة الحق في العالم ؟ ما القانون الذي يحكم التاريخ ؟

يمكننا أن نقول : إن القرآن يصرُّ على غلبة الحق ، مع أن الواقع الأرضي تعيس ، ومع أن رؤية انتصار الحق فيه أشد خفاءً ، وهذا ما يجعلنا نظن أن الحق هو المنهزم خلال التاريخ ، ويجعل النظرة العجلى متشائمة ومثقلة بالإحباط ، وهذا ما جعل نيتشه لا يرى في التاريخ إلا عداوات دنيئة ، ومفاهيم منحطة تفرض بالإكراه لأحقر الغايات وأغرق الأكاذيب ، وهذا الذي جعل توينبي يتشكك في إمكانية نجاة الحضارات أمام التحديات الروحية التي تواجهها ، ولكنني أنظر إلى التاريخ بغير هذا النظر المحدود بأزمنة قصيرة ومنقطعة ومشتتة ومبعثرة .

إن عمرنا قصير ، ولا يمكن أن نرى خلاله النمو التاريخي ، ولكن التاريخ يقدم لنا مسيرة البشرية كلها ، ويرينا أن الناس الذين كانوا يأكلون لحوم البشر ويقدمون القرابين البشرية ؛ قد تقدموا فكرياً ، بل إن الفرق كبير والتقدم والتطور عظيم ، و لم يعد الناس يقتلون الإنسان لأجل أفكاره .

ألا لا يختلط الأمر عليك ، فمحاكمة إنسان ، والحكم عليه بالإعدام لأجل أفكاره ، لم يعد مقبولاً في العالم ، اللهم إلا في العالم الإسلامي ، فهم لا يزالون مستعدين لشن حروب من هذا القبيل ، ولكنهم ينكرون علناً محاكمة الإنسان وقتله من أجل أفكاره ، وإن كانوا يرضون به سراً ، وفي قلوبهم .

سيتعلم الناس من التاريخ ، والتاريخ يعلمهم بأسلوبه الخاص ، وبالثمن الذي يطالبهم به عن عدم الاستفادة منه .

ينبغي أَلا نترك الموضوع ، موضوع الهزيمة الفكرية ، وظن أن الحق والباطل إذا أعطيا فرصاً متكافئة فسيهزم الحق ، هذا الظن ظن سيء بالله والحق والإنسان ، وتصور الوجود بهذا الشكل هو من أخطر الأفكار التي تنشر الفساد في الأرض وسفك الدماء ، وهو الهزيمة الأولى والكبرى ، ومصدر كل الشرور والالتباسات ، والعلاقة بين العنف والفكر علاقة عكسية ، فكلما زاد الفكر وتنور ، كلما شعر الإنسان بعد جدوى العنف ، وآمن بضرورة استبعاده ، وكلما كان الإنسان يائساً من أفكاره ، وشاعراً بأنها لن تقبل إذا خلي بين الناس وبين الأفكار ، وأعطيت لهم حرية الاختيار ، كلما زاد إيمانه بضرورة استخدام القوة الجسمية والعنف .

إنهم يائسون من إمكان نجاح أفكارهم بدون قوة ، ويرون أن الحق بدون قوة هو مجرد خرافة .

النبي r والقوة الفكرية

أيها القارئ الكريم ! راجع ذاتك وتصوراتك ومفاهيمك حول هذا الموضوع ، وإن كنت تظن أن أفكار الكفر ستتغلب على أفكار الإيمان ؛ فاعلم أن أفكارك ستهزم ، وإن ترافقت مع القوة ، وأن الفكر الذي لا يستطيع أن ينتصر دون قوة فكر فاشل وقميء

ولن يعيش ، والفكر القوي سينتصر دون قوة ، وإلا فلماذا منع الرسول r أصحابه من أن يستخدموا أي قوة غير القوة الفكرية ، إلى أوصلوا إلى صنع المجتمع والحكم ، دون أن يستخدموا القوة الجسدية .

ألا ما أوضح هذا وما أشد خفاءه !! من هنا نعلم كيف مسخنا الإسلام وشوهنا حقيقته .

لقد أثبت الرسول r ، وبكل المعايير ، أن الحق وحده من غير قوة ، يستطيع أن يثبت ذاته ، ويوجد كيانه ، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن المجتمع الرشاد يصنع بطريق الرشد الذي لا إكراه فيه ، وأثبت أيضاً ، وبما لا يدع مجالاً للشك ، أن الحكم يصنع دون استخدام للعنف قليله وكثيره ، بل لقد صنع المجتمع الراشد والحكم الراشد باليد البيضاء التي فاقت في الضياء والنور يد موسى عليه السلام ، فلم يقتل رجلاً واحداً من المشركين خلال هذا الزمن كله ، ولم يقم أحد من المسلمين بقتل أحد من المشركين ، لا عمداً ولا خطأ ، ولم يدافع أحد من المعذبين ، الذين مورست عليهم صنوف التعذيب المؤدي إلى الموت ، ولم يغتالوا ، رغم ذلك ، احداً من المشركين خلال السنين الطويلة .

بعض الناس يظنون أن ذلك كان عائداً لضعفهم ، لكن الناس في الجاهلية كانوا يقاتلون ويقتلون دون النظر إلى ضعف وقوة ، ولم يفعل الرسول r وصحابته ذلك إلا للتفريق بين طريق الرشد والغي ، ولإثبات أن المعركة الفكرية لا يجوز استخدام القوة فيها .

إن المعركة الفكرية تقتصر على الوسائل الفكرية ، ولكن المسلمين ضيعوا هذا التاريخ النظيف ، ولا زال مسلمو زماننا منهزمون ، والسبب هو أنهم يحملون أفكاراً عرجاء لا تستطيع أن تصمد في الصراع الفكري ، فإن كنتم ، يا مسلمون ، تثقون بأفكاركم ، فلماذا لا تسلكون السبيل الذي سلكه رسول الله ، من منع العنف ، ومنع استخدام القوة ، حتى صنع المجتمع الراشد والحكم الراشد بالفكر الأبيض واليد البيضاء .

إن كنتم لا تفهمون هذا ، فستضطرون إلى فهمه في المستقبل ، وستقبلونه رغماً عنكم ، ولكن بعد أن تدفعوا أثماناً باهظة ، والحكم الذي ستصنعونه بالعنف لن يكون حكماً راشداً ، بل سيرجع عليكم بالعنف فيما بينكم ، ومن لا يعتبر بالتاريخ الماضي ، فإن التاريخ القادم سيحمل إليه ما يضطره للقبول به .

إنكم لا تستطيعون أن تروا سبيل الرشد ، ولا تستطيعون أن تتخذوه سبيلاً حتى بعد رؤيته ، إنكم بعيدون مرتين عن طريق الرشد وسبيل الرشد ، إنكم إذا رأيتم سبيل الغي تتخذونه سبيلاً ، لأنكم لم تروا أن الحق يمكن أن ينتصر دون قوة ، إنكم ترون انتصار الحق دون قوة مستحيلاً ، لكن هذا الذي ترونه مستحيلاً ، هو الذي نجح فيه المسلمون الذين قادهم الرسول r ، والمسلمون الآن لا يمكنهم أن يقبلوا هذا ، لأنهم فقدوا الثقة بالأفكار ، وبفقدهم الثقة بالأفكار ، فقدوا ، بل وتخلوا عن الأمانة ، لأن الإيمان لا يصنع بالقوة ، و (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) لا تأتي عن طريق الإكراه .

التباس الرشد بالغي

ينبغي ألاّ نضيع تسلسل الأفكار ، ينبغي ألا نفقد اليد البيضاء ، ينبغي ألا نفقد الفكر الأبيض ، ينبغي ألاّ نلوث الفكر ، وألاّ نلوث اليد ، ينبغي ألا نلوث الإيمان ، ولكن كيف يكون تلويث الإيمان ؟

لا تنس أن ما تطلق عليه اسم الإيمان وتظن أنه غير قابل للتلوث ، هو في الحقيقة قابل للتلوث .

إن الإيمان ، كما قلنا سابقاً ، ذو طبيعة مزدوجة ، وأنه كما يمكن أن يكون بالحق ، كذلك يمكن أن يكون بالباطل ، فالذي يؤمن بالحق مؤمن بالحق ، والذي يؤمن بالباطل مؤمن بالباطل ، وقد يختلط الحق بالباطل ، وقد يلتبس الإيمان بالكفر ، ولهذا تأمل جيداً قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام : 82/6] .

كيف التبس إيماننا بالظلم ؟ كيف التبس الحق بالباطل ؟ كيف فقدنا الأمن ، وكيف فقدنا الأمانة التي حملها الإنسان ؟ كيف تلوثنا ؟ كيف أجزنا الغدر ؟

ينبغي أن نضع حداً فاصلاً بين الحق الذي يُصنع بالقوة ، وبين الحق الذي يَصنع القوة .

علينا أن نكثر من العبارات ، علينا أن نفرق بين الدين الذي يجيز صنع المجتمع وصنع الحكم بالقوة والعنف والغدر ، وبين الدين الذي يحّرم صنع المجتمع بالقوة العنيفة ، ويحّرم صنع الحكم بالاغتيال والغدر والعنف ، يا قوم ! الدين لا يكون بالإكراه ، والمجتمع المكرَه والمقهور أسير من يملك القوة وليس مع الذي يملك الحق .

عند هذه النقطة يحدث الالتباس ، ويحصل الزيغ ، وتزيغ الأبصار ، وتلوى الأعناق ، ويحدث الاشتباه وتتكاثر الشبهات ، وتختلط شريعة الغاب بشريعة الله ، وتختلط شريعة الطاغوت بشريعة الله ، ويحصل الالتباس بين الإيمان بالله والإيمان بالطاغوت .

تذكر قوله تعالى : (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) [البقرة : 256/2] .

غير أن الرشد التبس بالغي عندنا ، وما لم يحصل الفرقان في هذه النقطة ، وما لم يتبين الفاصل بين الرشد والغي ، والجاهلية والإسلام ، وشريعة الغاب وشريعة الإنسان وشريعة العدل ، فإن كل سعينا باطل ، وكل جهدنا لا قيمة له ، وكل بنائنا يكون مبنياً على شفا جرف هار ، ولا يكون بنياناً مؤسساً على تقوى وإيمان وإسلام ، فإذا حصل التمييز والتفريق بوضوح عند هذه النقطة ، فكل الذي يأتي بعد ذلك يكون مفصولاً ومميزاً ، فلا نتجادل ، ولا نتفائل ، ويكون سعينا في النور لا في الظلام ، والحق أن هذا الكتاب الذي أكتبه ، وما سيكتبه أي إنسان معي أو بعدي ، لا قيمة له إن لم يحصل هذا التمييز .

اللهم اجعل لنا فرقاناً ، وأخرجنا من الظلمات ، واهدنا إلى سبيل الرشاد .

الوضوح والنقاء في مذهب ابن آدم :

كنت قد وضعت لك قاعدة مهمة ، وشعرت أنها أرض نقية لا يدخلها الشك والريب ، ولا يحصل فيها اللبس والاشتباه ، وهو موقف ابن آدم ، وكنت قلت لك : إذا لم تكن فقيهاً ، إذا لم تكن معك بوصلة ، فإنني أدلك على شيء لا يحتاج إلى بحث عميق ، وهو أن تكون مثل ابن آدم ، فابن آدم لا شك فيه ، ولا لبس ، ولا غموض ، فقد استطاع أن يخرج من :

1- القتل الذي هو واضح الحرمة .

2- القتل الذي يمكن أن تكون فيه شبهة دفاع عن النفس .

3- ثم إنه تمسك بموقف لا لبس فيه ، حين أخرج من نفسه فكرة القتل كلياً ، ووقف الموقف الذي قصه الله تعالى علينا : (لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) [المائدة : 28/5] ، وقال الرسول r : « كن كابن آدم » [1] ، وقال : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله » [2] ، سيد الشهداء هو الرجل الذي قُتل لأجل نصحه ، لا لأنه كان يريد أن يَقتُلَ .

فكر للحظة في معنى أن يتخذ الإنسان الموقف الأحوط في أشد المحرمات التي تأتي في الحرمة مع الشرك باله ، وقتل النفس التي حرم الله هو الذنب الذي لا يُغتفر .

ذُكر عن رابعة العدوية أنه قيل لها : إن فلاناً لديه مئة دليل على وجود الله ، فقالت : لو لم يكن له مئة شك لما احتاج إلى مئة دليل .

ما موقفنا من هذا الكلام ؟

كأنني بحاجة إلى أن أقنع نفسي لا أن أقنع الناس !!..

ذكرت سابقاً ، وأذكر الآن أن علينا أن نبدأ من نقطة لا خلاف عليها ، من نقطة لم يختلط فيها الرشد بالغي ، فالذي يُقتل وليس في قلبه حرص على قتل الآخر ، هو صاحب الموقف الذي لا شبهة فيه .

---

[1] رواه الترمذي في الفتن ، باب : ما جاء أنه ستكون فتنة ، رقم (2195) وأبو داود في الفتن ، باب النهي عن السعي في الفتنة ، رقم (4257) وهو حديث صحيح .

[2] رواه الحاكم (195/3) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (268/9) رواه الطبراني في الأوسط وفيه ضعيف .

فأولاً وقبل كل شيء (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ) [النساء : 77/4] ، و (لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) [العلق : 19/96] ، و « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » [1] ، (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) [الأنعام : 34/6] ، (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : .. وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ) [إبراهيم : 11/14-12] .

هذا من جانب الصبر على الأذِيَّة وتقبلها ، وعدم اللجوء إلى ردّ الأذية بالأذية ، وهذا هو منهج الأنبياء الأَوَّلين ، وهو منهج النبوة الخاتمة ، مَهمَا رأى الراؤون أنَّه مثالي أو خرافي وغير قابل للتطبيق ، إنه منهج الأنبياء من البدء وإلى المنتهى .

اشهدوا فإنني على هذا الفهم ، وعلى هذا الالتزام : (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) [الفتح : 26/48] .

إن أعظم من نفذ هذا الأسلوب بوضوح وجلاء لا خدش فيه ولا التباس خلال ثلاث عشرة سنة هو الرسول **r** .

بهذا الموقف منه **r** ، ومن أصحابه الذين التزموه بدقة متناهية ، تركوا لنا محجة بيضاء ليلها كنهارها ، وبينوا لنا الرشد الذي ليس فيه أدنى درجة من الغي .

إنهم قدوة العالم جميعاً في الوضوح والنقاء خلال التاريخ كله ، وسيظلون شعلة للبشرية في المستقبل كله ، في أن معركة الأفكار لا يستخدم فيها سلاح غير سلاح الفكر ، وأن سلاح الفكر ينجح نجاحاً مبيناً ، وقد أثبتت ذلك التجربة ، وقدمت رحمة وهدى ونوراً ساطعاً للعالمين ، لا يمكن لأحد أن يطفئه ، وسيظهر هذا النور مهما عمل الذين يريدون أن يطفئوه أو ينسخوه ، لأنه ثبت فريداً عجيباً في تاريخ العالم يهدي إلى الرشد ، ولذلك آمنا به ، ومهما حاول الأصدقاء أو الأعداء ، من مؤمنين وكافرين ، فلن يستطيعوا إخفاء هذه السابقة التاريخية المتكاملة : (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [الصف : 8/61] ، ولو كره الكارهون ، وجهل الجاهلون .

الأنبياء والصبر على الأذى

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فكما هذا الأسلوب والموقف المثالي الواقعي في التغيير بقي متألقاً كالشمس والقمر ، كذلك سجل القرآن هذا الموقف من قبل جميع الأنبياء جميعاً من مطلع البشرية إلى ختام النبوة .

لقد صبروا جميعاً على الأذى والقتل وعدم الدفاع عن النفس ، وهذا ما ثبت بالقرآن الكريم وبالتطبيق العملي ، و لم يسجل القرآن هذا الأمر فحسب ، بل سجل شيئاً آخر غير عدم الرد على العدوان ، سجل الشيء الذي اعتدى عليهم من أجله ، حدد الذنب الذي اقترفوه ، وحرص على أن يوضح أن ذنبهم كان محدداً وواضحاً ، ولا لبس فيه فقال : (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ، قُتِلَ أَصْحَابُ الأخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [البروج : 85/1-8] ، وحين آمن سحرة فرعون بموسى ، وهددهم فرعون بالقطع والصلب قالوا : (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) [الأعراف : 7/125-126] ، وفي الحوار مع أهل الكتاب يعلمنا الله تعالى أن نسألهم عن الشيء المحدد الذي ينقمون منا ، وذلك حين يقول : (قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ : هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ؟) [المائدة : 5/59] .

يظهر في هذا كله الاهتمام بتحديد موطن النزاع والنقمة ، وهذا أمر جوهري ، حتى إن فطرة الإنسان وطبيعته تدعوه ، إذا رأى إنسانين متنازعين ، أن يسأل عن الشيء الذي يتنازعان عليه ، قبل أن يصدر أي حكم بينهما ، اللهم إلا أن يكون إنساناً جاهلياً ، لا يسأل عن سبب النزاع ، بل ينضم إلى عشيرته دون نظر إلى الأسباب والنتائج ، وهذا هو ما أنكره الشرع الإسلامي ، والشرائع

---

[1] رواه الحاكم في مستدركه (383/3) ومن طريق آخر عزاه في كنز العمال في الحديث (37366) إلى الحارث والبغوي في مسند عثمان وابن منده وأبي نعيم وابن عساكر .

البشرية التي تتعامل بمقاييس الحضارة والتقدم ، وهي تتجه إلى العدل وعدم محاباة الإنسان القريب لأجل قرابته من دون النظر إلى كونه ظالماً أو مظلوماً .

الإسلام جاء ليلغي هذا المفهوم الجاهلي ، بأسلوب تربوي ملفت للنظر ، وذلك حين اتجه إلى ترسيخ مفهوم تبين سبب النزاع ، وحين دعا إلى عدم نصرة الظالم وإن كان قريباً ، أياً كانت القرابة ؛ فكرية أم عرقية أم جغرافية أم وطنية أم مجرد نزاع وعداوة : (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا) [المائدة : 2/5] ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ! كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) [المائدة : 8/5] ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ! كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) [النساء : 135/4] .

الإسلام وإلغاء النصرة الجاهلية

لقد جاء الأسلوب التربوي النبوي على صورة إشكالية لتحديد الولاء والمناصرة بأسلوب أعمق ، فالرسول r قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : « أن تكفه عن ظلمه »[1] .

فحين سمع الصحابة قوله r : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، شعروا بأنه مناقض لما جاء به الإسلام من النهي عن مناصرة الأخ دون التمييز بيم كونه ظالماً وكونه مظلوماً ، ويسمى هذا الأسلوب الجاهلي في العصر الحالي بأسلوب القتل على الهوية أو اللهجة أو اللَّون ، فأنكر الصحابة أو استشكلوا أن يصدر هذا الحكم من رسول الله ، وسألوه عن ذلك ، فصحح لهم الأمر وأكمله بأن نصرة الأخ الظالم تكون بكَفِّه عن ظلمه .

ولكن الجاهليين كانوا كما يصفهم شاعرهم قريظ بن أنيف :

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم قاموا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكما يقول آخر :

ألا لا يجهلّنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كانوا يعدون هذا من مناقبهم ، ويرون أن من ينتظر حتى يعرف سبب النزاع ليتخذ موقفاً منه ، يكون قد ارتكب عملاً مشيناً ، وخرج من قانون العشيرة ، ومثل هذا أيضاً قضية الأخذ بالثأر ، فلا يشترط أن يؤخذ الثأر من الشخص الذي ارتكب الذنب نفسه ، بل من أي شخص من القبيلة يسد مسد المجرم .

هكذا كان قانون العشيرة ، وهكذا بدأت القوانين المحلية ، إلى أن صارت قوانين عالمية .

الوحدة الأوربية والفكر العالمي

إن انتقال القانون من إطار العشيرة ، ثم إلى القومية ، ثم إلى العالمية ، أمر احتاج إلى تطور كبير وشقة بعيدة المدى وتغير جذري ، ولعل إشكالية العرب والمسلمين هي عند هذه النقطة ، فولاءهم لم يتعد العشيرة أو القطر ، ولم تترسخ في نفوسهم فكرة القومية فضلاً عن فكرة الإسلام أو العالمية ، والأمر لا يتوقف عند العرب والمسلمين ، بل إن المشكلة مشكلة عالمية ، فالديمقراطية لا تزال قومية ، ولم تتجاوز إلى الأقوام العالمية ، ولذلك فإنني حين أقول : إن ظاهرة الوحدة الأوربية الغربية ، ظاهرة جديدة في العالم ، وحين أتحمل تبعة هذا الحكم ، فإنني لا أعتبرها ظاهرة كاملة لا يمكن تجاوزها إلى ما هو أفضل منها ، بل إنني أتبر أن الذين لديهم فكرة عن

---

[1] رواه البخاري في المظالم ، باب : أعن أخاك ظالماً أو وظلوماً ، الحديث رقم (2312) ، ومسلم نحوه من طريق آخر في البر ، باب : نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، الحديث رقم (2584) .

تاريخ الإنسان وتطوره الفكري وتقدمه ، وينظرون إلى البشر كلهم على أنهم عشيرة واحدة وقومية واحدة ، هؤلاء أعتبرهم أصحاب الفكرة الأحدث في العالم .

ربما يتضايق المسلم من هذا القول ، لأنه يشعر أنه عالمي تماماً ، ولكن بشرط أن تكون عشيرته هي التي تقود العالم وتسوده ، أما أن يكون مواطناً أو إنساناً مثل سائر البشر ، فهذا ما لم يتعود بعد على بحثه .

ثم إنني أريد أن تتذكر معي أن الأمر لا يقتصر على وجود الفكرة فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل في سلوك الإنسان ، فوجود الفكرة بشكل أولي لا يستلزم إيمان الناس بها إيماناً يظهر على سلوكهم ويدخل في لا شعورهم ، والناس كثيراً ما يتحدثون عن العدل والمساواة ، ولكنهم عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية الأكثر عمقاً في داخلهم ، والذي يبدو أن دخول البشر إلى عهد القومية أو الإنسانية جاء متأخراً ، ولعل فكرة الإنسانية ولدت قبل فكرة القومية ، ولكن تحولها إلى مفهوم حاكم لسلوك الناس في حياتهم العملية أمر حديث الولادة .

الأمم المتحدة والعشائرية

وحتى في الأمم المتحدة ، حيث يكثر الحديث والجعجعة والكلام عن العدالة والمساواة ، فإنه عند التطبيق يكون الحكم عشائرياً ، وما حق النقض (الفيتو) إلا حق عشائري ، إنه حق القوي وليس حق العدل أو الإنسان ، إذ لا يمكن أن يتلاقى حق النقض (الفيتو) مع حق الإنسان ، ولو كانت حقوق الإنسان مرجعاً لألغت حق النقض (الفيتو) .

ينبغي أنن يتحول هذا الموضوع إلى علم قابل للدراسة والتحليل ، لمعرفة آلياته وكيفية تكونه وصناعته ، وما لم تنتشر هذه الثقافة على أساس إمكان تحويل الناس إلى هذه العملية التغيرية ، فإن عدم الوضوح وترسُّخ فكرة العشيرة الموغلة في القدم ، سيبقينا في صراعات لا نهاية لها .

إن العشائر موجودة منذ مئات الآلاف من السنين ، أما المجتمعات التي تضم عشائر عديدة فهي مجتمعات حديثة العهد ، وأقدم المجتمعات البشرية لم يمض عليه أكثر من عشرة آلاف عام .

لقد كان التحول بطيئاً وتلقائياً ، فدخول الإنسان إلى عهد الزراعة هو الذي مكنه من الاجتماع مع عدد أكبر من البشر ، ومع الزراعة وجدت التجمعات البشرية الكبيرة على ضفاف الأنهار السهلة الاستغلال .

لا بد من معرفة ومتابعة كيف بدأ الخلق ، خلق الولاءات وتوسعها ، ومعرفة الحالة التي نعيش فيها ، وكيف أننا نعيش في عهد ادعاء الإنسانية ولا يشعر المدعي بأي خجل من نفسه إذ ينتهك حقوق الإنسان ، وإذ لا يؤدي واجباته .

إننا نعيش عصر دعوى الديمقراطية ، وسلوك أبعد ما عرفه الناس عن الديمقراطية ، بدون أدنى خجل أو وجل ، وسلوك ما لم يكن ملوك العهود القديمة يتمكنون من سلوكه .

هناك قانون غير القانون المكتوب ، وغير المنطوق ، قانون يترسخ بالسلوك والممارسة ، والأطفال يتشربون هذا القانون أو المفهوم العملي غير المتصل بالكلام الشفهي المنطوق ، وغير المتصل بالكلام المكتوب المقروء ، ونستطيع أن نراقب ذلك في حياة الناس منذ طفولتهم ، وحتى يصيرون حاملين للثقافة المتداولة ، وينبغي أن نفهم أن سلوك البشر صار قابلاً للدراسة ، ولم يعد شيء منه خفياً ، وحتى الأمور التي لا زالت خافية لم تعد معجزة ، وما كشف حتى الآن يدل على أن ما بقي منه قابل للكشف .

الأطفال واكتساب المفاهيم

إن المدخل الذي يمكن لنا أن نفهم بواسطته أن سلوك البشر قابل للكشف والتوجه هو أَوَّلاً أن الله تعالى قال لنا : إن ما بكم من دوافع خير أو شر هي بأيديكم : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 7/91-10] ، وعملية التزكية والتدسية مهمة بشرية ، وقد حاولت سابقاً ، في هذا البحث ، الإشارة إلى هذا الفهم ،

ليكون عندنا الدعم الإلهي في هذا الموضوع ، كي لا يفهم أحد أنا ننازع الله تعالى ، أو أننا نريد أن ننزع شيئاً لم يمكّنا منه ، و لم يقل لنا إنه من عندكم .

والجانب الآخر الذي أشعر أنه مهم بالدرجة نفسها ، بل بدرجة أهم ، لأن الله أعطاه أهمية كبرى ، أعطاه الأولوية ، وجعله مرجعاً للأحكام الموجودة في الكتاب الذي أنزله ، هو أن نفتح أسماعنا وأبصارنا جيداً وأن نحدق في ما يحدث ونفهم كيف يحدث ، وهو أيضاً أن نظر إلى الأطفال الذين تدفعهم الأرحام إلى الوجود ولا يملكون فكراً أو كلاماً أو كتابة ، وليس لديهم إلا الاستعداد لأن يكونوا أي شيء تكون عليه بيئتهم ، فكل طفل يولد في العالم العربي يصير عربياً في لسانه وفكره ، حين لا يرى غير قومه ، والصيني يصير بوذياً ، والهندي برهمياً ، وكذلك كل أطفال أهل الملل والنِحَل واللغات .

فلننظر إلى الأطفال كيف يلتقطون المفاهيم واللغات الشفوية ، ثم كيف يتعلمون بعد ذلك ، وبعناء ، اللغة الكتابية .

إن الطفل يقضي سنتين أو ثلاثاً قبل أن يتكلم ، ويقضي سنتين أو ثلاثاً أخرى قبل أن يبدأ تعلم المعنى من الكتاب .

خلال السنتين أو الثلاث الأولى ، قبل أن يتكلم ، يتعلم لغة السلوك الواعي ، ولغة الانفعال ، التي تبنى على المفاهيم اللاشعورية التي يقول الله تعالى عنها : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) [البقرة : 11/2] ، (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [البقرة : 10/2] ، (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي مفاهيم خاطئة ، هذا المرض لم يولد مع الطفل ، بل هو مرض أودع فيه قبل أن يتمكن من الكلام والقراءة ، قبل أن يتعلم اللغة ، لم يودع فيه المرض في المدرسة ، بل في المهد وهو ينظر إلى مناغاة أمه وسلوكها معه ، ومع من حولها من الكبار والصغار ، فكله أذن وعين تصب في لا وعيه مفاهيم الحضارة التي احتاجت إلى آلاف السين ، خلال سنتين أو ثلاث .

إنه يبدأ بالتمييز بين الأصوات الغاضبة والأصوات الحنون ، وبين الوجوه المقطبة الغاضبة ، والوجوه الباسمة المطمئنة الراضية .

من هنا يتعلم الأشياء المقدسة التي نغضب من أجلها إذا انتهكت ، والأشياء والمفاهيم المدنسة التي نغضب ، ونرفع أصواتنا ، ونقطب وجوهنا منها ، لهذا فإن الطفل حين يبدأ في الحبو ، والإمساك بالأشياء ، واللعب بها ، ينظر إلى وجوهنا ليطمئن إلى أن سلوكه يُقابَل بعلامات الرضا على وجوهنا ، وهكذا يفهم القيم العميقة التي تحكم سلوكنا قبل أن يتكلم ، وقبل أن يعرف الكلمات ومعانيها ، فتبدو هذه القيم عميقة في شخصيته وكأنها ولدت معه ، لأنها تغرس فيه عملياً ، وحين يتحدث المربون عن أهمية موضوع القدوة والأسوة ، فهم إنما يلحظون هذا الجانب .

يحدث هذا لدى الطفل في السنوات التي تسبق ذهابه إلى المدرسة ، وقبل أن يتعلم الكلام ، وهذا ما يحكم سلوكه العميق في حياته القادمة ، ويصعب عليه أن يخرج على ما تعلمه وغرس فيه في سنوات عمره الأولى ، لأنه تغلغل في اللاشعور .

أما حين يبدأ بتعلم الكلام الشفوي فإنه يكتشف أشياء عجيبة يندهش لها ، إنه يكتشف التناقض القائم بين سلوكنا وكلامنا ، سواء كان شعورياً أو لا شعورياً ، فيتعلم بشكل عملي عجيب إمكانية أن يعيش الإنسان حياتين : حياة كلامية فيها مقدسات تعيش في عالم الكلام ، لا تضرها تصرفات الإنسان بخلافها في حياته ، يفهم الطفل هذا قبل أن يعي الأمور جيداً ، يتعلمه مع الكلمات الأولى ، يتعلم الكذب ، ويصير فيلسوفاً في فهم هذه الأمور ، وكأنه خلق بالفطرة هكذا ، يتعلم مستويات التناقض بين الكلام والسلوك بشكل عملي .

إننا نفترض في كثير من الأحيان أن الكلام يختلف عن السلوك ، ومن الأقوال السائرة بيننا قولهم : « خذوا بأقوال العلماء ، ولا تفعلوا أفعالهم » ، لكن الذين يقولون هذا لا يدركون مقدار البؤس الذي تحمله مثل هذه الأقوال ، وكيف أن الإنسان الذي يقول ما لا يفعل يعيش حياتين متناقضتين ، ويعيش بوجهين مختلفين .

إن الطفل يتعلم جوز الغدر والشطارة والحذق ، وربما يتعلم أن أصحاب قيم الصدق لا يَعْرفون ، سواء كان في الساسة أم الدين

.

إننا نعيش حياة بعيدة عن الصدق ، ولا يزال الطفل يلاحظ هذا في حياته المنزلية في المراحل الأولى من دخوله إلى عالم الكلام الشفوي ، أما حين يبدأ بالذهاب إلى المدرسة ، ويقرأ الكتب ، فإنه يجد أن القيم التي تعرض عليه على أنها مقدسة جداً ، لا تجد التعبير عنها في سلوك معلميه وحياتهم ، بل يجدهم يعيشون وهم يقدسون السلوك والمفاهيم التي يروها دنسة حقيرة .

هذا هو العالم الذي نعيشه ، لا أحد يريد أن يدخل إلى هذا العالم القائم بذاته ، والذي بيننا وبينه حاجز متين لا قدرة لنا على اختراقه .

أنا أزعم هنا أنني وجدت الثقب للدخول إلى هذا الموضوع ، فليست الحياة هي المعقدة التي لا حلّ لها ، بل نحن الذين عقدنا الحياة وبدّلنا نعمة الله نقمة ، فالأمر ليس بهذا التعقيد والغموض .

الإنسان وعلم التغيير

هل أستطيع ، بمحاولاتي هذه ، أن أفتح بعض الشقوق ، إن لم تكن نوافذ ، لاختراق المأزق الذي نعيش فيه ؟

الحياة ليست بهذه القساوة ، بل إن باستطاعتنا أن نجد الحلول الميسرة السهلة الاقتصادية ، التي تقطع تسلسل الخطأ وإعادة إنتاجه .

تذكر مرّة أخرى كيف أن الله تعالى خبَّأ عن البشر حركة الأرض ، فكانوا يظنون أن الشمس هي التي تدور حولنا ، وكان لديهم استعداد أن يقتلوا من يرى غير ذلك ، وعندهم استعداد لأن يموتوا في سبيل المحافظة على هذه الفكرة ، وكانوا ينسبونها إلى الله وإلى المقدس : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) [الشعراء : 26/67-69] .

سأظل أتلو عليك من أنباء ما قد سلف : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [يوسف : 12/111] .

إن علم تغيير ما بالأنفس علم لم يبدأ بعد في الجلاء والوضوح ، ولا نزال نعيش في عهد يشبه عهد الأمراض الجسدية قبل أن يعرف الناس الجراثيم ، كم كانت الأوضاع مأساوية في ذلك الحين ؟! وكيف توقفت الأمراض بعد أن عرف الناس أسبابها ؟!!

إن الأمراض النفسية التي نعيشها شبيهة بذلك شبهاً كبيراً ، ولكن كيف نفهم أن عالم الأفكار قابل للفهم مثل عالم الأجساد ؟

لقد كان باستور يفكر وهو في مختبره بالكيفية التي تتولد فيها الأمراض الجسدية وتنتقل بالعدوى ، ولكن كيف نفكر نحن الآن في قوانين تكوين عالم الأنفس ؟

حقاً إن الأمر غامض ، ولكن هناك شقوق يمكن من خلالها الاطلاع على ما بالأنفس ، فكيف نقلنا ما بالأنفس من أفكار ، وكيف غرسناها ؟

حينما نعرف مسار تلك العملية ؛ فإننا نتمكن من وضع عملية تغيير ما بالأنفس تحت إشرافنا الدقيق ، وتحت الأضواء الساطعة ، ولعل محاولتي الصغيرة جداً هي محاولة للتنبيه إلى الكيفية التي نغرس بها الأفكار دون شعور منا ، ودون شعور من الطفل .

إننا نورثهم أمراضنا الثقافية ، والدخول إلى هذا العالم ، إلى خريطة عالم الأنفس ، وإلى المراحل التي تتكشف فيها ، يكشف عالماً جديداً كل الجدّة .

إن العلماء تعمقوا في الفلك واستطاعوا أن ينظروا إلى أبعاد كونية بملايين ومليارات السنين الضوئية ، وتغلغلوا إلى داخل الذّرّة ، إلى جزيئاتها ، ولا يزالون يتوسعون ويتغلغلون ، ولكن ما شأن عالم الأنفس ؟ كيف يمكن أن نتعلم مبادئه الأولية ؟

المساواة والقضاء على الظلم والفساد

أريد أن أقول ، بحرف مضمر وكلمة واحدة : إن القضاء على الظلم والنفاق ، يكون حين نلمح أن قانون البشر واحد كما أن قانون الذرات والأفلاك واحد في نظام سيرها .

فإذا فهم الناس ، أو وجد من يكشف لهم أن السيئة سيئة ، سواء منا أم من غيرنا : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ [ولا بأماني أحد من البشر]- مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا) [النساء : 123/4] ، ولن تبكي عليه الأرض ولا السماء .

إن أم الأمراض النفسية وبؤرتها هي أن تترفع عن قبول أن ينطبق عليك ما ينطبق على الآخر ، وبكلمة أخرى : أن تعطي لنفسك امتيازات لا يتمتع بها الآخرون .

قديماً قالوا : قد أنصفك من ساواك بنفسه . فهل يمكن لنا أن نقبل المساواة ؟ ما معنى أن نقبل بها ؟ هل نجرؤ على تحمل تبعة هذه الفكرة ؟ إلى أي مدى يمكن أن نقبل المساواة ؟ عند أي نقطة سننكص عن الاعتراف بها وسنرفضها ؟ هل يمكن لأحد أن يقدم الدليل على قبوله بهذه الفكرة ، من غير أن يكون قد قبل فكرة ابن آدم ؟ هل عندك استعداد لأن تقرر هذه القاعدة ؟

أنا لا أعطي لنفسي حقاً أحرمك وأحرم الآخر منه ، وسألتزم هذه القاعدة ، وإن كنت ترفضها ، وبهذه القاعدة يمكن لنا أن نضع القانون الذي لن يُغلب متمسك به ، لأنه قرر القاعدة التي يحمي بها نفسه ويحمي الآخرين .

هل يمكن لنا أن نقبل أن يكون للآخر ، الذي يحمل ديناً مختلفاً أو لا يحمل ديناً ، مثل الحق الذي نملكه تماماً ، على الرغم من شعورك بأنك تمتلك دين الحق وأنك غني ومتمكن وقوي ؟

قد يكون قريباً وجود فرد يقبل ذلك ، ولكن هل يمكن أن يوجد مجتمع يكرس حياته كلها مستنفراً لحماية العدالة بين جميع الناس والمجتمعات ؟ هل يمكن أن نتصور ذلك ؟ هل يمكن أن نجند أنفسنا لصنع هذا المجتمع إن لم يكن موجوداً ، وألا نتحول إلى حُماة للامتيازات وللذين يحمون الامتيازات ؟

من تأييد الظلم إلى الوقوف بوجهه

ليست القضية أن تحمي مجتمعك من الاعتداء عليه من الآخرين ، ولكن القضية هي أن تمنع مجتمعك من العدوان على الآخرين ، ومن الاحتفاظ بالامتيازات على حساب الآخرين .

إن انتقال الإنسان من تجنيد نفسه لحماية المجتمع أو حماية امتيازاته ، إلى تجنيدها لمنع مجتمعه من ظلم الآخرين والاحتفاظ بالامتيازات دون الآخرين ، هذا الانتقال هو مفترق الطرق الذي هلكت عنده الحضارات جميعاً .

سهل عليك أن تعترف بشيء من هذا وأنت مريض وضعيف ومضطهد ومسكين وفقير ، سهل عليك أن تستجيب لمعنى العدل ، وألا يكون لك امتياز على الآخرين ، ولكن ما هو الميزان الذي ستزن به الأمور حين تكون قوياً غنياً ، تأمل أن يزداد سلطانك ، وتخشى أن ينقص أو يزول ؟

ينبغي أن يتعلم الناس أن عليهم ألا يكونوا جنوداً لخدمة هذا المجتمع السكران ، ولخدمة من يمثل المجتمع الذي لوى عنقه الهوى ، وسيطر عليه الغرور ، فرفع رأسه وأعلن : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) [فصلت : 15/41] ، (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [يونس : 13/10-14] .

تأمل جيداً الفكرة الموجودة في هذه الآية ! كيف يمكن أن نكشف فيها دورة الفلك ؟ كيف يمكن أن نرى فيها كيف تخدعنا دورة الشمس ؟

إن القرون الذين سبقونا أهلكوا جميعاً ، لم يذكر التاريخ عن أحد منهم أنه اجتاز هذه العقبة ، فالجميع سقطوا في هذا المُنحدر ، إلاّ قوم يونس .

كنت ذكرت لك تشاؤم ذاك الذي راقب الحضارات ، والتاريخ إلى الآن لا يسعفنا بالنماذج التي لا تنسى التاريخ ، ولا تريد علوّاً في الأرض ولا فساداً ، وهذا لا يدل على أن الأمر مستحيل ، ولكنه يدل على أننا لا زال في عهد طفولة المجتمعات التي لم تتعلم بعد كيف تتعايش من غير أن يتعالى بعضهم على بعض ، ومن غير أن يتبادلوا التعالي .

ربما يخطر للمسلم أنه هو صاحب التاريخ العظيم ، وأنه هو الذي تمكن من صنع الرشد أو تلمسه ، ولكنه فسّر موضوع الرشد بعد أن ذهب منه الرشد وكان تفسيره للرشد تفسيراً خوارقياً ، تفسيراً عُلوياً ، ولذلك لم يستطع إيقاف ذهابه ، فودعه حسيراً ، و لم يتبين الرشد ، بل دخل عهد التعالي ونبذ العهد ، و لم يعودوا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، لا قرابة ولا عهداً ، و لم يعد فينا من يدعو إلى الرشد .

نحو العدل والمساواة

ألم يكف ما مَّر علينا من هلاك القرون فيكون لنا بها عبرة ؟ أليس في أنبائها ما يحملنا على الدعوة إلى الرشد والتخلي عن العلو في الأرض ؟ أليس فينا رجل رشيد ؟

تعلموا تأمل ما حدث في التاريخ وما يحدث ، تأملوا ما يحدث في أُوربة الغربية ! إنهم على الأقل رفعوا مستوى التخلي عن التعالي فيما بينهم وأقروا أنهم بشرٌ متساوون .

إن ما يحدث مدفوع الثَّمن ، إنهم فهموا تجاربهم ، وقوّموا تاريخهم ، لم ينكروا التاريخ ، و لم يُعرضوا عن عبر الأحداث .

كيف ومتى تتعلم المجتمعات عبر التاريخ ؟ هل يمكن اعتبارهم بقوم يونس ؟

إن جهاز معرفتنا هشٌّ وكليل عن إمكان ربط الأسباب بالنتائج ، وعاجز عن تخيل حصيلة تجاربنا للماضي .

لقد وُصف آد بالنسيان ، ونحن أمرنا بالتذكر والتذكير ، وقيل لنا إن النسيان يوهن من العزائم (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) [طه : 115/20] .

كيف سنقوم بعملية التذكير ؟

نقوم بذلك بالعودة إلى التاريخ : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) [طه : 115/20] ، والله تعالى قال لمحمد r : (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) [الأعراف : 102/7] ، وقال : (وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ) [هود : 122/11] .

إن في قصص التاريخ ما يثبّت الفؤاد ، ولهذا فإن الله تعالى يعطي أهمية كبرى للتاريخ باعتباره من أهم مصادر المعرفة ، ومن أنفع وسائل التربي ، فحين تشتبه الأمور وتخور العزائم ، فإن من يتذكر التاريخ يثبُتُ فؤاده ، وإذا لم تصدقوا هذا ، و لم تؤمنوا به ، فـ (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ) .

القرآن ينقل مصدر المعرفة إلى التاريخ :

لقد انتقل مصدر المعرفة ، بواسطة القرآن إلى التاريخ وأحداث البشر ، وإلى الصراع بين المستكبرين في الأرض والآمرين بالقسط من الناس .

تأمل هذا جيداً ، لا تنسَ التاريخ ، إن نسيانه يوهن العزم ، وإن تذكره يثبت الفؤاد ، وإذا لم تسمع هذا من قبل ، فاسمعه الآن ، وإن كنت تتردد في تفهمه ، فأعد النظر كرتين ، بل ثلاثاً ، وأنا أعيد وأعيد النظر مراراً ، وعلى قدر إعادتك وتأملك يكون فؤادك ثابتاً ، وإلا فإنك تفقد العزيمة والثبات .

إن أنباء السابقين فيها موعظة وذكرى للمؤمنين ، ومن لم يتعلم من أحداث السابقين ، فسيدفع الثمن ، وسيلدغ من الجحر الواحد ، ليس مرتين ، ولكن مراراً كثيرة ، ولن يملَّ الله حتى تملّوا .

كيف سنزين للشباب الإسلامي والعالمي معرفة التاريخ ، وأنه يمشي وفق تخطيط الله الذي لا يضيع طريقه ، ولم يضيع طريقه خلال مليارات السنين .

لقد صار للإنسان قدرة وأمانة عظيمة ، بما أعطي من قدرة على تأمل التاريخ ، وإمكان اختزاله بتقليل الزمن والتكاليف ، وعدم تكرار التجارب الخاطئة .

هذا هو مكان الإنسان الذي ينبغي ألا ينساه ويغفل عنه .

إن عدم معرفة أهمية التاريخ هو الذي أوصل الفلسفة الغربية والفكر الغربي إلى العدمية السوفسطائية العبثية ، وإلى أن العالم ليس فيه حق يمكن التعرف عليه ، ومن هنا أعلنوا موت الله ، وموت الإنسان ، ولم يبق أمامهم إلا العدمية على درجات متفاوتة ، ولكن العدمية تمنع الحركة مطلقاً ، لأنه لم يعد يوجد لا رشد ولا غي ، وكله باطل الأباطيل وقبض ريح ، ولو أن الفكر العدمي سيطر على الإنسان شعوراً ولا شعوراً لتحول إلى مجرم كما فعل التوسوري ، ومن لم يصل إلى هذه الدرجة فإن حياته لن تكون أفضل كثيراً .

إن ذهن الإنسان لا يؤتمن ، ولكن التاريخ يؤتمن ، لأن التاريخ لا يمشي على أهواء البشر .

إن للتاريخ هدفه ، ولذلك يجعله القرآن مصدراً للمعرفة ، وليس هذا فقط ، بل إنه الشاهد الذي يعتمد عليه القرآن في إثبات صدقه ، ول علم الناس أهمية التاريخ ، وأنه المرجع الأول والخير ، فإن من لا يعتبر بالتاريخ المكتوب ، فإن التاريخ الحي المتحرك في الأرض سيضطر الإنسان إلى الاعتبار وتغيير المسار ، وسيضطر الناس إلى قبول هذا . ومن لم يعرف هذا النبأ فسيعرفه رغماً عنه (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) [ص : 88/38] ، (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيبًا) [المعارج : 70/6-7] .

كن كابن آدم

المحتوى

الموضوع
المحتوى
المقدمة
تمهيد : لغة الحروف ولغة المعاني
متى يفقد الكتاب معناه وجدواه
لغة الحروف ولغة والمعاني
ابن آدم والفرق المتصارعة
القرآن والتاريخ
الإنسان والكبر
الفصل الأول : السلطة والمعرفة
الاختصاص والمؤسسة
العلم والعمل
اللغة وحفظ التجارب
هل السلطة هي المعرفة
السلطة والمعرفة في ضوء الشعور واللاشعور
السلطة وعلاقتها بقوة الجسد وقوة العلم
مفهوم التغيير كما يطرحه الأنبياء
النزاع الفكري والنزاع الجسدي
رحلة الارتقاء الإنساني
الأنبياء وحرية الفكر
الشعور بالأمن والثقة بالأفكار
إبراهيم وسقوط مرجعية الآباء
العدل وفصل معترك الأفكار عن معترك الأجساد
الإسلام و (لا إكراه في الدين)
لا طاعة في معصية
الإلهي السماوي والسفلي الأرضي
اليمان والظلم

الإيمان ومذهب ابن آدم الأول
الفصل الثاني : الخوف من المعرفة
بدايات التفكير بـــ (كن كابن آدم)
ابن آدم ومشكلة الفساد
أثر المناخ الثقافي في آلية التفكير
أمراض الجسد وأمراض الفكر والنفس
بل أنتم بشر
المسلمون وعبر التاريخ
الإله وتصوراتنا عنه
الواقع وما بالأنفس
مرجعية العواقب
العدمية في الفلسفة الحديثة
دراسة التاريخ في المدة الطويلة
ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً
الواقع والصور الذهنية
بناء الحياة الراشدة
الخوف من المعرفة
الخروج من لعبة القاهر والمقهور
القرآن و (لا إكراه في الدين)
ميزان الزبد والنافع
التوحيد و (لا إكراه في الدين)
ميزان العواقب
بين الرشد والغي
الجهاد و (لا إكراه في الدين)
عواقب التباس الرشد بالغي
تعميم مبدأ اللاإكراه
العالم وعقيدة التشاؤم
الفصل الثالث : قراءتان للقرآن
فعل الله وفعل الإنسان
الارتباط الوثيق بين القراءتين
موقف القرآن من الذي ينسبون أخطاؤهم إلى الله
تويني ونظام سير الحضارة
استثمار طاقات الأطفال

أثر المعرفة التاريخية في الإنسان

احتفال القرآن بالمواقف التاريخية الصحيحة

بين النظر والانتظار

التاريخ وفرز الحق من الباطل

القرآن والتاريخ

المسلمون والتاريخ

التاريخ والحجة الإبراهيمية

المقدس والنافع

العواقب المعجلة والعواقب المؤجلة

الدخول إلى معبد التاريخ

مذهب بلال ومذهب ابن آدم

بلال وتغيير ما بالأنفس

اليأس والكفر

الجنون والسحر والرحمة والعذاب

الأنبياء والرحمة

من دلالات حرب الخليج

القراءتان وصرف الإنسان عن الآيات

أمراض الفكر وجراثيمه

الفصل الرابع : الغيرية والجنون الأعظم

النتائج المعجلة والنتائج المؤجلة

فوكو والتاريخ

قانون الخير والأبقى

العدل والمساواة في القانون

الخير اللحظي والخير الأدوم

المعرفة التاريخية والتطعيم ضد الفساد

خفاء العواقب المؤجلة أو إخفاؤها

بين الآباء والأبناء

بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة

أبو ذر في التاريخ

مشكلة الفهم

الدليل الذهني والدليل الواقعي

فهمنا الخاطئ للرسول

دلالات العذاب ونتائجه

النقد الذاتي والمراجعة
تغييب معاني قصة ابن آدم
البشرية بين الجمود والتغيير
النسبية في الحياة الإنسانية
نحو كتابة التاريخ الإنساني
تساؤلات في موضوع الرشد
الطفل وطرح الأسئلة
الخلق الجسدي والخلق الفكري
التكبر والانصراف عن آيات الله
تغيير الحكومات وتغيير الأفكار
الكبر والتغيير
تحسين أسلوب الخطاب
الأنبياء وتسريع عملية التغيير
الفصل الخامس : الإنسان والتاريخ
فوكو ونيتشه ومرجعية التاريخ
الإنسان والتغيير
الإعدام الجسدي والإعدام الفكري والجنون
مشكلة اللغة
اللغة والعواقب
الإنسان ومشكلة اللغة
الحق والباطل والعواقب
المجتمعات والتمركز حول الذات
جدلية العلاقة بين الاستكبار والاستضعاف
المسلمون وصناعة السلام
الرشد وهدف الوجود
الإنسان وقانون التضاد
لنفس الإنسانية بين الفجور والتقوى
الأنبياء وحرمة النفس الإنسانية
بناء الرشد بالرشد
الفصل السادس : في دلالات آية الوحدة الأوروبية
التاريخ يزيل الالتباس
التأمل في الآيات التاريخية
تقبل الحسنات ورفض السيئات

الغفلة والعذاب الأليم
التراث الأوربي والسوق المشتركة
السعي الدؤوب لتحقيق الهدف
الفجر الجديد وكلمة السواء
توجيه الطاقات واستثمارها
الإنسان بين التزكية والتدسية
السوق الأوربية والرشد
العلم قبل المال
الإنسان والتسخير
التاريخ والمستقبل
اليأس والكفر
مشكلة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان
السوق الأوربية وكلمة السواء
كيف بدأ خلق الوحدة الأوربية
الوحدة الأوربية والتصوف
التخلص من الإكراه باتجاهيه
الاتحاد السوفييتي والإكراه
الصينيون بين الإكراه والرشد
القراءتان التاريخية والماورائية للقرآن
نموذج القراءة التاريخية : (قصة قوم يونس)
الغرب والعبثية
غائية الوجود
القرآن والشك
نهاية الحلول البطولية
الشك بين الوسائل والغايات
سبيل الاتحاد الأوربي وسبيل الاتحاد السوفييتي
أوربة والعذاب الأليم
الفصل السابع : مذهب الرشد ، مذهب ابن آدم والأنبياء
الحضارات وتحدي الكدح الإنساني
الأنبياء وحركة الكدح الإنساني
تطهير القلب واليد واللسان
الزيغ والالتباس
الكفر الدنيوي والكفر الأخروي

الدكتور البوطي وكتاب الجهاد
قوم يونس وتفادي العذاب
مسيرة التقدم التاريخي
الإنسان وأمانة التاريخ
ميزان الحق والباطل
القتل والتهجير
ابن آدم واليد البيضاء
سبيل الرشد في مذهب ابن آدم
مذهب ابن آدم والتخلص من الالتباس
المسلمون ومحاولة صنع الرشد بالغي
طريق الحق وطريق ابن آدم والأنبياء
سبيل الرشد وسبيل الديمقراطية
موقف ابن آدم موقف لا لبس فيه
مراتب العمل
المشكلة الإسلامية والتحدي الفكري
الحق والباطل في القرآن وفي تصوراتنا
النبي **r** والقوة الفكرية
التباس الرشد بالغي
الوضوح والنقاء في مذهب ابن آدم
الأنبياء والصبر على الأذى
الإسلام وإلغاء النصرة الجاهلية
الوحدة الأوربية والفكر العالمي
الأمم المتحدة والعشائرية
الأطفال واكتساب المفاهيم
الإنسان وعلم التغيير
المساواة والقضاء على الظلم والفساد
من تأييد الظلم إلى الوقوف بوجهه
نحو العدل والمساواة
القرآن ينقل مصدر المعرفة إلى التاريخ

المقدِّمة

الحمد لله ، وسلام على عباده الذي اصطفى ، والآمرين بالقسط من الناس .